حماة الإسلام

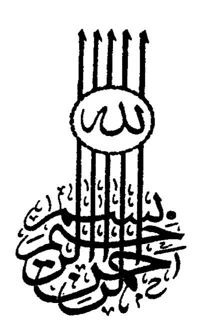
تأليف

مصطفى نجيب

تقديم وتعليق

الشيخ عبد رب النبي توفيق

دار المدائن للنشر والتوزيع



حماة الإسلام

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وعلى آله وأصحابه ومن دعا بدعوته وقام على حماية شريعته إلى يوم الدين .. وبعد .

فلا تنهض الأمة أو ترتقى إلا إذا قويت صلتها بأصولها ، وارتبط حاضرها بماضيها ، واتصل حديثها بقديمها ، ولا يقصد بهذا الارتباط والاتصال ارتباط الذكريات والتغنى بالأمجاد السالفة فحسب ، وإنما نعنى بذلك أن تستحضر الأمة ماضيها المشرق المجيد ، فتستمد من معينه أنفع الدروس ، وتستفيد من صانعيه أحسن العبر باقتضاء آثارهم قدوة ومنهاجاً .

إن الأمة الإسلامية أمة عميقة الجذور ، عظيمة الأصول ، شامخة البنيان ، استطاع الزعيل الأول فيها أن يقدم للبشرية أعظم ما تحلم به من حضارات ، تجمع بين الرقى المادى والسمو الروحى ، مستمدة هذه الحضارة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ . وهذان المصدران يتمثل فيهما هذا الإسلام العظيم ، الذى جمع الرعيل الأول بين تقديمه للبشرية والزود عنه منذ هجمات أعدائه ، التى جمعت بين غزو العقول بالشبهات ، ومحاربة أبنائه بالجيوش ، وقد شارك فى حماية هذا الإسلام العظيم حكامه وقواده وعلماؤه ، فكانوا بحق « حماة الإسلام » وهذا الكتاب الذى نقدمه إليك أيها القارئ الكريم والذى يحمل اسم « حماة الإسلام » ، كتبه عالم فاضل وأديب كبير جمع بين غزارة العلم وعمق التجربة وإنكار الذات ، فقد كتبه ضمن سلسلة مقالات نشرت فى عدة أعداد من مجلة (اللواء) ، التى كان يصدرها زعيم الوطنية الإسلامية مصطفى كامل ، وقد حرص كاتب هذه المقالات على عدم كتابة اسمه عندما كانت تنشر الأعداد ، رغبة فى نيل ثواب الله وحده ، وبعد وفاته جمع الزعيم مصطفى كامل هذه المقالات فى هذا الكتاب ، وأفصح عن اسم مؤلفه فى تقديمه بهذا الكتاب والسبب الذى دفعنا إلى إخراج الكتاب بالشرح والتعليق : أنه يتحدث عن حماة الإسلام حديثا طيبا يجمع بين جودة تصوير الأحداث وروعة التعليق عليها فى أسلوب تربوى أخاذ ، مما جعل إمام الجيل الشهيد حسن البنا ، يوصى بقراءته

ودراسته فى بعض رسائله ، ثم أنه كتاب يقدم له زعيم الوطنية الإسلامية ، ويوصى بقراءته باعث النهضة الإسلامية .

كتاب كهذا جدير بأن يتصفحه الشباب وغيرهم ، لا ليستمتعوا بقراءته فحسب ، بل ليأخذوا منه العبر والدروس العملية ، فينهضوا بالإسلام كما نهض به سلفهم الصالح ، ويزودوا عن حماه كما فعل حكام وقادة وعلماء الإسلام ، الذين ترجم لهم المؤلف رحمه الله فى كتابه .

ويتضمن هذا الكتاب تراجم لعديد من حماة الإسلام بدأت بالرسول الأعظم حامى حماة الإسلام ، ثم أتبع ذلك بتراجم للخلفاء الأربعة الراشدين ، أتبعها بسيرة بعض خلفاء بنى أمية ، وبعض خلفاء الدولة العباسية ، ودولة الأندلس ، والدولة الفاطمية ، ولم ينس أن يترجم للأئمة الأربعة ، وبعض قواد الفتوحات الإسلامية .

هذا وقد حرصت فى التعليق على هذا الكتاب ، على رد الآيات إلى سورها مع ذكر أرقامها ، وإسناد الأحاديث النبوية وأحداث السيرة إلى رواتها ، مع بيان درجاتها ، كما قمت ببيان معانى ما صعب من كلمات وهى كثيرة .

والله تعالى أسأل أن ينفع به القراء وأن يتغمد مؤلفه فى رحمته ، وأن يتقبل منا هذا العمل ، إنه سميع الدعاء ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عبد رب النبى توفيق

الاسكندرية فى ١٤١٢هـ = ١٩٩١م

مقدمة زعيم الوطنية الإسلامية

مصطفى كامل

حمد الله وأصلى على نبيه الكريم سيد الأنبياء والمرسلين وبعد . فقد رأيت أن المسلمين ، فى تأخرهم وانحطاطهم وانشقاقهم وافتراقهم ، محتاجون إلى عظات التاريخ وعبر الحوادث السابقة أكثر من غيرهم ، مفتقرون إلى معرفة أسباب تقدم آبائهم وسبل نجاح أسلافهم ، غير محيطين بمفاخر عظماء رجالهم . تلك المفاخر التى يجب على كل مسلم أن يعرفها ويحفظها ويبذل جهده للاتيان بمثلها . وعلمت من سياحاتى فى بلاد الغرب ورحلاتى إليه أن أهم الأمور لدى أهله معرفة سير السالفين من عظماء الرجال الذين رفعوا للأوطان منارا عاليا ، وشيدوا من المجد صروحا لا تنالها يد الحدثان ، وأقاموا للعلم والفضيلة بنيانا وأى بنيان . وأن للقوم فى ممالك أوروبة حرصا شديدا على تلك السير فتراهم يباهون بها الأمم ، ويجعلونها لأبنائهم وناشئيهم الدروس الأولى والقصص التى بها يتفكهون ، ومنها يتعلمون .

فدفعتنى محبة الإسلام ورغبتى الأكيدة فى خير بنيه ورفعة أهله إلى دعوة كاتب من علية كتاب المسلمين ، ومؤرخ من كبار المؤرخين لوضع تراجم عظماء الرجال فى الإسلام تنبيها للغافلين ، وإرشادا للجاهلين ، وإحياء لتلك المآثر الباهرة ، والسير العاطرة . فأجاب الدعوة حبا للخدمة العامة . واشترط علينا كتمان اسمه ليكون العمل خالصا لوجه الله الكريم .

وقد نشر الكثير من هذه التراجم فى اللواء تحت عنوان « حماة الإسلام » فكان لها من الدوىّ والرنين ما لم تنله أبدع رسائل المنشئين ، وأجود منشآت الكاتبين . مما حبب إلينا جمعها فى هذا الكتاب ونشرها بين الأمة الإسلامية الكريمة عساها إذا ذكّرت بالمجد القديم والشرف الغابر تحيا منها نفوس هى بحمد الله مستعدة للحياة .

والله المسئول أن يجزى المؤلف خيرا ويحقق ما يؤمل من عز وارتقاء للإسلام والمسلمين .

مصر فى ٤ من ذى الحجة سنة ١٣١٨ هـ

مصطفى كامل

مقدّمة المؤلف

إن الحكيم الذى ينصب نفسه لتربية الأمة يجب عليه أن يدخل بها فى كثير من أبواب الرياضيات فيروضها على صنوف من مكارم الأخلاق ليتحقق من استعدادها الفطرى ، ويظهر له الوجه الذى تصبو إليه ، والمواطن الذى تألفه ، والمقصد الذى تتوجه إليه . حتى إذا دعاها إلى الوُلوج معه من ذلك الباب الذى رآه صالحا لها لبَّته طائعة مشتاقة .

وقد رأينا أن الذين تصبو أنفسهم لوعظ أمتنا هذه ونصيحتها قد قلبوها على أوجه كثيرة من التربية والتهذيب فأخذوها بالرفق والدعوة للخير . ثم واجهوها بالزجر والإعنات . وضربوا لها الأمثال . وحذروها عواقب ما هى فيه ودعوها إلى محاذاة الأمم ومجاراتها . وأهاجوا فيها نار الغيرة وقدحوا لها زندق الشوق لكل فضيلة . ثم رأينا ورأوا أنهم على طول هذا الزمان لم يصلوا إلى كل ما أرادوا ، بل قصرت بهم النتائج عن كثير من المبادئ الشريفة التى نهجوها وأرادوها .

تحقق لهم أنهم كلما اجتهدوا فسدُّوا عليها بابا من أبواب الشر فتح أهل الشر عليها أبوابا من المفاسد ، ولم يأمن فيها العثار ومزلة القدم والحيد عن جادّة الصدق إلا قليلهم .

ظهر لهم أن الأمة لم يكن لها نقطة وسطى ترتكز عليها . بل هى فى مهب ريح الأغراض سائرة مع كل قائد . وخاصة لو عزز الداعى لها دعوته بالبهتان الذى أصبح منطليا على أكثرها فما أسرع أن تلبيه إذا دعاها وتضافره إذا سألها .

ثبت لهم أن فى الأمة عدداً عظيما نسوا ملتهم ودينهم ووطنهم ، بل نسوا الله فأنساهم أنفسهم . فلابد لهم من مذكر يقرع أسماعهم بصوت آخر يكون له فى القلوب رنة ، وفى النفوس صدى يبعث فيها ميت الهمة .

تبين لهم أن فى حواس الأمة خَدَرا جعلها لا تتأثر لمصابها . كصاحب العاهة الذى تعيره الصبيان بها فيتألم منهم فى أوّل أمره حتى يضرب قريبهم ويشتم بعيدهم ريثما يعرف أن الناس تسامعوا بعاهته فاشتهر بها فيسكن ويضحك على نفسه كما تضحك الناس منه .

ولا عجب فى هذا لأن فقدان الفضائل وارتكاب أضدادها ، وسلوك الطرق

مبتدعة ، وانتقاص الأخلاق ، ونسيان العادات الجميلة ، والإفراط فى أسباب الحضارة من رياش والترف ، والتناهى فى عدم القناعة بدّل الخلق من أصله . وحوّل العالم بأسره . كأنما خلق جديد . ونشأة مستأنفة وعالم محدَث .

نعم يجب على الناصح أن ينادى فى الأمة بذلك الصوت من غير أن يدعوه حالها لليأس . أو يسدّ عليه باب الأمل . أو يقطع عنه طريق الخير . أو يمانعه فى وصول النفع . فإن أبواب الصلاح لا تُحصى ولا تُستقصى يعرفها الناصح الأمين . والواعظ المشفق يرجو بها تحقيق الخير والنفع إن شاء الله .

وإن من أبواب التربية التى لم تقرع . وطرقها التى لم تسلك ، دعوة الأمة للنظر فى ماضى أمرها وأولية شأنها لتعلم من هى ، عساها تخجل من أن تكون خاتمة سوء لذلك المفتتح الشريف ، وتأسف على حالها من كونها أصبحت بمنزلة السفيه وَلِىَ ملكا فلم يحسن سياسته ، ورُزق سعة من المال فلم يدبر أمر تنميته .

هذا الباب من أحسن الأبواب التى تثقف أفكار الأمة ، وأقرب ما تتربى على خيره طباعُها ، فإن تذكارها بمجدها القديم . وتمثيل عزها السالف لها وتشخيص مجدها الشامخ أمام عيونها يدعوها بلا شك للتنافس بخلالها الحميدة السابقة .

أحسن رادع للإنسان عن شهواته أن يلتفت وراءه فيرى فى أمته وملته العلماء والحكماء والعظماء والحكام والقواد عاشوا ولا شغل لهم إلا مجدا أقاموه ، وعزا شادوه ، وشرفا حفظوه . وأكبر مسهل له لاحتماله الضيم والذل جهله بحالة نفسه ونسيانه مجد آبائه وأجداده حتى تسترت عنه كرامة أخلاقهم ، وتحجّب عنه جميل طباعهم ، ولم يُذَكِّره مذكر بسابق أعمالهم الشريفة . إنه لا يأنف أبدا من إتيان الدنيئة ، وعمل كل ما يخالف تلك الطباع الجميلة والأخلاق الطاهرة .

لذلك ترى الدهاة من الفاتحين ــ وبخاصة رجال الممالك الغربية الآن الذين لا يغفلون عن تجربة ، ولا يغضون عن فرصة ــ إذا فتحوا بلدة إسلامية أو احتلوها تسلطوا على أهلها فأنسوهم دينهم وعاداتهم ولغتهم وتاريخ حياتهم ومجدهم .. واستبدلوهم بذلك شيئا آخر . فتراهم إذا نسوا تاريخ حياتهم وأُشربوا فى قلوبهم تاريخ حياة غيرهم ذهب كل فريق منهم بما اشتهى وشبت النفوس على ما سيقت إليه ، وبدت على الأمة أخلاق منكرة مبتكرة بعوائد غربية لا تنسب بالمرة لسوابق عاداتها ، وتقرّبوا من تلك الأمم الطارئة بكل

صريقة ، وابتعدوا عن ذلك الأصل الشريف الذى هم منه .

ثم يتبع ذلك تقلص ظل الدولة الحاكمة وفلّ حدها ووهن سلطانها وتداعى للتلاشى والاضمحلال وينتقص من عمرانها ويندرس من سبلها ومعالمها بمقدار انحراف رعيتها عن عاداتها الشريفة .

ثم تتناهى الأمة فى الفجور وتتفانى فى البغى والضلال حتى تعود باللائمة على أصل دينها وعاداتها وأخلاقها . تقول : وهى لا تستحى من الله ولا من الخلق ولا من نفسها ، إنها ما أخذت إلا من وجهة تقصير دينها وتقاليده عن مقتضيات الحياة المدنية ومستلزماتها ، وأفرادها يجهلون غاياته البعيدة فى المآخذ والمتارك ، يودون من صميم أفئدتهم أن لو استبدلوا بطباعهم وعاداتهم شيئا آخر ليخرجوا من ذلك الجنس كما هو واقع الآن من بعض أهالى هذه البلاد المصرية ، ووقع من قبلها فى كثير من بلاد الإسلام كالأندلس وغيرها.

عذر أولئك أنهم يغدون ويروحون بين رجلين : إما عدوٌ لهذه الملة يدعى عدم ملاءمة دينها للمدنية الجديدة كبعض فلاسفة هذا الزمان ، وإما جاهل تاريخ حياتها فلا يعرف منه شيئا لا خيرا ولا ضرا كأغلب شبان هذا العصر .

لذلك هم يفرون من النسبة لهذا الدين ويتجنبون القرابة لأمته وملته لأنهم أقل النا. دراية به ، ومعرفة بضائله . لا يعلمون ، وهم أهله ، مكرمة له يعدها المنتسب منهم مفخرة إذا نازعه منازع فى الانتساب إليه .

ينبغى لهم أن يتألموا من أن يكونوا مسلمين لأنهم لا يدركون للمسلمين فتحا أبلوا فيه بلاء حسنا ، ولا يعرفون لهم حربا ولا ضربا ، ولا يتحققون فى أى بقاع الأرض نشأ المسلمون ، وفى أى جهة كانوا شرقا أم غربا . ولا يحصون لهم عددا ليعلموا أنهم ــ وهم على قلتهم ــ فاجئوا حصون الممالك البعيدة ومعاقل العواصم النازحة فأنزلوا ـ اتها من عروشهم وبثوا فيها معالم دينهم وصيروها حنيفة بعد أن كانت جاهلية .

كيف لا يأنفون من المسلمين وهم يعتقدون أنهم قوم نشئوا وسط البداوة لا يعرفون غير وجوب القفار وقطع الأودية . عاشوا فى جهالة وماتوا فى جهالة .

لا يعقلون أن جميع مكارم الأخلاق إنما هى منتزعة منهم مأخوذة عنهم وأن ما يدعيه المدعى من الخلال الحميدة كالدعة والرحمة والشفقة والعدل والإنصاف والإحسان إنما هو

مجاز بالنسبة له ، حقيقة بالنسبة إليهم ، وأن هذه الأمة جاهلية كانت أوحنيفية لم تفارقها مكارم الأخلاق كحفظ الجار والجوار ومراعاة الشرف والذمة وإحقاق الحق وقول الصدق ومحاسن الأعمال وجميل الخصال .

من يعلِّمهم أن ملتهم هذه هى أول من تنافس أهلها فى الخير وتحدَّوا غيرهم بخلال الكرم كالعفو عن الزلات والاحتمال من غير القادر والقِرى للضيوف وحمل الكل وكسب المعدم والصبر على المكاره والوفاء بالعهد وبذل الأموال فى صون الأعراض وتعظيم الشريعة وإجلال العلماء الحاملين لها والوقوف عند ما يحدون لهم من فعل أو ترك وكرامة أهل الدين والحياء من الأكابر وتوقيرهم وإجلالهم والانقياد إلى الحق مع الداعى إليه وإنصاف المستضعفين والتبذل فى أموالهم والتواضع للمساكين واستماع شكوى المستغيثين والتجافى عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد .

من لهم بأن يتحققوا أن ملتهم هذه نشأت على هذه الفضائل التى هى أجمل وأكمل خلق السياسة حتى استحقوا بها أن يكونوا ساسة للأمم التى تحت أيديهم ، ولم يوجد ذلك فيهم سدى ولا عبثا ، وأن الله قد تأذن بوجوده فيهم لوجود علاماته فى قبيلهم .

من يدلُّهم أن رجال الدين الإسلامى كانوا خير مجتمع لتأسس قواعد الحرية والإخاء والمساواة ، وأن أهله هم الذين جابوا القفار وقطعوا الأودية وركبوا ثبج البحر لفتح باب العلم والانتفاع به ، وأنه لم يزهر فى دولة إزهاره فى دولتهم ، ولم يعتز كعزته فى سلطانهم حتى تقوت حجته وانتصر لواؤه وأذعن الناس لقوته ، وأشرقت عقولهم بنور برهانه .

لابد لهم من مذكر بذلك كله ليعلم المتوسدون سرير الملك والحاملون للواء الدولة والمباشرون للأمر أنهم لم يتطاولوا لهذه المراتب عن تطفل ولم يرثوها عن كلالة وليتحققوا أنهم أهلها وأن الفضائل التى أخذت فى الذهاب عنهم والملك الذى صار الأعداء يرتقبون زواله من بين أيديهم إنما سببه جهلهم بتاريخ حياة قادتهم وسادتهم ، وعدم علمهم بفضيلة أصولهم وعشيرتهم ، وخضوعهم لمن لا يناهضهم فى الشرف والنسب ، وتجاذبهم حبل الفخر والمجد مع من لا يدانيهم ، وحبهم تقليد سواهم ، واستبدالهم بعادات أممهم وأجيالهم عادات غيرهم .

لهذا قد استخرنا الله سبحانه وتعالى فى أن ننسق من أخبار هذه الأمة الشريفة المكرمة

شيئا مسطرا على صفحات (اللواء) المحمود مندمجا فى تاريخ عظمائها مبتدئين بسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين بعده . ثم برجال الدولة الأموية ممن قاموا فى بدايتها ورفعوا لواءها ورايتها وأظهروا فى الفتوح آيتها وأتموا بالوقوف على قدم الخير غايتها ــ ثم ما كان فى الدولة العباسية من الخلفاء والقواد والعظماء الذين تولوا أمورها فى فتح وحرب وقتال وضرب وتدبير فى تدوين الدواوين ، وإعلاء كلمة السلاطين ، وما كان من نشر الحضارة واتساع الملك . ثم ما كان من أعاظم رجال الموحدين والملثمين . ثم ما كان من مدنية الدولة الأموية بالأندلس . وعجائب خلفائها فى الآراء والأفكار . ثم ما كان من الدولة التركية ، وما كان من استطالتها على جميع النواحى والأمصار فى جميع الأقطار معقبين ذلك بما نراه من الحوادث صحيح العلل والأسباب فاتحين للقارئ فى ساحة الاعتبار بابا ياله من باب ،كاشفين عن بصيرته غشاوة الحجاب بسر ما فى هذا الجراب :

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالرجال فلاح

ولا عار فى ذلك ولا شنار فإن هذا الباب لا يستحى أن يأخذ منه الملوك ونسأل الله سبحانه وتعالى أن نبلغ بهذا العمل ما نرجوه من الخير والنجاح وترزق الأمة بسببه بصيرة تتراجع بها لأولية أمرها فترى ما كان محتفًا بها من سياج العظمة ، وتتحقق ما كانت متصفة به من الفضائل والكمال فتتشوق نفوسها لتجديده ، وإلا فهى مستحقة لما هى فيه . فإنه إذا كان للعقاب أوقات مناسبة ولقبول الأذى نفوس مستحقة فأحق أمة بعقوبة الذل أمة ذات مجد قديم لا تستحى من إضاعة مجدها .

عساها لو نظرت فى ذلك تجتهد فى تهيئة نفسها لقبول العدالة التى تحتاجها هذه الرتب السامية وتستلزمها حاجتها (فإن من أهمل حق نفسه ولم يطلبه فغيره فى إيصاله إليه أبطأ وأشد إهمالا) .

عساها تنظر فتجد فيها بقية من خميرة الملك والسلطان الذي لا يحتاج تأييدهما إلا إلى الاتفاق والوفاق والالتفاف حول الراية الإسلامية فتهب من رقدتها وتعمل فيما فيه الخير والصلاح لنفسها .

والله المعين على هذا العمل الذى لا نقصد به إلا وجهه الكريم ، وإعادة سالف الذكر الجميل لأفعاله حماة دينه القويم ، ودعوة إخواننا إلى النظر للمقام الكريم الذى كان لهم فى الزمان القديم وما صاروا إليه من الانقياد والتسليم فقد أشفى الحال على الخطر ،

وأصبح ذئب الغرب متهيئا للافتراس ، مستديم النظر حديد البصر ، ونحن إلى التعاون والتناصر فى حفظ الملك مفتقرون ، فإن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون .

مصطفى نجيب

سيرة سيدنا محمد ﷺ

جعل الله سبحانه وتعالى النبوَّة فى بيت واحد لا يشترك فى فضيلتها مع أنبيائه أحد . قال تعالى : ﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم** ﴾ (١) .

فسيدنا محمد ﷺ هو المختار من ذرية سيدنا إسماعيل ابن سيدنا إبراهيم عليهما السلام من أكرم بيت من مضر خلق الله الخلق فجعله فى خير خلقه . وجعلهم فرقا فصيره فى أحسن فرقة . وبيوتا فأحله فى أرفع بيت وأسماه وأشرفه .

(ابن عبد الله) المعروف مكانه من بنى عبد المطلب . من أفضل امرأة فى قريش نسبًا وموضعا : (آمنة) بنت وهب بن عبد مناف سيد بنى زُهْرة نسبا وشرفا ، تزوج بها عبد الله ونوره يتلألأ بين عينيه كالغرة البيضاء .

ما لبث عبد الله أبُو رسول الله ﷺ أن مات وأمه حامل به حتى كانت الليلة التى تمخض بها الزمان ، وتكهنت بها اليهود ورصدتها الرهبان ، الليلة التى أراد الله أن يخرج الإنسان فيها إلى نور الفلاح من ظلمات الجهالة ، الليلة التي ابتهجت فيها الحظائر القدسية وازينت فيها السماء فوق زينتها بإشراق الغزالة (٢) ، استل فيها سيف الله من قرابه (٣) وانتشل فيها سهمه من إهابه ، وظهر ليثه من غابه ، وهطل غيثه من سحابه ، فتنادت الرهبان بظهور أكرم مولود فى هذا الوجود .

ولد صلى الله عليه وسلم فى الليلة الثانية عشرة من شهر ربيع الأول : ٢٠ من أبريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام فى زمن كسرى أنوشروان أشهر ملوك الفرس ولذلك يقول ﷺ حاكيا عن نفسه : « ولدت فى زمن الملك العادل » (٤) .

ولد صلى الله عليه وسلم يتيماً ولم يرث إلا خمسة جمال وبعض لقاح وجارية فتجافت (٥) المرضعات عنه إلا حلمة بنت أبى ذؤيب السعدية ظئره (٦) لما أراد الله م[illegible]

---

(١) آل عمران : ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) الغزالة : نجم إذا أشرق [illegible] ع [illegible]

(٣) قراب السيف : ما يوضع به السيف .

(٤) قال الشوكانى لا أ[illegible] .

(٥) تجافت : ابتعدت .

(٦) ظئره : مرضعته .

تشريفها فدرَّ لبنها وقد جف ، ولبنُ شارفها [١] على حين لا يجد إنسان قطرة فى ضرع ، وأخضب الله بلاد بنى سعد ولا يعلم أحد من خلق الله أجدب منها ، وهذا من إرهاصات [٢] نبوته ﷺ .

شب رسول الله ﷺ يكلؤه [٣] ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد من كرامته ورسالته ، وأن يكون أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم حسبا ، وأعطفهم جوارا ، وأوجههم خَلْقًا ، وأرجحهم حلما ، وأصدقهم حديثا ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش ، والأخلاق التى تدنس الرجال تنزها وتكرما ، حتى عرف بين أهل مكة وهو فى ريعان شبابه بالأمين لأنه استوفى من مكارم الأخلاق كل مكرمة لم يُر كمالها فى بشر .

وكيف لا يسمونه بالأمين وما رأوا صبرا كصبره ولا حلما كحلمه ولا كوفائه ولا كزهده ولا كنجدته ولا كصدق لهجته وكرم عشيرته. ولا كتواضعه ولا كعلمه ولا كحفظه ولا كصمته إذا صمت ولا كقوله إذا قال ولا كعجيب نشأته ولا كقلة تلوُّنه [٤] ولا كعفوه ولا كدوام طريقته وقلة امتنانه .

توفيت والدته فاختصه جدّه عبد المطلب فكان يجلسه معه فى ظل الكعبة بين أعمامه ، ثم مات فكفله عمه أبو طالب ، وكان كريما غير أنه كان فقيرا بحيث لا يملك كفاف أهله . وكان حاله ﷺ كحال أحد بنى عمه ، وصبية قومه ، ويزيد عليهم اليتم بفقد الأبوين .

عاش بين قومه على هذه الحال بغير مؤدّب ظاهر يعتنى بتثقيفه ، أو مرب بادٍ يقوم بتهذيبه ، سوى طهارة العقيدة وشعار النفس الشريفة المشتملة على معانى الأدب ، التى يجد بسببها فى وجدانه الكريم شعورا بالفضيلة وتلبية لندائها ، وعشراؤه أهل الوثنية وعبادها ، وخلطاؤه أولياء الأصنام وخدّامها . وهو متحل بالأدب الإلهى الذى يبعد عن أن تتزين به نفوس الأيتام والفقراء ، خصوصا مع بعده عن معتقد القوام عليه . كل هذا ليتجلى للناس مظهر معنى قوله للناس : « أدّبنى ربى فأحسن تأديبى » [٥] .

خرج عمه إلى الشام فى ركب للاتجار فأخذه معه ، فلما نزل الركب بُصْرَى وفيها

---

(١) شارفها : بعيرها أو ناقتها .
(٢) إرهاصات : مقدمات .
(٣) يكلؤه : يرعاه .
(٤) تلونه : تغيره .
(٥) رواه السيوطى عن ابن بخار وصححه فى جامعه الصغير وقال الشوكانى لا يوجد له إسناد .

(بحيرا الراهب) عَلَمُ أهل النصرانية وإمامهم فى علمهم الذى يتوارثونه كابرا عن كابر ، صنع لهم طعاما ونزل من صومعته ، ولم تكن عادته ، فلما أكلوا سأل بحيرا النبى ﷺ عن أشياء فى حاله ونومه وهيئته ونظر لعلامات فى بدنه الشريف ، ثم أوصى عمه أبا طالب أن يسرع فيقدم به مكة وحذره اليهود [١]

تحدّث الناس بكرم أخلاقه ، وحسن خلقه وعظيم أمانته وصدق حديثه فعرضت عليه خديجة بنت خويلد أن يخرج فى مالها للشام ، ومعه ميسرة غلامها ، فرأى ظلل الغمام تظله من الشمس وهو يسير [٢] ، ثم شاهد من أمانته ما شاهد ، فلما قدما أخبر سيدته بأمانته وطهارته ويمن طائره وبما رآه وما ظهر له من البركة وكثرة الأرباح وسهولة الأمور . وكانت خديجة امرأة حازمة فرغبت فيه بسبب ذلك ولقرابته ومكانته فى قومه وذكرت ذلك لأعمامه فخطبها له عمه وهى أم ولده كلهم إلا إبراهيم فإنه من مارية .

كان فى هذه الاستزادة فى الرزق مقنع لطالب دنيا تروق فى عينه ، ويُغرّ بزخارفها ؛ رَفه فى العيش ، وعون على بلوغ الأمل ، ولكن الحال غير هذا ، وكلما تقدّمت به السنّ نما فى قلبه حب الخلوة والانفراد إلى أن تجلى عليه النور الإلهى ، وانكشف له العالم بأجمعه .

ظهر الهدى الإلهى فى عمله ﷺ ، فأزال الفتنة من بين قريش ، وقد كاد تنازعهم يفضى إلى تخاصم عظيم فى اختصاص قبيلة منهم فى وضع الحجر عند بناء الكعبة وتحكيمه عليهم ليقضى بينهم فيه ، فاستدعى ثوبا وأخذ الحجر فوضعهُ فيه ، وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ، ففعلوا حتى بلغوا به موضعه فوضعه بيده وبنى عليه[٣] .

بلغت سنه أربعين سنة إلا ستة أشهر ، فبدأت الرؤيا الصالحة ، فكان لا يرى رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح ، وحبب الله إليه الخلوة فكان يجاور فى حراء يتعبد فيه الليالى ذوات العدد ، ثم يرجع إلى أهله فيتزوّد لمثلها ، حتى جاءه الحق وجاءت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ، ورحم الله العباد بكشف ما غاب عنه من مصالح البشر ، فنزل عليه جبريل فى غار حراء بقوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ [٤] كما وردت به الأخبار الصحيحة ، وعاد وأخبر خديجة الخبر وقال : لقد خشيت على نفسى . فقالت

(١) حسنها الترمذى وصححها الألبانى .
(٢) رواها ابن هشام وابن الأثير .
(٣) رواها أحمد بسند صحيح .
(٤) العلق : ١ ، ٥ .

خديجة : كلا . والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ثم انطلقت به إلى ورقة بن نوفل ابن عمها ، فقالت له خديجة : يابن عم ، اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس [1] الذى نزّل الله على موسى ، « ياليتنى فيها جدع » ، ياليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك . قال : « أو مخرجى هم ؟ » قال : نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عُودى وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا [2].

ثم فتر الوحى فشق عليه ، ثم عاوده بقوله تعالى : ﴿ **يأيها المدثر قم فأنذر** ﴾ [3] فقام يدعو الناس إلى الإيمان بالله تعالى ، فأوّل من آمن به من النساء خديجة ، ومن الرجال أبو بكر ، ومن الصبيان على ، ومن الموالى زيد . ثم تتابع الوحى وتتابع دخول الناس فى الإسلام . وكان أبو بكر محببا سهلا ، وكانت رجالات قريش تألفه فأسلم على يديه من وثق به .

دخل الناس فى الإسلام أرسالا [4] من الرجال ولانساء ، وفشا الإسلام وهم ينتحون به ويذهبون إلى الشعاب فيصلون . وأمره الله أن يصدع [5] بما يؤمر ، فنادى فى الناس بأمره ودعا إليه (وكان بين ما أخفى أمره واستتر به وبين أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه) [6] .

قام بدعوته وحده على فقره وضعفه ، وقارع أعداءه بالحجة ، وناضلهم بالدليل ، وأبدى لهم نصحه وزجره ، وذكر آلهتهم بالسب وعابها . وكل من حوله ممن أسلم مستخف . وأعداؤه يردّون دعوته وهم بادون ظاهرون ، ويرفضون رسالته وهم باغون معتدون ، سواء العامة منهم والخاصة يقولون : ﴿ **لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾ [7] . وكيف يسلم أولئك المغرورون بالعزة والسلطان فى قبيلهم لدعوة فقير أمى لا ينبغى أن يتطاول إلى هذه المقامات بالممكن من الكلام ، فكيف باللوم والتعنيف بسب الآلهة وتضليل المتعبدين بها !

أجمعوا على خلافه وعداوته ، وقام عمه أبو طالب دونه محاميا يحدب [8] عليه

---

(١) الناموس : الوحى (٢) رواه البخارى ومسلم . (٣) المدثر : ١ ، ٢ .
(٤) أرسالا : على مهل . (٥) يصدع : يجهر .
(٦) كل رواياته صحيحة أخرجها البخارى ومسلم .
(٧) الزخرف : ٣١ . (٨) يحدب عليه : يرفق به .

ويمنع ، وهو ماض على أمر الله لا يرده عنه شئ ، فلما رأت قريش ذلك مشى رجال من أشرافها إلى أبى طالب يقولون له : إن ابن أخيك سب آلهتنا وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن تُخلِّى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه . فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا ورسول الله ﷺ على ما هو عليه مظهر لدين الله داع إليه ، فهالهم الأمر حتى تباعد الرجال وتضاغنوا وحض بعضهم بعضا ، ومشوا إلى أبى طالب مرة أخرى يقولون الذى قالوه أولا ، ويخبرونه بأنهم قد استنهوه ابن أخيه فلم ينهه ، وأنهم لا يصبرون على هذا الأمر العظيم فإما أن يكفه عنهم أو ينازلوه .

أصبح أبو طالب فى حيرة بين مفارقة قومه وعداوتهم ، وبين خذلان ابن أخيه ، فتلطف معه ليستبقيه عليه وعلى نفسه ولا يحمله من الأمر ما لا يطيق ، ولكن القوة الإلهية أيدته ، فأيئسهم من نفسه وقال لأبى طالب : يا عماه لا أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه [(١)] ، وشمل الإشراق النبوى عمه أيضا ، فقال : يابن أخى قل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشئ أبدا. وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يضربونهم ويفتنونهم فى دينهم ، وافترق أمر قريش ؛ فتعاهد بنو هاشم وبنو عبد المطلب مع أبى طالب على القيام دون النبى ﷺ ، واشتد العذاب على المسلمين ، فأمرهم بالهجرة إلى أرض الحبشة فهاجروا وتتابع المسلمون حتى بلغوا ثلاثة وثمانين رجلا [(٢)] .

صار النبى ﷺ غريبا فى شعبه وقومه بعيدا عنهما ، يحول بينه وبين عشيرته ما هو أعظم من كل عظيم ، وهو مجد على تقويم عوجهم وهدايتهم ، وهم أبعد من أن يفقهوا دعوته أو يعقلوا رسالته ، وطفقوا [(٣)] يرمونه عند الناس ومن يفد على مكة بالسحر والكهانة والجنون والشعر . يرمون بذلك صدهم عن الدخول فى دين الله ، وجلسوا للناس فى المواسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه منه وذكروا له أمره ، فأذاعوا الدعوة للدين من حيث أرادوا كتمانها وأعلنوا خبرها بين العرب وهم يبعدونهم عنها ﴿ **والله مخرج ما كنتم تكتمون** ﴾ [(٤)] .

ثم اشتد الأمر وأغرت قريش سفهاءها برسول الله ﷺ ، وانتدبوا جماعة منهم لمجاهرته بالعداوة والإيذاء ، وتعاقدوا على قتله فى اللات والعزى ، ولم يبق رجل إلا وقد

---

(١) حديث ضعيف رواه ابن إسحاق .

(٢) رواه أحمد عن ابن إسحاق بسند صحيح .

(٣) طفقوا : جعلوا .

(٤) البقرة : ٧٢ .

عرف نصيبه من دمه الشريف ، ورسول الله ﷺ ظاهر بمظهر الحكيم فى تربية قومه بحال يدهش المشاعر ، إذ يجدون منه سلطانا قاهرا فى حكمه ، عادلا فى أمره ، شديد الحرص على مصالحهم رءوفا بهم فى شدتهم ، رحيما فى سلطنتهم . وكيف لا تتحير الحواس ، وهم يرون قوة من ضعف ، وسلطانا من عجز ، وعلما من أمية ، ورشادا من منبت جاهلية .

حارت قريش فى أمرها ، تعجب من صبرها على تسفيه أحلامها وشتم آبائها وسب آلهتها وإهانة دينها ، فاجتمعت أشرافها فى الحجر [1] يتشاكون الصبر على هذا الأمر ، فطلع عليهم رسول الله ﷺ فأقبل يمشى حتى استلم الركن ثم مر طائفا بالبيت ، وكلما طاف غمزوه ببعض القول فوقف ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش « أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح » فأخذت القوم حالة حتى ما منهم إلا كأنما على رأسه طائر واقع وأشدهم فيه وطأة صار يرفؤه[2] بأحسن ما يجد من القول : (يقول انصرف يا أبا القاسم ما كنت جهولا) ، ثم يعودون على أنفسهم باللائمة ، يذكرون ما بلغ منهم وما بلغه فيهم وتركهم إياه ، فبينما هم فى ذلك إذ طلع عليهم رسول اللّه ﷺ فوثبوا له وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون له : أنت الذى تقول كذا وكذا من عيب آلهتهم ، وهو يقول : نعم . فأخذ رجل منهم بمجمع ردائه ، فإذا أبو بكر دونه وهو يقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله . ووقف أبو جهل لرسول الله وشتمه ، وبلغ حمزة فضربه حتى شج رأسه[3] .

أرادت قريش أن تخاصمه بعد ذلك بالحجة وتكلمه بالدليل ، فبعثت إليه عتبة بن ربيعة وكان سيدا فى قومه فقال : إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جمعهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أمورا لعلك تقبل منها بعضها . فقال له رسول الله : قل يا أبا الوليد . قال : إن أردت بالذى فعلت مالا جمعناه لك ، أو شرفا سودناك علينا فلا نقطع أمرا دونك ، وإن كان يأتيك رئى [4] تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه . قال : أفرغت يا أبا الوليد . قال : نعم . فأسمعه آيات من سورة السجدة وسجد . فقام عتبة إلى أصحابه بغير الوجه الذى ذهب به ، فقالوا له : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى سمعت قولا ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة ، أطيعونى يا معشر قريش وخلوا بين هذا

---

(١) الحجر : حجر إسماعيل خارج الكعبة .
(٢) يرفؤه : يلين له القول .
(٣) رواه ابن جرير عن ابن عباس كما رواها عنه إسحاق برواية مماثلة .
(٤) الرئى : مس من الجن .

الرجل وبين ما هو فيه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ . قالوا : سحرك يا أبا الوليد . فقال : لنجمع أشراف كل قبيلة عند ظهر الكعبة ونبعث إليه ، ففعلوا فجاءهم حتى جلس إليهم ، فقالوا : إنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه الذى أدخلت إلى آخر ما قال له عتبة . فقال : ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئت لأطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن بعثنى الله إليكم رسولا وأنزل علىَّ كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم . فألجمهم بهذا الخطاب وأفحمهم بهذا الكلام (١) .

فعلت قريش مع رسول الله ﷺ بعد هذا ما فعله كفار كل زمان مع أنبيائهم ، فتطلعت لما هو أكبر كما هى العادة فى شره العقول ، وأخذت تفكر وتقترح وتطلب أشياء قضت الحكمة الإلهية بأن تكون مستحيلة فى ذاتها : تطلب منه تسيير الجبال عن بلادها لينبسط ثراها وتسيير الأنهار فيها لتخصب أرضها . وتكلفه أن يأتى بملك معه من السماء فيصادقه على ما يقول . وتتهكم عليه بأن يسقط عليهم كسفا من السماء أو يأتيهم بالملائكة قبيلا . أو تكون لكه جنات ، وقصور ، وكنوز من ذهب أو فضة تغنيه عما يبتغيه . فانصرف رسول الله ﷺ إلى قومه آسفا لما فاته مما كان يطمع فيه من طاعة قومه .

إن الناظر فى هذا الهذيان يحكم بأن الذى منع العرب من الإقرار هو الهوى والحمية دون الجهل والحيرة ، لأنهم يرون فى كل وقت ويسمعون فى كل حال من أحواله عجبا لم تجربه العادة أبدا ، وفيهم العقلاء وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل ومن يمكنه إصابة وجه الحق فى معرفة ذلك .

تواتر الخبر بما كان منهم من الحرص على معارضة النبى ﷺ والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لإبطال دعواه وتكذيبه فى الأخبار عن الله سبحانه وتعالى . فجاءهم رسول الله ﷺ من الطريق الذى يشمخون فيه بأنوفهم ، ويتنافسون فيه بثمار عقلهم ونتائج فطنتهم وذكائهم ، ويدعون أن جميع الناس لهم فى كل أبوابه تبع ، ألا وهو طريق البلاغة والفصاحة . جاءهم بالقرآن وفيهم الشاعر المفلق والخطيب المصقع (٢) وهم أحكم خلق الله لغة وأشدهم عدة ، والكلام سيد عملهم فدعا القريب والبعيد منهم لتوحيد الله

---

(١) رواه ابن إسحاق بسند مرسل حسن ثم واصله غيره بإسناد حسن إن شاء الله .

(٢) المصقع : البارع .

وتصديق رسالته يحتج عليهم وعلى غيرهم بسورة من ذلك الكتاب الذى لا ريب فيه . ينذرهم بقتل عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبنى أعمامهم ويدعوهم صباح مساء أن يعارضوه إن كان كاذبا بسورة واحدة أو بآيات يسيرة منه .

كيف يمكن أحدا سوى الله العليم الخبير أن يشترط فى التحدى الشرط الذى اشترط ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** [1] ﴾ [2] ، ولو كان من عند غير الله لكان من غلبة الظن عند من له شيء من العقل ألا تخلو الأرض من صاحب قوة مثله .

عجزوا ، وكيف يصابون بالعجز ويرمون بالجبن مع كثرة كلامهم واستفحال لغتهم وسهولة ذلك عليهم ووفرة شعرائهم وكثرة من هجاه [3] منهم ، ويرضون بالقتل المستمر فى أنفسهم وذوى قرابتهم وتسفيه أحلامهم وتفسيق معتقداتهم وكسر أصنامهم . أما كان الأولى بهم أن يأتوه بسورة واحدة فينقضوا قوله ويفسدوا عليه أمره ، ويسرعوا فى تفريق أتباعه عنه صونا للنفوس الشريفة المبذولة والخروج عن الأوطان العزيزة المحبوبة وإنفاق الأموال الجزيلة . إن هذا لبعضُ ما يعرفه عامة الخلق ، فكيف بقريش التى لها من جليل التدبير وصدق الرأى والعقل ما ضربت به الأمثال !

ما هذا العجز الظاهر وقد احتاجوا لما عندهم من الكلام ، والحاجة تبعث الحيلة فى الأمر الغامض المفقود ، فكيف بالظاهر الموجود ! محال أن يطيقوه ثلاثة وعشرين عاما على الغلط فى الأمر الجليل . ومحال أن يتركوه وهم يعرفون ويجدون السبيل إليه وهم يبذلون أكثر منه .

أى دليل على دعوى النبوّة بعد هذا وأى برهان على صدقه ﷺ أشد من أن يروا يتيما فقيرا أميا لا عون له ولا جاه وقد تربى بينهم وهو من أول نشأته . وعقله غير متأثر بسماع ما يسمعه ممن يخالطه منهم من حديث الوثنية ، فإذا به مبغض لها من مبدأ عمره من قبل أن يبلغ مبلغ الرجال ، من قبل أن يكون لفكره ونظره فيها مجال ، من قبل أن يرجعه عنها الدليل ويصرفه عن ضلالها البرهان ، ولا كتاب يرشده ولا أستاذ ينبهه ثم يكون منه الذى كان .

يرون رجلا منصرفا بطبيعة الحال عن مناصب الملك والسلطان متأبيا عنها ، وقد عُرضا عليه (ومقابلة القائل بذلك بالإعراض والاعتراض) خاليا من الجند والمال والجاه والعون ،

---

(١) ظهيراً : مستعينا . (٢) الإسراء : ٨٨ . (٣) هجاه : ذمه .

ثم ينهض وحيدا فريدا داعيا للتوحيد والاعتقاد بالله ، وهو يعلم منهم قدر تعظيمهم لأوثانهم ومقدار تنطسهم [1] فى زندقتهم ومناوأتهم بمعبوداتهم . أليس من فكر يفكر فى هذ القوة التى سمت بنفسه إلى أعلى عليين ، فجعلته داعيا مرشدا ولو كره الكافرون ؟

يرون داعيا أوذى بضروب الإيذاء ، وأقيم فى وجهه ما لا يذلل من الصعاب ، وعناية الله محيطة به . ويرون المستجيبين له أخرجوا من ديارهم تسفك منهم الدماء ويفتنون وهم لا يفتنون .

يرون عارفا بالله كما يجب أن يعرف ، مدركا من أمر الدار الآخرة ما ينبغى أن يدرك ، مع كمال فى العقل ونور فى البصيرة فصَّل بهما اللذات والآلام فى هذه الدنيا وطرق الأجر والعقاب عليهما ، وجعل للإنسان شعورا بيوم بعد يومه هذا ، وكل هذا الضرب من الكلام بعيد عن التخيل والفكر ، ولابد له من هدى إلهى وفتوق [2] فى البصر والبصيرة يؤديان إلى مشاهدة قدرة الله وآياته فى هذه الأمور الغامضة عن العقول الساذجة [3] .

يرون حكيما جاء لكل طائفة مزيلا للرجس [4] القائم بها مخلصا لها من معارض الشرك المشتمل عليها ، يأمر الوثنيين بترك الأصنام والأوثان ، والمشبهة [5] بالانصراف عن الأجسام ، والثانوية [6] بالتوحيد ، والطبيعيين [7] بالنظر إلى ما وراء حجاب الطبيعة ، وأهل السيطرة بترك العقوق ليعلمهم أنهم لا يتفاوتون عن كل نفس إلا بما فضل الله من علم وفضيلة **﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾** [8] .

يرون ناصحا يأمرهم بصدق الحديث أداء الأمانة والوفاء بالعقود والمحافظة على العهود وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم واحترام الدماء البشرية والأعراض والرحمة بالضعفاء ، وينهاهم عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة . ثم يرون أنفسهم عبادا للأصنام وهو يعبد الله يأكلون الميتة وهو بعيد عنها ويأتون الفواحش وهوبرئ منها ويقطعون الأرحام وهو يصلها ويسيئون الجوار وهو يحسنه ويسبون النساء ويسلبون الأموال وهو يأمر بالكف عنهما فكأنهم كانوا من عمى الجهالة بحال لا يكادون يفرقون بها بين هاتين المنزلتين (الحق والباطل ، والحسن والقبيح) وهو بهذا الظهور على ما هم عليه من صدق الأحلام **﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾** [9] .

---

(١) تنطسهم : مبالغتهم . (٢) فتوق : شق . (٣) الساذجة : البسيطة . (٤) الرجس : الدنس .
(٥) المشبهة : الذين يشبهون الله بخلقه . (٦) الثانوية : الذين يعبدون إلهين .
(٧) الطبيعين : القائلين أن [illegible] بدون خالق . (٨) الحجرات : ١٣ . (٩) القصص : ٥٦ .

ثم رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ نزلوا بلدا (الحبشة) أصابوا به مأمنا وقرارا ، وأن النجاشى أكرم من لجأ إليه منهم ، وأن عمر بن الخطاب ، أسلم وأعز الله الإسلام بإسلامه ، وهو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه ، وأن الإسلام أخذ يفشو فى القبائل ، فاجتمعوا وأتمروا [1] وتعاقدوا على بنى هاشم وبنى عبد المطلب ألا يناكحوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يكلموهم ، ولا يجالسوهم . وكتبوا الصحيفة ووضعوها فى الكعبة توكيداً لأنفسهم وانحاز بنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى أبى طالب بن عبد المطلب فدخلوا معه فى شعبه إلا (أبا لهب) وأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا حتى جهدوا [2] لا يصل إليهم شئ إلا سرا مستخفيا به من أراد صلتهم ، ورسول الله يدعو قومه ليلا ونهارا سرا وجهارا مناديا بأمر الله لا يتقى فيه أحدا من الناس ، وحال رجال الله بينه وبين ما أرادت قريش من البطش به ، وإن همزوه [3] أو استهزءوا به أوخاصموه نزل القرآن بأحداثهم وفيمن نصب لعدواته منهم .

ثم كشف الله لنبيه عن أمر الصحيفة وأن الله سلط الأرضة [4] عليها فلم تدع فيها اسما هو لله إلا أثبتته ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان . فقال النبى ﷺ ذلك لأبى طالب . فقال : أربك أخبرك بهذا ؟ قال : نعم . فخرج إلى قريش فقال : يا معشر قريش ، إن ابن أخى أخبرنى بكذا وكذا (وذكر ما قاله له رسول الله ﷺ) فهلموا إلى صحيفتكم فإن كانت كما قال ابن أخى فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عما فيها ، وإن كان كاذبا دفعت إليكم ابن أخى . فقال القوم : رضينا ، وتعاقدوا على ذلك . ثم نظروا فإذا هى كما قال رسول الله ﷺ فزادهم ذلك شرا وصنع الرهط [5] من قريش فى نقض الصحيفة ما صنعوا [6] .

ثم أقام رسول الله على أمر الله محتسبا مؤديا إلى قومه النصيحة على ما يلقى منهم من التكذيب والإيذاء والاستهزاء ، وقريش تنتقل معه فى طريق الأذى من باب إلى باب وتتقلب من فكر إلى فكر ؛ فمن المجاهرة بالعداوة والمكاشفة بالبغضاء إلى النفاق والرياء ونيل من النفس بالكيد والمداهنة باقية على ما فيها من الظلم والعسف والقسوة والجور وضروب الشرور والأسواء . شق عليها أن ترى مثل أبى بكر يقرأ القرآن ويبكى ، فما

---

(١) أتمروا : تآمروا .
(٢) جهدوا : تعبوا
(٣) همزوه : عابوه .
(٤) الأرضة : حشرة صغيرة تأكل الخشب والورق .
(٥) الرهط : الجماعات دون العشرة .
(٦) رواها موسى بن عقبة وابن إسحاق وغيرهما بأساليب مختلفة .

زالت به حتى ضيقت عليه مكة وأجلته عنها مهاجرا خوف الفتنة وقطعا لذريعة انتشار الإسلام بين العرب .

ثم ماتت خديجة وأبو طالب فى عام واحد فتتابعت على رسول اللّه ﷺ المصائب بموتهما ، ونالت قريش فيه من الأذى ما لم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب ، فخرج رسول اللّه وحده إلى الطائف يلتمس النصرة من (ثقيف) فلما عمد إلى سادتهم استهزءوا به وكذبوه فعاد إلى مكة ، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه وأصحابه مستضعفون[1] .

ثم أسرى برسول الله ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس (إيلياء) فلما أخبر رسول الله ﷺ الناس بها عجبوا وقالوا له : وما آية ذلك يا محمد ؟ فدلهم على أشياء فى الطريق وأمارات ظاهرة سألوا عنها فوجدوها كما قال ، ولكن أبى اللّه أن يصدقوه وهو صادق أو يعلموا أنه على الحق وأنهم كاذبون . وهو يعرض نفسه فى المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى اللّه ويخبرهم أنه نبى مرسل فأتى (كندة) فى منازلهم فلم يقبلوه . و (بنى حنيفة) فدعاهم فلم يكن أحد من العرب أقبح ردًا منهم ، وأتى (بنى عامر) فاستهزءوا به [2].

ثم كان الموسم الذى لقى فيه النفر من الأنصار وعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع فى كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج وعرض عليهم الإسلام فآمنوا به وصدّقوه لأنهم وجدوه موافقا لما أخبرهم به أهل الكتاب والعلم من قومهم وقدموا المدينة وذكروا لقومهم ما رأوه ودعوهم إلى الإسلام وفشا فيهم ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ [3] .

كان العام المقبل فوافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا وبايعوا رسول الله ﷺ وبعث معهم مصعب بن عمير يعلمهم الإسلام ويتلو عليهم القرآن [4] .

ثم تواعدوا مع رسول الله ﷺ فلما كانت الليلة المعروفة وقد مضى ثلث الليل ، خرجوا من رحالهم لميعاده يتسللون تسلل القطا [5] مستخفين حتى اجتمعوا فى الشعب [6] عند العقبة وهم ثلاثة وسبعون رجلا ، وجاء رسول الله ﷺ ومعه العباس ،

---

(١) رواها ابن إسحاق بسند صحيح مرسله .
(٢) رواها ابن إسحاق وابن سعد .
(٣) رواها ابن إسحاق .
(٤) رواها البخارى ومسلم .
(٥) القطا : الحمام .
(٦) الشعب : الطريق بين الجبل .

فبعد أن تكلم وتكلموا فى أن يحموه [illegible] هم بخاذليه ولا مسلميه أبدا ، أخرجوا منهم اثنى عشر رجلا سماهم رسول الله نقباء وقال لهم : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومى (يعنى المسلمين) قالوا : نعم [١] .

ثم عرفت جلة قريش الأمر ووجدت الخبر كما ظنت فخرجت فى طلب القوم ، فأدركت سعد بن عبادة والمنذر بن عمر وكلاهما كان نقيبا ، فأما المنذر فأعجز وأما سعد فأخذوه إلى أن دخلوا به مكة يضربونه حتى استجار برجلين فأجاراه ، فانطلق ولحق القوم ، فلما قدموا المدينة أظهروا الإسلام وفى قومهم بقايا من سادات بنى سليم وشريف من أشرافهم كان اتخذ فى داره صنما من خشب ، فما زالوا به حتى كسره وأسلم .

علمت قريش بشيعة رسول الله وأنصاره وأدركت أنه مجمع على اللحاق بهم وتحققت أن أصحابه من المهاجرين سبقوه ، فاجتمعت فى دار الندوة تتشاور فيما تصنع فقالت نحبسه ولا نخرجه ، ثم اتفقت على أن يقوم من كل قبيلة فتى شاب جلد فيقتلونه جميعا ليتفرق دمه فى القبائل ولا يقدر بنو عبد مناف على حرب جميعهم .

أوحى الله إلى النبى ﷺ بكيدهم هذا ، فأمر على بن أبى طالب أن ينام على فراشه ويتوشح [٢] ببرده [٣] ؛ ثم خرج وأرصدهم على باب منزله فطمس الله عل أبصارهم فوضع على رءوسهم ترابا وأقاموا طول ليلهم ، فلما أصبحوا خرج عليهم (على) وعلموا أن النبى ﷺ نجا . وكان رسول الله ﷺ خرج مهاجرا من خوخة [٤] فى دار أبى بكر .

تعددت معجزاته فى هذه الهجرة ، فمنها أنه هو وأبو بكر دخلا الغار الذى فى جبل ثور بأسفل مكة ، فلما فقدته قريش اتبعته ومعها القائف [٤] فوقف عند الغار وقال : هنا انقطع الأثر وإذا بنسيج من العنكبوت على فم الغار فاطمأنوا لذلك ورجعوا . ومنها أن سراقة اتبعهما ليردهما فلما رأياه دعا عليه رسول الله ﷺ فساخت قوائم فرسه فى الأرض فنادى بالأمان وقال : يا محمد ادع الله أن يخلصنى ولك علىٌ عهد أن أرد عنك الطلب فدعا له فخلص (فعل ذلك معه مرتين أو ثلاثا) فلما أراد أن يعود قال له رسول الله : كيف بك يا سراقة إذا سوٌرت بسوارى كسرى ؟ قال : كسرى بن هرمز ؟ قال : نعم .

---

(١) سيرة ابن هشام ومسند أحمد والطبرى برواية إسحاق .
(٢) يتوشح : يتغطى .
(٣) ببرده : بعباءته .
(٤) خوخة : باب خلفى .
(٥) القائف : متبع الآثار .

ومنها أنه لما وصل المدينة مرَّ بدور لبنى سالم ، وبنى بياضة ، وبنى ساعدة ، وبنى حارثة . وكلما مرَّ بدار لأحد من هؤلاء تلقاه رجال منها يرغبون أن يقيم عندهم وتبادروا خطام [1] الناقة اغتنامًا لبركته ، فما زالوا يتبادرونَ والنبى ﷺ يقول لهم خلوا سبيلها فإنها مأمورة حتى أتت دار بنى مالك بن النجار فبركت حيث مسجد الرسول اليوم . ثم بقى على ظهرها ولم ينزل فقامت ومشت غير بعيد ولم يثنها ، ثم التفتت إلى مكانها الأوَّل فبركت واستقرت ، ونزل رسول الله ﷺ وحمل أبو أيوب رحله إلى داره فاشترى المِربد [2] من بنى النجار بعد أن وهبوه إياه فأبى قبوله ، وبنى المسجد باللبن وعضادتاه [3] الحجارة وسوره جذوع النخل وسقفه الجريد وبنى فيه المسلمون بغير أجر لوجه الله .

ثم وادع اليهود بكتاب صلح شرط لهم فيه ما لهم وعليهم . وآخى بين المهاجرين والأنصار ؛ بين جعفر بن أبى طالب وهو بالحبشة ومعاذ بن جبل . وبين أبى بكر الصديق وخارجة . وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك حتى آخى بين خمسة عشر من المهاجرين ومثلهم من الأنصار .

ثم فرضت الزكاة فاستلت ضغائن أهل الفاقة بما فرض لهم فى أموال الأغنياء وتخلصت الصدور من الأحقاد ؛ وأشعرت بالمحبة ، وأصبحت تساق بعامل الرحمة لرحمة أولئك البائسين ، وأصبح الغنى مدافعا عن نفس الفقير والقوى آخذا بيد الضعيف .

ابتدأت الغزوات فى شهر صفر بعد مقدم النبى ﷺ ؛ فخرج إلى غزوة (الأَبْوَاء)[4] فى مائتين من أصحابه يريد قريشا . و (بُوَاط) لما بلغه أن عيرا لقريش ذاهبة إلى مكة . ثم غزوة (العشيرة) غازيا لقريش . و (بدر الأولى) وفى كل ذلك لم يلق حرباً ، وبعث فيما بينهما بعوثًا فمنها : بعث (حمزة) وبعث (عبيدة بن الحارث) متقاربين حتى اختلف فى أيهما كان الأول ، إلا أنها أول راية عقدها رسول الله ﷺ (ولم يكن بينهما وبين المشركين قتال) وبعث (سعد بن أبى وقاص) وبعث (عبد الله بن جحش) وكتب له كتابا وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين فلما قرأ الكتاب وجد فيه أن ينزل رحله بين مكة والطائف ، ولا يستكره أحدا فمضوا كلهم وضل لسعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعير فتخلفا فى طلبه ، فمرت بهم عير لقريش تحمل تجارة ، وذلك آخر يوم من رجب فتحرج بعض المسلمين فى الشهر الحرام ثم اتفقوا . وقتل عمرو بن الحضرمى وأسر عثمان

---

(١) خطام : زمام
(٢) المربد : مكان يوضع فيه التمر .
(٣) عضادتاه : جوانبه .
(٤) الأبواء : مكان قرب المدينة ودفنت فيه أم النبى .

ابن عبد الله والحكم بن كيسان وقدموا بالعير والأسيرين ، فأنكر النبى ﷺ فعلهم ذلك فى الشهر الحرام وما سرى عنهم حتى أنزل الله : ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به** ﴾ (١) . فقبض النبى ﷺ الخمس وقسم الغنيمة وقبل الفداء فى الأسيرين وأسلم الحكم بن كيسان ورجع سعد وعتبة سالمين إلى المدينة ، وهذه أول غنيمة غنمت فى الإسلام وأول غنيمة خمست (٢) .

ثم صرفت القبلة عن بيت المقدس على رأس سبعة عشر شهرا من مقدمه المدينة ، وخطب بذلك على المنبر وسمعه بعض الأنصار ، ونزلت آية : ﴿ **سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب** ﴾ (٣) ، (٤) .

كان من قوَّة العقل وأصالة الحكم أن تُسرَّ جماعة المشركين ذلك فى نفسها فلا تتقدم له بالسؤال عن صرف القبلة ولا تسمع منه ذلك الجواب الذى لقنه به بارئه ، لأن فى سكوتها تكذيبه وبطلان حجته ، وهم بذلك مغرمون وإليه مضطرون ، وفى السؤال عنه تصديق لخبره فى إظهار سر القهر الإلهى المحيط بهم الملجئ لهم على السؤال ولو كان فى ذلك تسجيل لوصف السفاهة عليهم ولكنهم فعلوه لأن الخبر السماوى والوعد النبوى لا يتخلفان قطعا .

هاج مقتل عمرو نفوس قريش ، وشعر كل طرف بيوم بعد يومه ، فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة إلى رمضان من السنة الثانية ، ثم بلغه أن عيرا لقريش فيها أموال مقبلة من الشام إلى مكة معها ثلاثون أو أربعون رجلا ، عميدهم أبو سفيان ، فندب عليه الصلاة والسلام المسلمين إلى هذه العير وأمر بخروج كل من له ظهر حاضر ، ولم يحتفل فى الحشد لأنه لم يظن قتالا .

اتصل خروجه بأبى سفيان فاستنفر أهل مكة لعيرهم فنفروا ، وبعث رسول الله ﷺ من يتحسس أخبار أبى سفيان وعلم أن القوم صاروا بين التسعمائة والألف ، فاستشار الأصحاب من المهاجرين والأنصار فقالوا وأحسنوا . قالوا : لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك .

عرفت قريش بمقدم المسلمين أيضا ولكنهم مع كثرتهم هذه أصبحوا لا يقْوَون على مقاومتهم كأنما أصاب مكان الوجدان من قلوبهم شئ ، ولم يكف أبا سفيان أنه تنكب بالعير إلى طريق الساحل ونجا ، بل جدَّ فى حمل الناس على مذهبه ، فقال : ما بالنا لا نرجع

---

(١) البقرة : ٢١٧ .
(٢) مرسل وصححها ابن حاتم .
(٣) البقرة : ١٤٢ .
(٤) رواها البخارى ومسلم وغيرهما .

وقد نجونا بالعير . ورجع الأخنس ابن شريق بجميع بنى زهرة وكان مطاعا فيهم وقال : إنا خرجنا لنمنع أموالنا وقد نجت فارجعوا ، فرجعوا ولم يشهد بدرا من قريش عدوى ولا زهرى .

ربما كان للقوم بنجاة العير مقنع ، ولكن شدد أبو جهل وصار يستصرخ العرب ويهيج عواطف إحساساتهم يقول : لا نرجع حتى نرد ماء بدر ونقيم به ثلاثا وتهابنا العرب .

سبقهم رسول الله ﷺ إلى ماء بدر وثبَّطهم عنه مطر نزل وبْله مما يليهم ، وأصاب مما يلى المسلمين دهس (١) الوادى وأعانهم على السير ، ثم نزل حيث أشار الحباب بن المنذر وبنوا حوضا فملئوه ، ثم بنوا له عريشا (٢) يكون فيه رسول الله ﷺ ، ومشى يريهم مصارع القوم واحدا واحدا ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ ثلثمائة وبضعة عشر رجلا فيهم فارسان : الزبير ، والمقداد .

توافقت الفئتان وعدل رسول الله ﷺ الصفوف ورجع إلى العريش وأقبلت قريش بخيلائها وفخرها ، فلما رآها قال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تُحادّك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى اللهم أحِنْهم (٣) الغداة .

ما زال الكلام يستوثب الناس على الشر « وإن الحرب أولها الكلام » حتى قام عامر وصرخ واعمراه فحميت الحرب ، ونادت الرجال على الرجال والنبى ﷺ يدعو ويلح ويقول فى دعائه : اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض اللهم أنجز لى ما وعدتنى . ثم أخفق (٤) ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر قد أتى نصر الله . ثم خرج يحرض الناس ورمى فى وجوه القوم بحفنة من حصى وهو يقول : شاهت الوجوه . ثم تزاحفوا وجال القوم جولة هُزم المشركون فيها ، وقتل منهم يومئذ سبعون رجلا فيهم نحو العشرين من مشاهيرهم وأسر نحو العشرين رجلا من كبرائهم كما هو مذكور تفصيله فى كتب السير ، واستشهد من المسلمين ثمانية : خمسة من المهاجرين وواحد من الأوس وواحد من الخزرج (٥) . وانجلت الحرب وقسمت الغنائم كما أمر الله . ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ودخلها لثمان بقين من رمضان .

حملهم على حظهم بالسيف فنصب لهم الحرب ونصبوا له بعد أن دعاهم بالحجة

---

(١) الدهس : ما تغوص فيه الأقدام .
(٢) العريش : بيتا صغير من النخيل .
(٣) أحنهم : أهلكهم .
(٤) أخفق فلان حرك رأسه من نعاس .
(٥) أكثر كتب السيرة على أن أسرى المشركين كانوا سبعين وليسوا عشرين كما أن شهداء المسلمين فى بدر أربعة عشر وليسوا ثمانية كما يقول المؤلف .

وقطع العذر وأزال الشبه وصار الذى يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية [١] دون الجهل والحيرة كما قدمنا فأخذ السيف منهم ما أخذ .

ثم افتدت قريش أكثر أسارى بدر . وأمر بقتل كعب بن الأشرف من أكابر اليهود وكان من المحرضين على رسول الله ﷺ فقتله الأوس ثم وقعت غزوات لم يلق فيها رسول الله ﷺ حربا وهى غزوة (الكُدْر) و (السويق) و (ذى أمر) و (بحران) .

تظاهرت اليهود بالحسد لما فتح الله على رسوله وعلى المسلمين وبغوا ونقضوا العهد وجاهروا بالكفر وقالوا وأساءوا الرد ونبذوا العهد فأنزل الله ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء** ﴾ [٢] فكانت غزوة (بنى قَيْنُقاع) سار إليهم رسول الله ﷺ وكانوا فى طرف المدينة فى سبعمائة مقاتل منهم ثلثمائة دارع فحصرهم عليه الصلاة والسلام خمس عشرة ليلة لا يكلم أحدا منهم حتى نزلوا على حكمه فأمر بهم أن يقتلوا فشفع فيهم عبد الله بن أبىّ بن سلول فحقن دماءهم ثم أجلاهم وأخذ ما كان لهم من سلاح وضياع ولحقوا بخيبر وأخذ ﷺ الخمس من الغنائم ثم انصرف إلى المدينة وحضر الأضحى فصلى بالناس فى الصحراء وذبح بيده شاتين ويقال إنهما أول أضحيته (ﷺ) [٣]

وغنمت سرية زيد بن حارثة وظفرت بالعير والمال وأتت بفرات بن حيان العجلى أسيرًا فتعوَّذ [٤] بالإسلام وكان خمس هذه الغنيمة عشرين ألفا .

ثم استأذن الخزرج فى قتل (ابن ابى الحقيق) وكان نظير بن الأشرف الذى قتله الأوس فى الكفر والعداوة فأذن لهم فقتلوه فى داره بخيبر . وما زال الأوس والخزرج يتصاولان تصاول الفحلين فى طاعة رسول الله ﷺ والذبّ [٥] عنه والنيل من أعدائه لا يفعل أحد القبيلتين شيئا من ذلك إلا فعل الآخرون مثله .

ثم كانت غزوة (أحد)فى الحادى عشر أو الخامس عشر من شوال سنة ثلاث هجريه وكان الذى أهاجها وقعة (بدر) فقد مشى كثير ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم بها فكلموا أبا سفيان ومن كان له فى تلك العير تجارة وسألوهم أن يعينوهم على حرب رسول الله ﷺ ليدركوا الثأر .

اجتمعت قريش بأحابيشها [٦] ومن أطاعها من قبائل (كنانة وتهامة) . وكان

---

(١) الحمية : الأنفه . (٢) الأنفال : ٥٨ . (٣) رواها ابن هشام عن ابن اسحاق .

(٤) تعوذ : تحصن . (٥) الذب : الدفاع .

(٦) أحابيش قريش جماعة تحالفوا بالله أنهم ليد على غيرهم وهم من جبل بأسفل مكة اسمه حبشى بضم فسكون .

أبو سفيان قائد الناس والنساء بالدفوف يبكين قتلى بدر ويحرضن بذلك المشركين ، فلما علم بذلك رسول اللّه ﷺ أشار على أصحابه بأن يتحصنوا بالمدينة ولا يخرجوا وإن جاءوا قاتلوهم على أفواه الأزقة وألح قوم من فضلاء المسلمين فلبس لامته (١) وخرج وقال آخرون : يا رسول اللّه إن شئت فاقعد . فقال : ما ينبغى لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل . وخرج فى ألف من أصحابه فلما كانوا بين المدينة و (أحد) عاد عبد اللّه بن أبى بثلث الناس وكان من تبعه أهل النفاق وبقى رسول اللّه ﷺ فى سبعمائة فيهم خمسون راميا فساروا حتى نزل الشعب من (أحد) وجعل ظهره وعسكره إليه والمشركون ثلاثة آلاف منهم سبعمائة دارع وفى المسلمين مائة وفرسان : فرس لرسول اللّه ﷺ وفرس لأبى بردة . وقاتل المسلمون واشتد القتال وانهزمت قريش أولا ثم خلت الرماة عن مراكزهم وكرّ المشركون كرة وقد فقدوا متابعة الرماة فانكشفوا واستشهد منهم من أكرمه اللّه ووصل العدو إلى رسول اللّه ﷺ وقاتل دونه مصعب بن عمير حامل الراية فقتل . وجرح رسول اللّه ﷺ فى وجهه وكسرت رباعيته (٢) اليمنى السفلى بحجر وشقت شفته وكلم (٣) فى وجنته (٤) ووجهه فى أصول شعره ، وعلاه ابن قمئة بالسيف وهشمت البيضة (٥) فى رأسه وأكبت الحجارة على رسول اللّه ﷺ حتى سقط فى بعض حفر هناك فأخذه (على) بيده واحتضنه (طلحة) حتى قام ومص الدم من جرحه مالك بن سنانن الخدرى ، ونشبت حلقتان من حلق المغفرة (٦) فى وجهه ﷺ فانتزعهما (أبو عبيدة بن الجراح) فبذرت ثنيتاه (٧) وكرّدون رسول اللّه ﷺ نفر من المسلمين فقتلوا كلهم آخرهم (عمار بن يزيد) ثم قاتل (طلحة) حتى أجهد المشركين وأبو دجانة يلى النبى بظهره وتقع به النبلة فلا يتحرك . وانتهى (النضر بن أنس) إلى جماعة وقد دهشوا وقالوا : قتل رسول اللّه ﷺ فقال : فما تصنعون فى الحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم استقبل الناس وقاتل حتى قتل وبه سبعون ضربة ، وقتل (حمزة) عم النبى ﷺ .

وهن المسلمون وظنوا أن رسول اللّه ﷺ قتل وإذا كعب ابن مالك الشاعر من بنى سلمة يبشر الناس فاجتمع عليه المسلمون ونهضوا معه نحو الشعب ثم جاءه فغسل رسول اللّه ﷺ وجهه ونهض فاستوى على صخرة من الجبل وقد حانت الصلاة فصلى بهم قعودا

---

(١) لامته : عدة الحرب . (٣) الرباعية : السنة التى تجاور الناب . (٣) كلم : جرح .
(٤) وجنتيه : أعلى خديه . (٥) البيضة : الحديدة التى توضع على الرأس الخوذة .
(٦) المغفر : قناع من حديد يوضع على الوجه . (٧) ثنيتاه : الاسنان الأماميه .

وغفر الله للمنهزمين ونزلت آية : ﴿ **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان** ﴾ (١) ثم صعد أبو سفيان الجبل وأطل على رسول الله ﷺ وأصحابه ونادى : الحرب سجال (٢) يوم أحد ببدر وانصرف وهو يقول : موعدكم العام القابل فقال عليه الصلاة و السلام : قولوا له : هو بيننا وبينكم ثم سار رسول الله (ﷺ) إلى المدينة والمشركون إلى مكة .

مثل المشركون فى هذه الواقعة بسيدنا (حمزة) عم النبى ﷺ وكانت هند وصاحباتها قد جدعنه وبقرن كبده ولاكتها (٣) ولم تسغها فلما رأى النبى ﷺ ذلك فى حمزة وأقبلت أخته صفية بنت عبد المطلب أشار رسول الله ﷺ على ابنها الزبير أن يردها لكيلا ترى ما بأخيها فلقيها وأعلمها فقالت : بلغنى أنه مُثِّل بأخى وذلك فى الله قليل فما أرضانا بما كان من ذلك لأحتسبن ولأصبرن . ثم أتته وصلت عليه واسترجعت وأمر رسول الله ﷺ به فدفن .

إن بعض هذا الصبر لمما تضعف العزائم البشرية عن احتماله وتضيق الذرائع عن الوقوف عند حدوده ولكن الهدى هدى الله .

ثم أذن مؤذن رسول الله ﷺ فى صبيحة يوم (أحد) بالخروج لطلب العدو وأنه لا يخرج إلا من حضر معه بالأمس فخرج وخرجوا على ما بهم من الجهد والنصب وصار عليه الصلاة والسلام متجلدا مرهبا للعدو حتى انتهى إلى حمراء الأسد وأقام بها ثلاثا وبلغ أبا سفيان وكفار قريش ذلك وكانوا يرومون الرجوع إلى المدينة ليستأصلوا المسلمين بزعمهم ففت (٤) ذلك فى أعضادهم وعادوا إلى مكة .

ما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال وأدركهم قصم الظهر وانبهار النفس بعد أن كانوا من الزعم بأنفسهم فى شأن أزيد مما يليق بالنفوس البشرية فقد مال المشركون بعد هذه الحرب إلى الكذبة . والفرية (٥) . وأعمال الخونة . فقدم على رسول الله ﷺ فى صفر تمام الثالثة من الهجرة نفر وذكروا أن فيهم إسلاما ورغبوا أن يبعث فيهم من يفقههم فى الدين فبعث معهم ستة رجال من أصحابه (٦) حتى إذا كانوا قريبا من (عُسْفان) غدروا

---

(١) آل عمران : ١٥٥ .
(٢) سجالا : نصرتها بين القوم دائما متداولة .
(٣) لاكتها : مضغتها .
(٤) فت فى أعضادهم : أضعف قواتهم .
(٥) فرية : اختلاف الأكاذيب .
(٦) هم مرثد بن أبى الغنوى ـ خالد بن البكير الليثى ـ عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح ـ خبيب بن عدى ـ زيد بن الدثنة ابن معاوية ـ عبد الله بن طارق .

بهم ومنهم من قتل هناك [١] ومنهم من حمل إلى مكة وقتل صبرا [٢] وكذلك قتلوا بعث المنذر بن عمر رضى الله عنه من بنى ساعدة وهم أربعون من المسلمين وقيل سبعون [٣] ، طلب ملاعب الأسنة (أبو براء عامر بن مالك) أن يبعثهم النبى ﷺ إلى نجد فبعد أن تردد رسول الله ﷺ قال أبو براء : أنا لهم جار فسار وبعثوا حرام بن ملحان بكتاب النبى ﷺ إلى عامر بن الطفيل فقتله ولم ينظر فى كتابه واستعدى عليهم وقتلهم عن آخرهم .

ثم نهض رسول الله ﷺ إلى (غزوة بنى النضير) [٤] وأرادوا أن يؤذوا رسول الله ﷺ ويصعدوا إلى ظهر البيت رجلا ليلقى على النبى ﷺ صخرة فأوحى الله إليه بما أراد به اليهود وتهيأ لحربهم فتحصنوا بالحصون فحاصرهم ست ليال وانتهت بالكف عن دمهم وإجلائهم لخيبر بما حملت الإبل من الأموال إلا السلاح . ثم كانت غزوة (ذات الرقاع) [٥] وغزوة (بدر الموعد) [٦] التى خرج فيها رسول الله ﷺ لميعاده واعتذر أبو سفيان بجدب العام وغزوة (دومة الجندل) ولم يلق المسلمون فى كلها حربا . ووادع رسول الله عيينة بن حصن أن يرعى بأراضى المدينة لأن بلاده أجدبت وهذه أخضبت .

ثم كانت غزوة الخندق [٧] وسببها خروج جماعة من اليهود إلى مكة يحزبون الأحزاب ويحرضون على حرب رسول الله ﷺ . ويرغبون من اشرأب إلى ذلك بالمال فأجابهم أهل مكة وخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب ذلك بالمال فأجابهم أهل مكة وخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب فى ١٠ آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من كنانة وغيرهم . فلما سمع رسول الله أمر بحفر الخندق وعمل فيه بيده والمسلمون معه وأقبلت الأحزاب ونزلوا بظاهر المدينة بجانب (أحد) وخرج عليه الصلاة والسلام بالمسلمين والخندق بينه وبين القوم ونقضت بنو قريظة العهد وكانوا موادعيين فعظم الأمر بالمسلمين من كل جهة ودام الحصار شهرا ولم تكن حرب ثم بعد أن اشتد الحال أتى رجل

---

(١) عاصم بن ثابت ـ خالد بن البكير ـ مرثد بن أبي مرثد ـ عبد الله بن طارق .

(٢) زيد بن الدثنة وخبيب بن عدى .

(٣) تسمى حادثة بئر معونة ورواها ابن هشام وغيره .

(٤) رواها ابن سعد في الطبقات والبيهقى كما روى بعضها الشيخان من حديث عمر

(٥) سميت بهذا الاسم لأن بعض الصحابة جرحت أقدامهم من كثرة المشى فوضعوا عليها بعض الخرق والرقاع رواها البخاري ومسلم .

(٦) تسمى بدر الآخرة وكانت ٤ هـ رواها ابن هشام عن ابن إسحاق .

(٧) رواها ابن هشام وغيره والمحدثون كالبخارى وغيره وكانت فى شوال ٥ هـ .

اسمه نعيم بن مسعود بن عمار وقال : يا رسول اللّه أنا أسلمت ولم يعلم بى قومى فمرنى بما تشاء ، فقال : إنما أنت رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة فخرج يدبر فى أمره فأتى بنى قريظة وكان صديقهم فنقم لهم فى قريش وغطفان وقال لهم : إنهم إن لم يظفروا لحقوا ببلادهم وتركوكم ولا تقدرون على التحول عن بلدكم ولا طاقة لكم بمحمد وأصحابه فاستوثقوا منهم برهن أبنائهم حتى يصابروا معكم ، ثم أتى أبا سفيان فى قريش وقال : إن اليهود ندموا وراسلوا محمدا فى المواعدة على أن يسترهنوا أبناءكم ويدفعوا إليه . ثم أتى غطفان وقال لهم مثل ما قال لقريش .

دخل بين القوم من باب الاختلاف والمشاقة فيما اختلفوا عليه فأرسل أبو سفيان وغطفان إلى بنى قريظة فى ليلة سبت يقول : إنا لسنا بدار مقام فأعدوا للقتال ، فاعتذر اليهود بالسبت وقالوا : ومع ذلك لا نقاتل حتى تعطونا أبناءكم فصدّق القوم خبر (نعيم) وردوا إليهم بالأباية من الرهن والحث على الخروج . فصدق أيضا بنو قريظة خبر (نعيم) وأبوا القتال . فكان هذا الكلام عند هبوب ريح التخالف من أعظم وأكبر الأسباب التى تراجعت بها القلوب إلى نقض العهود ولم يقف الحال عند ذلك بل أرسل اللّه على قريش وغطفان ريحا عظيمة أكفأت قدورهم وآنيتهم وقلعت أبنيتهم وخيامهم فأصبح المسلمون وقد ذهب الأحزاب . ثم نهض رسول اللّه إلى (بنى قريظة)[1] بعد صلاة الظهر من ذلك اليوم فأمر المسلمين ألا يصلى أحد العصر إلا فى بنى قريظة . وأعطى الراية على بن أبى طالب وبعد أن حاصرهم خمسا وعشرين ليلة ضربت أعناقهم وقسمت أموالهم وكانت خيل المسلمين يومئذ ستة وثلاثين فارسا .

ثم كانت غزوة (الغابة وذى قَرَد)[2] وكان سببها أنه بعد قفول المسلمين إلى المدينة بليال أغار عيينة بن حصن الفزارى فى بنى عبد اللّه من غطفان على لقاح النبى ﷺ بالغابة وكان فيها رجل من بنى غفار وامرأته فقتلوه وحملوا المرأة ووقعت الصيحة بالمدينة وركب رسول اللّه ﷺ فى أثرهم حتى أدركهم فكانت بينهم جولة قتل فيها من قتل ثم ولى المشركون منهزمين وبلغ رسول اللّه ﷺ ماء يقال له (ذو قَرَد) فأقام عليه ليلة ويومها ونحر ناقة من لقاحه المسترجعة ثم قفل إلى المدينة .

أقام رسول اللّه إلى شعبان من السنة السادسة وغزا (بنى المصطلق) [3] من خزاعة لما

(١) رواها البخارى ومسلم وغيرهما ورواها ابن هشام عن ابن إسحاق وغيره .

(٢) رواها ابن هشام مفصلة عن ابن إسحاق وغيره .

(٣) فى جمادى الآخرة ٦ هـ .

بلغه من أنهم مجتمعون له وقائدهم الحارث بن ضرار أبو جويرية أم المؤمنين فخرج إليهم ولقيهم بالمُرَيْسيع (١) من مياههم فتزاحفوا وهزمهم الله .

ثم خرج رسول الله ﷺ فى السادسة وفى ذى القعدة منها معتمرا (عمرة الحُدَيبِيَة) (٢) واستفز (٣) الأعراب وساق الهدى وأحرم من المدينة ليعلم الناس أنه لا يريد حربا وبلغ ذلك قريشا فأجمعوا على صده عن البيت وقتاله دونه فلما جاء رسول الله ﷺ إلى مكة بركت ناقته وقال الناس : خلأت (٤) الناقة فقال : ما خلأت وما ذاك بخلق ولكن حبسها حابس الفيل .

ثم جرت السفراء بين رسول الله وبين كفار قريش وقاضى رسول الله ﷺ على أمور . ينصرف عامه ذلك ويأتى من قابل معتمرا ويدخل مكة والسيوف فى القرب فيقيم بها ثلاثا ولا يزيد . يتصل الصلح عشرة أعوام يتداخل فيه الناس ويأمن بعضهم بعضا : من هاجر من الكفار إلى المسلمين من رجل أو امرأة يُرد إلى قومه . ومن ارتد من المسلمين لا يرد .

انْبهم هذا الأمر على المسلمين وكبُر عليهم وتكلم فيه بعضهم شأننا فى عالم الشهادة وعدم اهتداء الأفكار إلى كشف الغائب من الأمور إلا بهدى وإشراق مخصوص .

اهتدى النبى ﷺ لهذا الصلح وعلم أنه سبب لأمن الناس وظهور الإسلام وإن الله سيجعل فيه فرجا قريبا للمسلمين وهو أعلم بما علّمه ربه .

كتبت الصحيفة كما قالوا (ولم يذكر فيها رسول الله) ثم أتى أبو جندل بن سهيل يرسف فى قيوده فرده رسول الله ﷺ إلى أبيه وأخبره أن الله سيجعل له فرجا وبينما هم يكتبون الكتاب عنه جاءت أيضا سرية ما بين الثلاثين والأربعين يريدون الإيقاع بالمسلمين فأعتقهم رسول الله ﷺ وإليهم ينسب العتيقيون .

عظم هذا الأمر على المسلمين من كل وجه حتى أنهم أغضبوا النبى ﷺ فى عدم متابعته أولا عندما أمر بالحلق والنحر ثم نحر فتابعوه ورجع رسول الله إلى المدينة معهم .

ما فتح الله بفتح قبل هذا أعظم منه أبدا . كان القتال سدا فى وجوه القوم فلا تلتقى

---

(١) المريسيع : مكان غزا فيه الرسول بنى المصطلق .

(٢) رواها ابن إسحاق والبخارى وغيرهما كأحمد .

(٣) استفز : جمع وأفزع . (٤) خلأت : حرمت .

الناس دونه ثم كانت هذه الهدنة والناس على شوق من أن يأخذوا لأنفسهم بالأحوط فما بشروا بإطلاق هذه الهدنة وأمن الناس بعضهم بعضا حتى التقوا وتفاوضوا فى الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام أحدا أو يرشده إليه إلا دخل فيه فلقد دخل فى تينك السنتين فى الإسلام مثل من دخلوا قبل ذلك وأكثر .

وأعجب منه رد من يهاجر من الكفار إلى قومه . ومن ارتد من المسلمين لا يرد . خفى عليهم أيضا أمره ولم يدركوا أن رد المسلم المهاجر إلى العرب داع لانتشار الدين بينهم لأنه مسلم ولا يزايل قلبه الإسلام أبدا ومانح للنظر فى مكنون أسرار المرتد من المسلمين ليعلم ما هو عليه وهو بعيد عن محابس الخشية وخالص من قيد الأوامر والنواهى فيعلم الناس المنافقين ويعلم النبى من ينصره بالغيب .

ثم بعث النبى ﷺ رجالا من أصحابه إلى ملوك العرب وسلاطين العجم : فبعث سليط بن عمر رضى الله عنه إلى صاحب اليمامة . والعلاء بن الحضرمى إلى صاحب البحرين . وعمرو بن العاص إلى صاحب عمان . وحاطب بن أبى بلتعة إلى صاحب الإسكندرية . وشجاع بن وهب إلى صاحب دمشق . وعمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى .

وكتب إلى كسرى فلما قرأ الكتاب مزقه استكبارا فبلغ النبى ﷺ فقال : اللهم مزق ملكه كل ممزق (وكان ذلك) فقد جزّ الله أصله وقطع دابره ، لأن كل ملك أخرج من معظم ملكه يقيم على بقية منه ولكن الإسلام لم يترك لهذا الملك ملكا تناله الحوافر والأقدام إلا أزاله عنه . ثم كتب كسرى إلى (باذان) عامله على اليمين يأمره بأن يبعث إلى النبى ﷺ رجلين جلدين من عنده يأتيان به فبعث إليه بقهرمانه وآخر معه فلما قدما على النبى ﷺ جاءه الوحى بأن اللّه سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله ليلة كذا فأخبرهما وقال لهما : « إن دينى وسلطانى يبلغ ما بلغ ملك كسرى » فانصرفا وأخبرا (باذان) الخبر ولم ينشب (باذان) أن جاءه كتاب شيرويه بقتل كسرى . وهكذا دعواته المستجابه حينما لقى من شدة أذى العرب وتكذيبهم إياه واستعانتهم عليه بالأموال والرجال دعا اللّه عز وجل أن يجدب بلادهم وأن يدخل الفقر بيوتهم فقال ﷺ : اللهم سنين كسنى يوسف اللهم اشدد وطأتك على مضر . فأمسك اللّه عز وجل المطر عنهم حتى مات الشجر وذهب الثمر وقلت المزارع حتى إذا بلغت الحجة مبلغها وانتهت الموعظة منتهاها عاد بفضله فسأل ربه الخصب وإدرار الغيث فأتاهم منه ما هدم بيوتهم ومنعهم حوائجهم ،

فكلموه فى ذلك فقال : اللهم حوالينا ولا علينا فأمطر اللّه عز وجل ما حولهم وأمسك عنهم .

ثم خرج النبى ﷺ غازيا إلى (خيبر) (١) وحال اللّه بين غطفان وبين يهود خيبر برعب قذفه فى قلوبهم فأقعدهم فى مكانهم بعد أن كانوا أرادوا مددهم ، وافتتح رسول اللّه ﷺ حصون خيبر حصنا حصنا وبعض خيبر عنوة وبعضها وهو الأكثر صلحا على الجلاء فقسمها رسول اللّه ﷺ وأقر اليهود أن يعملوها بأموالهم وأنفسهم ولهم النصف فى كل ما تخرج .

وفى هذه الغزوة أهدت اليهودية زينب بنت الحرث امرأة سلام إلى النبى ﷺ شاة مصلية وجعلت السم فى الذراع منها وكان أحب اللحم إليه فتناوله ولاك منه مضغة ثم لفظها وقال إن : هذا العظم يخبرنى أنه مسموم وأكل معه بشر بن البراء بن معرور وازدرد لقمة فمات منها ثم اعترفت اليهودية ودفعت لأولياء دم بشر فقتلوها .

ثم قدمت مهاجرة الحبشة إلى مكة وهاجروا منها إلى المدينة وفيهم جعفر بن أبى طالب وكان يوم فتح خيبر فقبل رسول اللّه ما بين عينيه والتزمه وقال : ما أدرى بأيهما أنا أسر : بفتح خيبر أم بقدوم جعفر .

اتصل شأن أهل خيبر بأهل (فدك) فسألوا رسول اللّه ﷺ الأمان على أن يتركوا الأموال فأجابهم إلى ذلك فكانت خالصة لرسول اللّه مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب فلم يقسمها ووضعها حيث أمره اللّه . ثم افتتح وادى القرى عنوة وقسمها ورحل إلى المدينة .

أقام رسول اللّه ﷺ بعد خيبر إلى انقضاء شوال من السنة السابعة ثم خرج فى ذى القعدة لقضاء العمرة التى عاهدته عليها قريش يوم الحديبية وعقد لها الصلح وخرج ملأ من قريش عن مكة عداوة للّه ورسوله وكرها فى لقائه فقضى عمرته وتمت الثلاث التى عاهدته قريش على المقام بها وأوصوا إليه بالخروج وأعجلوه .

أمضى عهده ﷺ وخرج وأقام بعد منصرفه من هذه العمرة إلى جمادى الأولى (١) من السنة الثامنة ثم بعث الأمراء إلى الشام وأمر على الجيش ، وكان نحوا من ثلاثة آلاف ، مولاه (زيد بن حارثة) وقال : وإن أصابه قدر فالأمير (جعفر بن طالب) فإن أصابه قدر

(١) هى غزوة مؤته رواها ابن هشام والبخارى وغيرهم .

فالأمير (عبد الله بن رواحة) فإن أصيب فليرتض المسلمون برجل من بينهم يجعلونه أميرا عليهم . وشيعهم ﷺ .

هذه الغزوة هى التى مثلت المساواة بين أفراد الصحابة فى الشجاعة وكادت ترفع من بينهم الامتياز إلا بما فضل الله فقد ظهر الكل فى معرض الشجاعة متجردين عن حب الحياة الدنيا غير غافلين عن شأن الله فيهم فأقاموا الدين وما تفرقوا فيها شيعا .

انتهى هذا الجيش إلى معان من أرض الشام فأتاهم الخبر بأن هرقل ملك الروم قد نزل بأرض البلقاء فى ١٠٠٠٠٠ فارس من الروم و ١٠٠٠٠٠ فارس من نصارى العرب من لخم وجذام وغيرهم فأقام المسلمون فى معان ليلتين يتشاورون فى الكتب إلى رسول الله ﷺ انتظار أمره ومدده . ثم قال لهم عبد الله بن رواحة : أنتم إنما خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به . فانطلقوا إلى جموع هرقل ورتبوا الميمنة والميسرة ، واقتتلوا فقتل (زيد بن حاثة) ملاقيا بصدره الرماح والراية فى يده فأخذها (جعفر بن أبى طالب) فعقر فوسه ثم قاتل حتى قطعت يمينه فأخذها بيساره فقطعت كذلك ، وكان ابن ثلاث وثلاثين سنة فأخذها (عبد الله بن رواحة) وبردد عن النزول بعض الشىء ثم صمد إلى العدو فقاتل حتى قتل فأخذ الراية ثابت بن أقرم من بنى العجلان وناولها (لخالد بن الوليد) فانحاز بالمسلمين وقد استشهد منهم بما يزيد على العشرة أكرمهم الله بالشهادة .

كان اشتغال العرب بهذه الحروب شاغلا لهم نسوا به دماء بينهم ، فلما وقع صلح الحديبية أمن الناس بعضهم بعضا وفرغوا من مشاغل الحروب وحلوا الأغلال التى كانت أخذت بأيديهم ومالوا لإدراك الثأر .

وكان من الدماء المسفوكة التى لم يتم فيها التنازع والتجالد دم بين بنى بكر وخزاعة مضت عليه الأزمنة والأعصار حتى جاء الإسلام ودخلت خزاعة فى عهد النبى ﷺ ودخلت بكر فى عهد قريش فى صلح الحديبية .

أراد الله أن يلوح من خلال هذا الظلم القديم نور فتح جديد مبين فقام رجل من بكر ينشد هجاء النبى ﷺ فسمعه رجل من خزاعة فشجه فهاج بينهم وانتقض العهد الذى بين قريش والنبى ﷺ فقدم وفد من قومهم مستغيثين برسول الله ﷺ مما أصابهم فأجاب صريخهم وأخبرهم أن أبا سفيان سيأتى يشد العقد ويزيد المدة ولكنه يرجع بغير حاجة وأن الذى فعلته قريش ستندم عليه وسيكون ذلك سببا للفتح وكان ذلك جميعه .

صدق الله رسوله وخرج أبو سفيان إلى المدينة ليؤكد العقد ويزيد فى المدة فرجع بغير حاجة . ثم أعلم رسول الله للبعض فقط أنه سائر إلى مكة وأمر الناس بأن يتجهزوا ودعا الله أن يطمس الأخبار عن قريش وكتب إليهم (حاطب بن بلتعة) بالخبر مع ظعينة قاصدة إلى مكة فأوحى الله إليه وبعث عليا والزبير والمقداد إلى الظعينة فأدركوها فأخرجته من بين قرون رأسها .

خرج رسول الله لعشر خلون من رمضان من السنة الثامنة فى ١٠٠٠٠ نفس من قبائل سليم . وغفار . ومزينة. وطوائف من قريش . وأسد وتميم . وغيرهم من سائر القبائل وقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها فطوى الله أخباره عن قريش إلا أنهم يتوجسون الخيفة . قال العباس : والله إن بغتها فى بلادها فدخل عنوة إنه لهلاك قريش آخر الدهر وخشى هلاك قريش إن فاجأهم الجيش قبل أن يستأمنوا فركب العباس بغلة النبى ﷺ وذهب يتحسس وكان أبوسفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام يتحسسون الخبر أيضا فسمع العباس صوت أبى سفيان وبديل وقد أبصرا نيران العسكر .

فيقول بديل : نيران بنى خزاعة فيقول أبو سفيان : خزاعة أذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها فقال العباس : هذا رسو ل الله ﷺ فى المسلمين أتاكم فى ١٠٠٠٠ نفس قال : فما تأمرنى به ؟ قال : تركب معى فأستأمن لك رسول الله ﷺ فوالله إن ظفر بك ليضربن عنقك فردفه خلفه ونهض به إلى المعسكر ومر بعمر رضى الله عنه فخرج يشتد إلى رسول الله ﷺ يقول : الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا نقض فسبقه العباس على البغلة ودخل عمر على أثره فقال : يا رسول الله هذا عدو الله أبو سفيان أمكن الله منه بلا عهد فدعنى أضرب عنقه ، فقال العباس: قد أجرته . فزأر عمر فقال العباس : لو كان من بنى عدى ولكنه من عبد مناف فقال عمر : والله لإسلامك كان أحب إلىّ من إسلام الخطاب لأنى أعرف أنه عند رسول الله ﷺ كذلك ، فأمر رسول الله ﷺ العباس أن يحمله إلى رحله ويأتيه به صباحا ، فلما أتى به قال له ﷺ : ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ، فقال (بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك والله لقد علمت لو كان معه إله غيره أغنى عنا ، قال : ويحك ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله . قال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه ففى النفس منها شئ . فقال له العباس : ويحك أسلم قبل أن يضرب عنقك فأسلم . فقال العباس يا رسول الله : إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا . قال : نعم . من دخل دار أبى سفيان فهو آمن .

ومن أغلق عليه بابه فهو آمن . ومن دخل المسجد فهو آمن . ثم أمر العباس أن يوقف أبا سفيان بخطم الوادى [1] ليرى جنود الله ففعل ذلك . ومرت به القبائل قبيلة قبيلة إلى أن جاء مركب النبى ﷺ فى المهاجرين والأنصار عليهم الدروع البيض فقال : من هؤلاء ؟ فقال العباس : هذا رسول الله فى المهاجرين والأنصار . فقال : لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما فقال : يا أبا سفيان إنها النبوة فقال : هى إذن . أو قال : نعم إذن ثم قال له التجئ الى قومك فأتى مكة وأخبرهم بما أحاط بهم وبقول النبى ﷺ : من أتى المسجد فهو آمن . الخ .

ثم رتب النبى ﷺ الجيش وكان على الميمنة خالد بن الوليد وعلى الميسرة الزبير وعلى المقدمة أبو عبيدة بن الجراح وضرب رسول الله ﷺ الجيوش من (ذى طُوًى) وأمرهم بالدخول إلى مكة (الزبير) من أعلاها و (خالد) من أسفلها وأن يقاتلوا من تعرض لهم ولم يكن إلا جولة وانهزم المشركون . وكان الفتح لعشر بقين من رمضان ، وأهدر دم جماعة من المشركين [2] يومئذ أتت على أسمائهم كتب السير .

دخل رسول الله ﷺ المسجد وطاف بالكعبة وأخذ المفتاح من عثمان بن طلحة بعد أن مانعت دونه أم عثمان ثم أسلمته فدخل الكعبة ومعه أسامة بن زيد وبلال بن طلحة وأبقى له حجابة البيت وأمر بكسر الصور داخل الكعبة وخارجها وبكسر الأصنام حواليها وأمر بلالا فأذن على ظهرها .

ثم وقف رسول الله ﷺ بباب الكعبة ثانى يوم الفتح وخطب خطبته المعروفة ، ووضع مآثر الجاهلية [3] إلا سدانة البيت وسقاية الحاج [4] ، وأخبر أن مكة لم تحل لأحد قبله ولا بعده وإنما أحلت له ساعة من نهار ثم عادت كحرمتها بالأمس ثم قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده . ألا إن كل مأثورة أو دم أو مال يدعى فى الجاهلية فهو تحت قدمى هاتين إلاسدانة الكعبة وسقاية الحاج ألا وإن قتا الخطأ مثل العمد بالسوط والعصا فيهما الدية مغلظة منها أربعون فى بطونها أولادها .

---

(١) خطم الوادى : مضيق الوادى .

(٢) هم : عبد اللّه بن سعد كان قد أسلم ثم ارتد فعفا عنه الرسول فأسلم ـ عبد الله بن خطل وجيرانه قتلوه ـ الحويرث بن نقيد بن وهب بن عبد خص قتل ـ مقبس بن حبابه قتل ـ ساره قتلت ـ عكرمة بن أبى جهل فر ثم عاد وأسلم ـ إحدى جارتيى بن خطل قتلت وأسلمت الأخرى

(٣) سدانه البيت : فتح أبوابه .

(٤) سقاية الحاج : سقاية الحجاج .

يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ (١) .

يا معشر قريش يا أهل مكة ، ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ؛ أخ كريم ثم قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء . وأعتقهم على الإسلام ، وجلس لهم فيما قبل على الصفا فبايعوه على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ، وبايع النساء سيدنا عمر بن الخطاب .

مثل رسول الله ﷺ بفعله هذا الكمال فى أبلغ صوره ومنتهى درجاته بمقابلته كفران أهل مكة بإحسانه وإنعامه . على أن الذى لاقاه عليه الصلاة والسلام منهم من أول دعوته إلى هذا الفتح مما لا يسعه حلم ولا يحيط به كرم ولكن رسول الله ﷺ أشفق على أمته . أشرب فؤاده الشريف حب إنقاذ الهالكين وإرشاد الضالين منهم كانوا من العناد بالمقدار الذى بينه أصحاب السير . قابلهم وهو فى أشد مظهر القوة والعظمة بحلمه وكرمه ولطفه وإحسانه وعفا عنهم وهكذا شيمته عليه الصلاة والسلام . وكفى بنعت الله له فى كتابه الكريم بقوله : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزعليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾ (٢) .

أقام رسول الله ﷺ بعد هذا خمس عشرة ليلة وهو يقصر الصلاة فبلغه أن هوازن وثقيف جمعوا له وهم عامدون إلى مكة وقد نزلوا (حنينا) (٣) فبعث النبى ﷺ يستعلم خبر القوم فجاءه الرسول وأطلعه على جلية الخبر وأنهم قاصدون إليه فجهز رسول الله ﷺ الجيش ومر به حتى أتى وادى حنين من أودية تهامة أول يوم من شوال من السنة الثامنة وهو واد حزن (٤) فتوسطوه في غبش (٥) الصبح وقد كمنت (٦) هوازن فى جانبيه فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد فولّى المسلمون لا يلوى (٧) أحد على أحد وناداهم ﷺ فلم يرجعوا وثبت معه أبو بكر وعمر وعلى والنبى ﷺ على بغلته البيضاء والعباس آخذ بشكائمها (٨) فأمره رسول الله ﷺ أن ينادى بالأنصار وأصحاب الشجرة وبالمهاجرين وكان جهير الصوت فنادى فاقتحمت الناس الرواحل راجعين وقد اجتمع

---

(١) الحجرات : ١٣ . (٢) التوبة : ١٢٨ .

(٣) رواها ابن اسحاق وبن سعد فى الطبقات ومسلم والبخارى .

(٤) حزن : صعب . (٥) غبش : أول . (٦) كمنت : أختبأت .

(٧) يلوى: يميل . (٨) شكائمها : حديدة معترضة بهما فم البغلة .

منهم حواليه نحو المائة فاستقبلوا (هوازن) والناس متلاحقون واشتدت الحرب وحمى الوطيس [1] وقذف الله فى قلوب (هوازن) الرعب حين وصلوا إلى رسول الله ﷺ فلم يملكوا أنفسهم فولوا منهزمين ولحق آخر الناس وأسرى (هوازن) مغلولة بين يديه وغنم المسلمون عيالهم وأموالهم واستحرّ [2] القتل فى بنى مالك وثقيف .

ثم أمر رسول الله ﷺ بالسبايا والأموال فحبست وسار من فوره إلى الطائف فحاصر بها ثقيف خمس عشرة ليلة ورماهم بالمنجنيق [3] ثم انصرف رسول الله ﷺ بعد ما دخل الطائف . وجاءه وفد (هوازن) بالجعرانة وخيرهم بين العيال والأبناء والأموال فاختاروا العيال والأبناء ثم رد عليهم نساءهم وأبناءهم بأجمعهم وقسم الأموال بين المسلمين وأعطى قوما يستألفهم على الإسلام يسمون المؤلفة مذكورين فى كتب السيرة يقاربون الأربعين .

وجد الأنصار فى أنفسهم من ذلك فتكلم شبانهم مع ما كانوا يظنون أنه إذا فتح الله عليه بلده (مكة) يرجع إلى قومه ويتركهم . فجمعهم ووعظهم وذكرهم وقال : إنما أعطى قوما حديثى عهد بالإسلام أتألفهم عليه أما ترضون أن ينصرف الناس بالشاء والبعير وتنصرفون برسول الله إلى رحالكم . لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار . ولو سلك الأنصار شعبا وسلك الناس شعبا لسلكت شعب الأنصار ففرحوا .

اعتمر رسول الله ﷺ من الجُعْرَّانة إلى مكة ورجع إلى المدينة واستعمل على مكة عتاب بن أسيد شابا ينيف [4] على العشرين غلبه الورع والزهد وهو أو أمير أقام حج الإسلام وحج المشركون على مشاعرهم .

أقام رسول الله ﷺ إلى شهر رجب من السنة التاسعة وأمر الناس أن يتهيئوا لغزو الروم وكان فى غزواته كثيرا ما يورى بغير الجهة التى يقصدها على طريقة الحرب إلا ما كان فى هذه الغزوة [5] لعسرها بشدة الحرب وبعد البلاد وقلة الظلال وكثرة العدو الذى يصدون . وتجهز الناس على ما فى أنفسهم من استثقال ذلك ، والمنافقون لا يفتئون يثبطون الناس عن الغزو ، وتقدم كثير من المسلمين بالإنفاق كسيدنا عثمان بن عفان فإنه أنفق فيها ١٠٠٠٠ دينار وحمل على تسعمائة بعير ومائة فرس وجهز ركابا وجاء بعض المسلمين

---

(١) حمى الوطيس : كناية عن شدة الحرب .

(٢) استحرّ : اشتد . (٣) المنجنيق : المقلاع . (٤) ينيف : يزيد .

(٥) روى تفصيلها ابن هشام عن بن إسحاق وروى بعضها البخارى ومسلم وغيرهما .

يستحملون النبي ﷺ فلم يجد ما يحملهم عليه فنزلوا باكين لذلك . وسار رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى تبوك فأتاه (صاحب أيلة) . و (أهل جرباء وأذرعات) . فصالحوا على الجزية وكتب لكل كتابا وبعث خالد بن الوليد فصالح صاحب (دومة الجندل) على الجزية أيضا . ثم أسلم عروة بن مسعود وجاء وفد ثقيف بعد ماضيق عليهم مالك بن عوف واستباح رحمهم وقطع سابلهم فأسلموا وأمر عليهم عثمان بن أبي العاصي رضى الله عنه أصغرهم سنا لحرصه على الفقه وتعلم القرآن .

ثم هدمت اللات والعزى : هدمهما المغيرة بن شعبة وقام قومه من بني شعيب دونه خوفا من أن يرمى بسهم وخرج نساء ثقيف حسرى يبكين عليهما . وجاء أبو سفيان فأخذ حليها ومالها وقضى منه دين عروة والأسود بن مسعود كما أمر رسول الله ﷺ .

كانت العرب تتربص بالإسلام أمر هذا الحى من قريش وأمر النبى ﷺ ولأن قريشا كانوا إمام الناس وهاديهم وأهل البيت والحرم وضريح ولد إسماعيل وقادتهم لا ينكرون لهم وكانت قريش هى التى نصبت لحربه وخلافه فلما استفتحت مكة ودانت قريش ودخلها الإسلام عرفت العرب أنهم لا طاقة لهم بحربه وعدوانه فدخلوا دينه أفواجا يضربون إليه من كل وجه مصداقا للخبر الإلهى الذى لا يتخلف : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا** ﴾ [1] .

ضربت إليه وفود العرب حتى سميت هذه السنة سنة الوفود وجاءته الكتب والرسل تترى [2] من الملوك (كحِمْيَر) ، و(ابن ذى يزن) وغيرهما بإسلامهم ومفارقة الشرك وأهله . وكلما جاء وفد أكرمهم النبى ﷺ وأرشدهم وعرفهم أمر دينهم وبشرهم بالخير وأمرهم به وشدد عليهم فى الظلم ونهاهم عنه وفهمهم وأخبرهم بالذى لهم وعليهم وكتب ﷺ العهود والكتب .

ثم خرج رسول الله الى حجة الوداع [3] لموافقة الحج فيها عاشر الحجة ومعه أشراف الناس وخطب بعرفة خطبته المشهورة التى بين للناس فيها ما بين .

قال عليه الصلاة والسلام :

« أيها الناس اسمعوا لى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا .

---

(١) النصر : كلها . (٢) تترى : متتابعة . (٣) رواها البخارى وغيره ومسلم ورواها ابن هشام .

أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من اؤتمن عليها ، وإن كان ربا فهو موضوع ولكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله أن لا ربا ، وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وأن كل دم فى الجاهلية موضوع كله ، وأن أول دم يوضع دم ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب فهو أول ما أبدأ من دم الجاهلية .

أيها الناس إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم .

﴿ إنما النسئ زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله ﴾ [1] .

ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض : منها أربعة حرم : ثلاثة متوالية ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب الفرد الذى بين جمادى وشعبان .

أيها الناس إن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا : لكم عليهم ألا يوطئن فرشكم أحدا ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف . واستوصوا بالنساء خيرا إنهن لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولى فإنى قد بلغت قولى وتركت فيكم ما إن استعصمتم به فلن تضلوا أبدا : كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس اسمعوا قولى واعلموا أن كل مسلم أخو المسلم ، وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من مال أخيه إلا ما أعطاه إياه عن طيب نفسه فلا تظلموا أنفسكم .

ألا هل بلغت اللهم اشهد » .

اشتكى النبى ﷺ بعد ما قضى حجة الوداع فطارت الأخبار بذلك فوثب الأسود العنسى باليمن . ووثب مسيلمة الكذاب باليمامة . وطلحة بن خويلد فى بنى أسد يدعى

(١) التوبة : ٣٧ .

كلهم بالنبوة ، وحاربهم رسول الله ﷺ بالرسل والكتب إلى عماله ومن ثبت على إسلامه من قومهم أن يجدوا فى جهادهم فأصيب الأسود قبل وفاته بيوم ، ولم يشغله ما كان فيه من الوجع عن أمر الله والذب عن دينه فبعث إلى المسلمين من العرب فى كل ناحية من نواحى هؤلاء الكذابين يأمرهم بجهادهم .

ثم بدأ به المرض ﷺ وأول ذلك أن الله نعى نفسه الشريفة إليه بقوله : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ [1] إلخ السورة . ثم بدأه الوجع لليلتين بقيتا من صفر وتمادى به وجعه ، وهو على يدى نسائه ، حتى استقر به فى بيت ميمونة فاستأذن نساءه أن يمرض فى بيت عائشة فأذنَّ له ، وخرج على الناس فخطبهم وتحلل منهم ﷺ على شهداء أحد واستغفر لهم ثم قال : « إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده » [2] ففهمها أبو بكر فبكى وقال : بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا فقال : على رسلك يا أبا بكر [3] .

جمع رسول الله ودعا لهم كثيرا وأوصاهم بتقوى الله وأوصى الله بهم واستخلفه عليهم وأودعهم إليه ثم سألوه عن مغسله . وكفنه . والصلاة عليه . وعمن يدخله القبر فقال لهم فى كل ذلك ثم أوصى بالأنصار خيرا . وأمر بسد الأبواب التى فى المسجد إلا باب أبى بكر ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صحبة إخاء وإيمان حتى يجمعنا الله عنده .

ثم ثقل به الوجع وجاءت وقت الصلاة فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس فصلى [4] ، ووجد رسول الله ﷺ خفة فخرج ، فلما أحس أبو بكر تأخر فجذبه رسول الله وأقامه مكانه ، وقرأ من حيث انتهى أبو بكر ، ثم كان أبو بكر يصلى بصلاته والناس بصلاة أبى بكر [5] . صلوا كذلك عشر صلوات على المشهور . فلما كان يوم الإثنين وهو يوم وفاته خرج عليه السلام إلى صلاة الصبح عاصبا رأسه وأبو بكر يصلى فنكص عن صلاته ورده عليه الصلاة والسلام بيده وصلى قاعدا على يمينه ثم أقبل على الناس بعد الصلاة ليعظهم ويذكرهم [6] ، ثم دخل رسول الله ﷺ فاضطجع فى حجرة عائشة وخرج أبو بكر إلى السنح قالت عائشة فثقل فى حجرى فنظرت وجهه فإذا بصره قد شخص إلى السماء وهو يقول : « الرفيق الأعلى » [7] فعلمت أنه خير فاختار ، وذلك نصف النهار من يوم الإثنين لليلتين من شهر ربيع الأول .

---

(١) النصر : ١ . (٢) رواها مسلم وروى نحوها البخارى . (٣) على رسلك : تمهل .
(٤ ، ٥) متفق عليه . (٦) رواه الشيخان . (٧) متفق عليه واللفظ للبخارى .

طار النعى فى الناس بموته فقامت رجال تزعم أنه لم يمت وأدرك الخبر أبا بكر فدخل على رسول الله ﷺ فكشف عن جهه وقبله وقال : بأبى أنت وأمى قد ذقت الموتة التى كتب الله عليك ولن يصيبك بعدها موتة أبدا (١) . وخرج إلى سيدنا عمر بن الخطاب وهو يتكلم فقال له : أنصت فأبى فأقبل هو على الناس وتكلم فجاءوا إليه فقال : أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت (٢) . ثم تلا : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين** ﴾ (٣) قال عمر : فما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها فوقعت على الأرض ما تحملنى رجلاى وعرفت أنه قد مات .

قام علىّ ، وعباس وابناه وقثم ، وأسامة بن زيد يتولون تجهيز رسول الله ﷺ كما أوصى فغسله علىٌ وعليه ثيابه مسندة إلى ظهره والعباس وابناه يقلبونه معه وأسامة وشقران يصبان الماء ثم كفنوه فى ثوبين صحاريين (٤) وبرد جده أدرج فيهن إدراجا ودفن حيث قبض فرفع فراشه الذى قبض عليه وحفر له تحته ، ولحده أبو طلحة زيد بن سهل وكان يحفر لأهل المدينة ثم دخلت الناس فصلت عليه الرجال . ثم النساء . ثم الصبيان . ثم العبيد لا يؤم أحدهم أحد ، ثم دفن فى وسط الليل ليلة الأربعاء وقيل ليلة الثلاثاء ، وكانت ليلة ليلاء أظلمت بفقد الرسول ﷺ وانقطاع الوحى واشترك الناس كلهم فى العزاء فطاشت العقول وخرست الألسن ، وعمره ثلاث وستون أو خس وستون صلوات الله عليه .

شمائله ﷺ

كان حسن الخلق . وسيما (٥) قسيما (٦) . أبيض اللون مشربا بحمرة . وكان وجهه أغرّ (٧) ظاهر الوضاءة يتلألأ . فيه تدوير ولم يكن بالطويل . ولا بالمطهم (٨) . ولا بالمكلثم (٩) . واسع الجبين . أزج (١٠) الحواجب سوابغ (١١) فى غير قرن (١٢) . بينهما

---

(١) رواه البخارى . (٢) رواه ابن إسحاق وغيره كالبخارى مع فرق بسيط فى بعض الألفاظ .
(٣) آل عمران : ١٤٤ . (٤) صحاريين : من ثياب اليمن . (٥) وسيم : جميل الوجه .
(٦) قسيما : ما أقبل من الوجه أو ما خرج عنه . (٧) أغر : أبيض الجبهة .
(٨) المطهم : مدور الوجه . (٩) المكلثم : عظيم الوجنتان . (١٠) أزج : دقيق الحواجب .
(١١) سوابغ : وافر الشعر . (١٢) قرن : التمام الحاجبين .

عرق يدره الغضب . أبلج [1] الحاجبين كأن ما بينهما الفضة المخلصة . حاد البصر عظيم العينين أنجلهما [2] . أدعجهما [3] . أكحلهما . أسود الحدقة . أحمر المآقى [4] . أهدب [5] الأشفار [6] حتى تكاد تلتبس من كثرتها . شارع الأنف حسن الأرنبة . أقنى [7] العرنين [8] . سهل الخدين . أسيلهما [9] صلبهما . تام الأذنين . ضليع [10] الفم حسنه . أشنب [11] الأسنان مفلج [12] الثنايا برّاقها . إذا ضحك يتلألأ وإذا تكلم رئى كالنور يخرج من بين ثناياه . وكان أحسن الناس شفتين وألطفهم ختم فم . حسن الصوت فى صوته صحل [13] يبلغ حيث لا يبلغه صوت غيره ، وإذا خطب اشتدّ غضبه وعلا صوته . كأنه منذر جيش . يقول صبحكم ومساكم . أحسن عباد الله عنقا لا بالطويل ولا بالقصير . أجمل الناس وأبهاهم من بعيد . وأحسنهم من قريب . أجرد [14] أزهر [15] اللون . أحسن الناس وجها . وألين الناس كفا . وأنور الناس لونا . يرى رضاه وغضبه فى وجهه لصفاء بشرته . فكأن وجهه مرآة . لم يصفه واصف إلا شبه وجهه بالقمر ليلة البدر . من رآه بديهة هابه . ومن خالطه معرفة أحبه . يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله . فحما مفخما حسن الجسم معتدل الخلق بادنا [16] ، أحسن الناس قواما كالمرآة فى استوائها . وكالقمر فى بياضه . أطول من المربوع [17] وأقصر من المشذب [18] . عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين سواء البطن والصدر قوى الجسم . شديد البطش . عظيم الهامة [19] . ضخم الكراديس [20] شثن [21] الأصابع ، شثن الكفين والقدمين ، جليل المشاش [22] والكتد [23] ، عبل [24] الذراعين . عبل العضدين ضخم الفخذين والساقين . رحب الراحتين [25] سائل الأطراف منهوش [26] الكعبين . مسيح [27] القدمين ، خمصان [28] الأخمصين . أحسن البشر قدما إذا التفت التفت جميعا وإذا مشى كأنما يتقلع عن صخرة ،

---

(1) أبلج : أوضح .
(2) أنجلهما : أوسعهما .
(3) أدعجهما : أسودهما .
(4) المآقى : مؤخرا العين .
(5) أهدب : أسود .
(6) الأشفار : أطراف الأجفان .
(7) أقنى : دقيق .
(8) العرنين : الأنف .
(9) أسيلهما : سهلهما .
(10) ضليع : واسع .
(11) أشنب : حاد .
(12) مفلج الثنايا : متباعد الأسنان .
(13) صحل : قوة .
(14) أجرد : أبيض .
(15) أزهر : مضيئ .
(16) بادنا : عظيم الجسد .
(17) المربوع : لا طويل ولا قصير .
(18) الشذب : شديد الطول .
(19) الهامة : الرأس .
(20) الكراديس : العظام القوية .
(21) شثن : غليظ .
(22) المشاش .
(23) كتد : مجتمع الكعبين .
(24) عبل : تام .
(25) سائل : طويل الأصابع .
(26) منهوش : مقبوض .
(27) مسيح : سهل .
(28) خمصان : متباعد بين الأصابع .

وكأنما ينحط [١] من صبب [٢] ، يخطو تكفيا [٣] ويمشى هونا [٤] بغير تبختر [٥] . ما مشى مع أحد إلا طاله . ذريع [٦] المشية يجهد أصحابه أنفسهم وهو غير مكترث [٧] ، يمشى مجتمعا مشيا يعرف فيه أنه ليس بعاجز ولا كسلان . ولا يلتفت وراءه ولا يعيا [٨] ، يقبل جميعا ويدبر جميعا ، إذا جاء مع القوم غمرهم يسوق أصحابه ويبدر من لقيه بالسلام . كث اللحية حسن السبلة [٩] حسن الشعر رجله [١٠] ، شديد سواده إذا انفرقت عقيقته [١١] فرقها . جميل الوفـرة [١٢] . حسن اللمة [١٣] . عظيم الجمة [١٤] ، ولم يكن بالجعد القطط [١٥] ولا بالسبط [١٦] كان جعدا رجلا يترجل غبا [١٧] و إذا مشط شعره يأتى كأنه حبك [١٨] رمل ، وربما جعله عذائر [١٩] أربعا تخرج كل أذن من بين غديرتين ، وربما جعله على أذنيه فتبلغ سوالفه [٢٠] . أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر فكان طويل المسربة [٢١] دقيقها موصول ما بين اللبة [٢٢] والسرة بشعر يجرى كالخط لم يكن على بطنه ولا ظهره شعر غيره .

أحسن الناس خلقا وأجود الناس صدرا وأصدق الناس لهجة وألين الناس عريكة وأكرم الناس عشرة وأطهر الناس طبعا وأشجع الناس قلبا وأسخى الناس كفا . وأطيب الناس نفسا . أعرف الناس بالله . وأخشاهم لله وأكثرهم صياما وقياما ولاسيما فى شهر رمضان حتى تورمت قدماه ، أجود الناس بالخير لا يرد من سأله حاجة إلا بها أو بميسور القول ولا يؤيس منه راجيه ، ولا يخيب فيه ، ولا يأتيه أحد إلا وعده وأنجز له وإن كان عنده أعطاه ، ولا يدخر شيئا لغد ، وما سئل قط فقال لا . لم يكن بالجافى ولا المهين . وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده فى الحق سواء ، وكان يعظم النعمة وإن دقت لا يذم منها شيئا . لا تغضبه الدنيا ولاما كان لها فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شئ حتى ينتصر له . يغضب لربه عز وجل ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه ، وإذا شيئا يكرهه عرف فى وجهه .

---

(١) ينحط : ينزل .
(٢) صبب : مكان مرتفع .
(٣) تكفيا : تتابعا .
(٤) هونا : متمهلا .
(٥) تبختر : تمايلا .
(٦) ذريع : واسع .
(٧) مكترث : مبالى .
(٨) يعيا : يرعف .
(٩) السبلة : الشارب .
(١٠) رجله : ممشطه .
(١١) عقيقته : مقدمة شعر رأسه .
(١٢) الوفرة : شعر الرأس .
(١٣) اللمة : شكل الوجه .
(١٤) الجمة : شعر الرأس .
(١٥) القطط : الشديد الحواجب .
(١٦) سبط : الطريقة .
(١٧) غبا : عاقبه .
(١٨) الحبك : الطريقة .
(١٩) العذائر : النوائب .
(٢٠) السالفة : مقدم العنق .
(٢١) المسربه : الشعر من اللبه للسره .
(٢٢) اللبه المنحر .

كان من أفكه الناس لا يحدث إلا تبسما . قليل الضحك ، جل ضحكه التبسم إذا افتر ضاحكا يفترّ عن مثل سنا البرق إذا تلألأ . وعن مثل حب الغمام . كان بكاؤه من جنس ضحكه لم يكن بتشهيق ورفع صوت كما لم يكن ضحكه بقهقة ، ولكن تدمع عيناه حتى تنهملا فيسمع لصدره أزيز ، يبكى رحمة لميت أو خوفا على أمته أو شفقة أو من خشية الله وعند سماع القرآن وأحيانا فى صلاة الليل . وإذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه وخفض بها صوته وما تثاءب قط وكان يكرهه من غيره . دائم البشر . سهل الخلق . لين الجانب . دائم الفكرة . متواصل الأحزان . طويل السكوت لا يتكلم فى غير حاجة . ويعرض عمن تكلم بغير جميل . ويكنى عن الأمور المستقبحة فى العرف إذا اضطره الكلام إلى ذكرها . ويخزن لسانه إلا فيما يعنيه . إن صمت فعليه الوقار . وإن تكلم سماه وعلاه البهاء . يذكر الله بين كل خطوتين ولا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله تعالى . يفتتح الكلام ويختتمه باسم الله تعالى . حلو المنطق . فى كلامه ترتيل . يتكلم بجوامع الكلم . كلامه فصل لا نزر [١] ولا هذر [٢] . بيّن يحفظه من جلس ويفهمه كل من سمعه . كأنما هو خرزات تضم لا فضول فيه ولا تقصير لو عدّه العاد لأحصاه . لا يذم أحدا ولا يعيبه . ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه . مجلسه مجلس حلم وحياء وأمانة وصبر لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤبن [٣] فيه الحرم . إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير . فإذا سكت تكلموا . لا يتنازعون عنده . حديثهم عنده حديث أولهم إن قال أنصتوا لقوله ، وإن أمر تبادروا لأمره . يضحك مما يضحكون . ويتعجب مما يتعجبون . يعطى كل جليس نصيبه ولا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه . وكان يصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته . من جالسه أو فاوضه فى حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه . لا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهى أو قيام . خافض الطرف جل نظره الملاحظة . نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء . تنام عيناه ولا ينام قلبه . يؤثر أهل الفضل بإذنه وقسمه على قدر فضلهم فى الدين . ويؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كل كريم قوم ويوليه عليهم . وكان يحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره وخلقه . يتغافل عما يشتهى ولا يكاد يواجه أحدا بشئ يكرهه . وما ضرب بيده شيئا قط إلا أنه يجاهد فى سبيل الله ، ولا ضرب امرأة ولا خادما . يتفقد أصحابه ويسأل عما فى الناس ويحسن الحسن ويقويه ويقبح القبيح ويوهيه . أفضل الناس عنده أعمهم نصيحة وأعظم الناس عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة . لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه . لا يقبل الثناء إلا من مكافئ .

(١) نزر : قليل . (٢) هذر : كثير . (٣) يؤبن : يذكر بقبيح .

يزور ضعفاء المسلمين ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم . ما أكل على خوان (١) ولا في سكرجة (٢) . ولا خبز له مرقق . وكان يجيب دعوة المملوك على خبز الشعير . يمر بالصبيان فيسلم عليهم . ولا يُدفع عنه الناس ولا يضربون عنه ولم يكن شخص أحب إليهم منه . وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلموا من كراهته لذلك . وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس .

كلمات من حِكَم رسول الله ﷺ .

أنى تُستقصى الأنفاس الشريفة ، وتحصى الحكم المنيفة (٣) ورسول الله ﷺ من أذعنت لبلاغة حكمه العرب والعجم ، وقصرت عن مقاومته جميع الأمم ، وأقر بالعجز عن منازعته من تأخر وتقدم . وإنما هى كلمات على سبيل البركة والاعتبار ، والله يهدى لنوره من يشاء ﴿ ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾ (٤) .

قال عليه الصلاة والسلام :

« رحم الله عبدا قال فغنم ، أو سكت فسلم(٥) . السعيد من وعظ بغيره والشقى من وعظ بنفسه . صنائع تقى مصارع السوء (٦) . الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف (٧) . جبلت القلوب على حب من أحسن إليها (٨) . التدبير نصف المعيشة (٩) . المسلم من سلم الناس من يده ولسانه (١٠) . الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت (١١) . المرء كثير بإخوانه (١٢) . الدال على الخير كفاعله (١٣) . المؤمن مرآة أخيه (١٤) . حبك الشئ يعمى ويصم (١٥) . من أصبح منكم معافى فى بدنه آمنا فى سربه (١٦) عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها (١٧) ، (١٨) . إن الرزق

---

(١) الخوان : ما يؤكل عليه .
(٢) سكرجه : .....
(٣) المنيفة : العالية .
(٤) البقرة : ٢٦٥ .
(٥) رواه المبارك عن خالد بن عمران مرسلا كما فى الجامع الصغير .
(٦) رواه الحاكم .
(٧) البخارى ومسلم وغيرهما .
(٨) ابن على والبيهقى وأبو نعيم الجامع الصغير صحيح .
(٩) رواه الديلمى عن أنس حسنه السيوطى .
(١٠) رواه أحمد والترمذى والنسائى وغيرهم وهو صحيح .
(١١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجة صحيح .
(١٢) رواه أبى الدنيا بسند ضعيف .
(١٣) رواه الطبرانى والسيوطى .
(١٤) رواه الطبرانى بلفظ المؤمن مرآة المؤمن وحسنه السيوطى .
(١٥) رواه أحمد والبخارى وأبو داود وحسنه السيوطى .
(١٦) رواه البخارى فى الأدب والترمذى وابن ماجه وحسنه السيوطى .
(١٧) حذافيرها : جميعها .
(١٨) رواه البخارى فى الأدب والترمذى وابن ماجة .

ليطلب العبد كما يطلبه أجله [١] . اتقوا فراسة [٢] المؤمن فإنه ينظر بنور اللّه [٣] . اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك [٤] . ما خاب من استخار ولا ندم من استشار [٥] . ما عال من اقتصد [٦] . لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين [٧] . إياك وما يعتذر منه [٨] . أفشوا السلام وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام . حفت الجنة بالمكاره [٩] . مطل [١٠] الغنى ظلم [١١] . البر حسن الخلق [١٢] . من تواضع للّه رفعه [١٣] . من أبطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه [١٤] . طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس [١٥] . طوبى لمن أنفق من مال اكتسبه من غير معصية . لا إيمان لمن لا أمانة له ولادين لمن لا عهد له [١٦] . إياكم والدّين فإنه هم بالليل ومذلة بالنهار [١٧] . الوحدة خير من الجليس السوء [١٨] . لا يمنعن أحدكم مهابة الناس أن يقول الحق إذا علمه . لو توكلتم على اللّه حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا [١٩] وترجع بطانا [٢٠] ، [٢١] . إن المعونة تأتى العبد من الله على قدر المئونة [٢٢] والصبر على قدر المصيبة [٢٣] إن اللّه ينهاكم عن قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال . ما مثلكم ومثل الدنيا إلا كراكب قال تحت شجرة ثم راح وتركها . ليس من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت . إن هذا الدين أيسره ، وخير العبادة أخفها [٢٤] . إن اللّه يحب الرفق فى الأمر كله . أحب الأعمال إلى اللّه أدومها وإن قل [٢٥] . كفى بالمرء سعادة أن يوثق به فى أمر دنياه ودينه [٢٦] . لا تزال هذه الأمة بخير ما إذا قالت صدقت وإذا حكمت عدلت وإذا

---

(١) رواه الطبرانى وابن عدى وحسنه السيوطى .
(٢) الفراسة : الظن الصائب .
(٣) رواه البخارى فى التاريخ والترمذى وغيرهما .
(٤) رواه الحاكم والبيهقى وأحمد وإسناده حسن .
(٥) حديث حسن رواه الطبرانى .
(٦) حديث حسن ورواه أحمد .
(٧) رواه أحمد والشيخان وغيرهما .
(٨) رواه الضياء المقدس .
(٩) رواه أحمد ومسلم والترمذى .
(١٠) المطل : التسويف .
(١١) متفق عليه .
(١٢) رواه البخارى فى الأدب ومسلم والترمذى .
(١٣) رواه أبو نعيم حديث حسن .
(١٤) رواه مسلم وأبو داود وغيرهما .
(١٥) رواه الديلمى حديث حسن .
(١٦) رواه أحمد وابن حبان بسند صحيح .
(١٧) رواه البيهقى حديث ضعيف .
(١٨) رواه الحاكم والبيهقى وصححه السيوطى .
(١٩) الخماص : شدة الجوع .
(٢٠) البطان : المشبع .
(٢١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجة والحاكم بسند صحيح .
(٢٢) المئونة : المشقة .
(٢٣) رواه الترمذى والحاكم والبزار والبيهقى .
(٢٤) رواه أحمد .
(٢٥) متفق عليه .
(٢٦) ضعيف رواه البخارى .

استرحمت رحمت . الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه (١) . المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله (٢) . شر الأمور محدثاتها (٣) . اليد العليا خير من اليد السفلى (٤) . ما قل وكفى خير مما كثر وألهى (٥) . ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس (٦) . سباب المؤمن فسوق (٧) . خير العمل ما نفع . نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ (٨) . أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة . السلطان ظل الله في أرضه يأوى إليه كل مظلوم (٩) . السعادة طول العمر في طاعة الله (١٠) . خصلتان لا تكونان في منافق : حسن سمت (١١) ، وفقه في الدين . الرجل في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس . العلماء أمناء الله على خلقه (١٢) . المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا (١٣) . لكل شئ عماد وعماد الدين الفقه . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه (١٤) . الويل كل الويل لمن ترك عياله بخير ، وقدم على ربه بشر (١٥) . من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن (١٦) . دع ما يريبك إلى ما لا يريبك (١٧) . التمسوا الرزق في خبايا الأرض (١٨) . اطلبوا الفضل عند الرحماء من أمتي تعيشوا في أكنافهم (١٩) . اتقوا دعوة المظلوم (٢٠) . لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه أبدا وما أخطأه لم يكن ليصيبه أبدا . رب مبلغ أوعى من سامع (٢١) . من أودع معروفا فليفشه فإن نشره فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره . من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدّثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوّته ، أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون الصلاة (٢٢) .

---

(١) رواه مسلم وأبو داود وغيرهما .
(٢) رواه الترمذى وابن حبان .
(٣) رواه أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح .
(٤) رواه احمد والطبراني وصححه السيوطي .
(٥) رواه أبو يعلى والضياء المقدس وصححه السيوطي .
(٦) رواه أحمد والشيخان وغيرهما .
(٧) رواه أحمد والشيخان وغيرهما .
(٨) رواه البخارى والترمذى وابن ماجه .
(٩) السمت : المظهر .
(١٠) رواه البخارى وحسنه السيوطي .
(١١) صحيح رواه الترمذى .
(١٢) حديث حسن رواه وابن عساكر .
(١٣) رواه الشيخان والترمذى والنسائى .
(١٤) رواه أبو داود وصححه السيوطي .
(١٥) رواه الديلمي في مسند الفردوس وحسنه السيوطي .
(١٦) حسن رواه الطبراني .
(١٧) رواه النسائى والترمذى وقال حسن صحيح .
(١٨) بن عوانه والبيهقى بحفظ اطلبوا بدل التمسوا .
(١٩) ضعيف رواه الخرائض .
(٢٠) رواه أحمد وابن عوانه والضياء المقدس وهو صحيح .
(٢١) رواه الترمذى وقال حسن صحيح .
(٢٢) ضعيف رواه الحاكم والترمذى بلفظ يرفع بدل تفقدون .

تأثير دعوته ﷺ

لا يكذب القائل إذا قال : إن الفوضى فى العقول والشرائع والعادات وكل شئ تستقيم به التكاليف قبل بعثته ﷺ كانت عامة . وقد وصل الغالون من كل ملة فى أنواع الظلم إلى حد قليل أن يسمى بالشقاء والفساد ، واستولى الاضطراب على المدارك ، وثارت الشبهات على العقائد فقلبت وضعها وعكست طبعها . فالعرب كانت مفرطة فى عبادة الأوثان والحجارة والمنافسة فى الموءودة والسائبة (١) ، والتفاخر فى إراقة الدماء وتقطيع الأرحام . ودولتا الفرس والرومان كانتا متظاهرتين بكل ما فيه نهك القوى وهلاك الأموال وظلم الأمم المجاورة فضلا عن الترف والسرف الذى بلغ ووصل أقصى درجات الإفراط . فمهما نظرت رأيت بغيا وحسدا ، وقطعا للأرحام وتنافسا فى الردى ، وإعراضا عن ذكر الله ، وسلطان القوى منحصر فى سلب ما بيد الضعفاء حتى ضاعت عقيدة الأمن على الأرواح والأموال والأعراض وأصبحت الكرة الأرضية كأنها دار حرب ، والنفوس كلها مشرئبة (٢) إلى الأذى والضرر فلا تستأنس رشدا ولا خيرا من أحد أبدا ﴿ **نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون** ﴾ (٣) .

أى علاج لرفع هذه الغمم عن الأمم وأنجع (٤) من بعثة رسول الله ﷺ الذى لم تمض عليه عشرون سنة بين دعوته وهجرته ومناظراته وغزواته حتى ظهرت الفائدة فى العمل ، وقام العدل وانتظم شمل الجماعة بالأمر بالمعروف . وصرف الله القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء ، وخلقوا خلقا جديدا نسوا فيه العداوة والعدوان ، ثم لم تمض عشرون سنة أخرى حتى أصبحت الأمة العربية بديعة النظام ، شديدة البنيان ، نامية فيها أفنان (٥) العزة ، مستحكمة فيها أصول القدرة ، مستعلية آدابها ، سائدة أخلاقها ، مستحسنة عادتها صاف منهلها مستقيم منهجها (٦) لذيذ موردها غزير منبعها معروفة شرعتها ، مهندم بناؤها متمم منظومها متحد هواؤها وأهواؤها . وقد اتجهت لكل شئ يحفظ وجدها . ويجمع كلمتها وينهض همم آحادها حتى تنبهت وتقوت ، وسادت وامتنعت ، وأشرفت على رءوس الأمم وتجلت عليهم .

---

(١) السائبة : الناقة المسيبة النذير . (٢) مشرئبة : متطاولة . (٣) الحشر : ١٩ .

(٤) أنجع : أنفع . (٥) أفنان : أنواع . (٦) منهلها : موردها .

بماذا تم لها ذلك ؟

تم لها بالدين القويم الأصول ، المحكم القواعد ، الشامل لأنواع الحكم ، الباعث على الألفة ، الداعي للمحبة ، المزكي للنفوس ، المطهر للقلوب ، الهادي للعقول بنورالحق ، الكافل للكل ما يحتاج إليه الإنسان المشيد لمباني العمران . الحافظ لوجود المعتنق له من آفات البهتان . المزيل للوحشة ، الجامع للصيانة . الحافظ للاستقلال ، المهذب للأخلاق ، المحرك بمواعظه غيرة القلوب ، الآمر ببيع الأرواح في حفظ شرف الأمة والملة .

أتى على الأمة العربية فوحدها وقواها ، وهذبها وهداها ، وأنار عقولها وزكاها ، وقوَّم أخلاقها وسدد أحكامها فسادت العالم أجمع وساست دولة بسياسة العدل والإنصاف . وليس ذلك ببعيد على دين أعدته الحكمة الإلهية خاتمة الأديان لنوع الإنسان ينتهي به إلى غاية المدنية ، ويصل إلى أقصى مراقي الآداب .

جاء هذا الدين بصور من العبادات وضروب من الاحتفالات تفقّه الألباب وتنير العقول وتكسو الإنسان حلة الإنسانية مع ظهور الحجة واستقامة المحجة [١] على أنها من عماد السعادة ومصلحة البشر .

طالب هذا الدين كل قادر بالعمل ، وأنه لا يليق بنفس بشرية أن تظهر في الوجود وقد عميت عن طرق الاهتداء وطمست عن أعينها معالم الهداية فهي كلّ لا تعمل الخير ولا تعين عليه .

قال تعالى : ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى** ﴾ [٢] فأصبح للإنسان بالدين قوة تدعوه للدأب على العمل حتى يبلغ الغاية من عمله ، فرفع الدين بهذا عن النفوس الجبن والخمول والكسل والعالة ، وبيّن ما فيها من العار والشنار [٣] والضعف الذي لا يليق بالإنسانية أبدًا .

نزلت في الكتاب الكريم آيات تأمر الإنسان بالسير والحركة وتدعوه للنظر في آثار من تقدمه ، وقد نصبها الله منصب العظة والاعتبار ، وأقامها مقام الدليل على عمل أصحابها من خير أو شر ، فجدد في النفوس قوة للتنافس بالأعمال ، واتباع أحسن في اقتناء الفضيلة بالجد والاجتهاد لا يقعدها عنها المسالك الحزنة ولا المعابر الوعرة .

---

(١) المحجه : الدليل .　　(٢) النجم : ٤١　　(٣) الشنار : العيب .

قال تعالى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ [1] فدل هذا على أن لا فضل لأحد على أحد إلا بتقوى الله ، وأن الإنسان كلما استغرق فى بحار العبودية لخالقه وعرف أن إلهه إله كل شئ ، القادر على كل شئ ، المحيط بما فى نفسه ، وقام بما خلق لأجله من أعمال الهداية التي نصبها الله سبيلا للنجاة فلا سلطان لأحد عليه إلا بحق لأنه بهذا التوحيد أصبح عبداً لله خاصة ، حرا من العبودية لكل ماسواه ، له ما للحر على الحر .

عرف الإنسان من هذا بالبرهان القطعى أن مسيئة الرؤساء التى كانت تُستعبد الأمم فى مرضاتها ، والروح الخبيثة التى كانت تلامسهم فيدعون الشرائع الإلهية ناحية ويطمحون إلى الشهوات ويدخلون فى كل أمر لهم فيه رغبة بلا روية ولا استبصار لا ينبغى الرضوخ لها ، ولا التسامح فيها . وأنه يجب على الإنسان أن يتقدم لبنى جلدته بالنصيحة حتى تتأبى عنها . فقد قال تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾ [2] .

كشف الإسلام عن العقول غمة الوهم ، ورفع الامتياز بين أفراده إلا بعلم أوعمل قال تعالى : ﴿ **هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون** ﴾ [3] وقرر لك طبقة من طبقات العلوم شرفا مخصوصا ، ودعا لها جميعا حتى دعا الناس إلى النظر فى النجوم بعد البحث فى هذه الرسوم ،وذم الجهل والقصور عن إدراك ما جاءت به الشرائع من الحكم ، وضرب له الأمثال فقال تعالى حكاية عن المتلبس به : ﴿ **كمثل الحمار يحمل أسفارا** ﴾ [4] ففتح بذلك باب السعادة للإنسان بطهارة العقل من دنس الوهم وخلاص العمل من وساوس الطغام [5] .

جمع القلوب على الألفة والمحبة بفريضة الزكاة التى افترضها : تؤخذ من أغنيائهم لفقرائهم فاستلت الضغائن والأحقاد التى فى القلوب ، وأصبحت الأمة الإسلامية إخوانا .

لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت .

أدب النفوس بالصوم وأذاق الأمير البؤس ليعلم ويحس حال أخيه الفقير الجائع فلا ينساه من الموهبة التى وهبها الله له ، ولا يخليه من إحسان حتى يكون الغنى المحسن الشاكر ، كما أن ذاك هو الفقير الصابر .

---

(١) الحجرات : ١٣ . (٢) آل عمران : ١٠٤ (٣) النساء : ٩٥.
(٤) الجمعة : ٥ . (٥) الطغام : أوغاد الناس .

هذه قطرة من بحر الشريعة الغراء تكفينا لتقرير الكلام عليها فى هذه العجالة فنبين إلى أى مرتبة يصل الإنسان المتصف بهذه الأخلاق : حر فى نفسه ، معان من إخوانه ، عالم بأن الله واحد لا إله إلا هو ، متحقق أن لا وصول للسعادة إلا بالعمل ، وأن لا عمل إلا ما كان فيه رضا الله . أتراه يصبح ويمسى جاهلا بعد هذا التعليم ، وتصيبه الغواية مع هذا الإرشاد ، ويتلبس بالمنكر بعد هذا الأمر بالمعروف ؟ أم تراه يرقى بشرف هذا الاستعداد حتى يبلغ درجات الكمال التى أعدها الله وسجلها لكل من اتبع نور هذا القبس واستضاء به .

ظهر الدين الإسلامى وبقية الملل قد مزقتها المشارب ، وفرقتها المذاهب فكان سببا لهداية الخلق أجمع ، وأصبح الناس كلهم أمامه بين رجلين : إما داخل فيه طوعا وإما مقلد له استكبارا وكذلك معنى قوله تعالى : ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ [1] .

فالدين الإسلامى منشأ كل علم وباب كل سعادة ومفتاح كل استقلال للرأى والفكر والإرادة ، وبه تكمل الإنسانية وتستعد لأن تبلغ ما هيأه لها الله من حسنات الآخرة .

اتفق أهل الدنيا على أن دين الإسلام رفع كل الأثقال عن بنى الإنسان وأحسن إليهم المعاملة حتى ترامت عليه أهل الملل الأخرى يبتغون فضلا من أهله ، فوجدوا فيه العدل والإنصاف والمساواة والإخاء حتى فى التقاضى مع المسلمين بين يدى قضاة المسلمين فاستكثروا بالدخول فيه حتى أثر دخولهم فى واردات الجزية ، واستخدم الخلفاء من بنى أمية وغيرهم من وجدوا فيه المهارة من غير المسلمين كالكتبة والعمال ، وصعدوا بهم إلى أعلى المناصب وأسماها ، والإسلام يظلهم بظلاله وهم يبذلون فى خدمته أنفسهم .

انتقل إلى أوروبة من طريق الأندلس (أسبانيا) فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . وأتت على آخرة حملة الغرب على الشرق وتداخلهم فيه وفى أحواله أكثر من مائتى سنة ، وانتهت تلك الحروب الجارفة بعودتهم لبلادهم بخفى [2] حنين ، أستغفر الله بل عادوا خاسرين فى حربهم ، مستفيدين فى علمهم ، حافظين لكل التقاليد الدينية . وقد عرفوا من أين غلبوا وأدركوا من أين أخذوا .

كان أهل أوروبة غافلين عن قائدهم ، لاهين عن مرشدهم فجاءهم ما أرادوا عن قرب فنهضوا لقطع سلاسل الذل التى لبسوها من أيدى ملوكهم المغرورين ، ونقضوا

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .　　(٢) بخفى حنين : بلا فائدة تذكر .

العزائم التى قيدهم بها زعماء الدين . ورأوا أن اختصاصهم بهذه الفضائل وعدم مشاركتهم فيها أفضل ، فدأبوا على العمل بها ووجهوا همتهم لسلخها عن أهلها ، فما زالت تلك النهضات تنمو عندهم حتى مزقت حجب الجهل ، وما زالت عاداتهم تنتقل إلينا ونستعيضها بما عندنا حتى أبادت ذلك العلم ، وانتهى الأمر بأن أضاء الغرب ذلك القبس ، وأصبح أهله فى ظلمات لا يبصرون .

لم يكتف المسلم بأن يستعين بالغربى فى معرفة سير النجوم والكواكب ومعرفة الفصول والمواسم المأمور هو بالنظر إليها من قبل ذلك بعدة أجيال بل أصبح عيالا عليه يستعين به فى أقل القليل من أموره المعايشة .

فقد المسلمون لطائف شرف الاستقلال ودينهم مانحها ، وشدوا على أيديهم الأغلال ودينهم قاطعها ، واسترقوا وهم السبب فى تحرير الرقاب ، ، وخانوا وهم الذين حفظوا العهد والوفاء فى كل باب ، فاض بينهم الغدر والزور ، ودينهم يحرم الخديعة ويخرج الغاش من أهله . ما بالهم لا يتناصحون ولا يعتصمون وقد عادوا لما كانت عليه الأمم الأولى : الأغنياء يسلبون أهل البأساء ، والأبناء يقتلون الآباء ، والبنات يعققن الأمهات .

كادهم أهل الغرب كيدا بلغ سكينه العظم : أخرجوهم عن مواطنهم ، وأبعدوهم عن مشاعرهم ، وأزاحوهم عن مواقفهم ، وأصبحوا على حال من السذاجة لا يفرقون بين ما يضر وما ينفع ، يقولون وهم لا يستحون : إن دين الإسلام من العوادى عليهم ، والسبب الأول فى تقهقرهم . قد كذبوا وافتروا وهم من العماءة بمكان لا يفرقون به بين عزهم أمس وذلهم اليوم ، ولا يدركون أين كانوا وإلى أين صاروا .

سيئنون غدا حيث لا ينفع الأنين ويبكون ولا يجدى البكاء ؛ لأن البلاء الذى نزل جرته الذنوب . والله كما يثيب على طاعته يعاقب على عصيانه ﴿ **ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾ [1] .

اللهم إنا نسألك طهارة فى العقول ، وإخلاصا فى العمل من العوج والرياء ، وهداية بالعلم والأعلام ، ورجوعا لآداب الدين التى فارقناها إنك على كل شئ قدير .

---

(١) الفتح : ٢٣ .

سيرة سيدنا أبى بكر
خليفة رسول الله ﷺ

هو سيدنا عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر التيمى القرشى يجتمع مع رسول الله ﷺ فى مرة بن كعب . وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة .

ولد رضى الله عنه لسنتين وأشهر من ميلاد رسول الله ﷺ وشب على الأخلاق الفاضلة والسيرة الكريمة وكان أعف الناس فى الجاهلية ومقدّما فى قريش ومن أهل مشاورتهم ومحببا فيهم وكان أعلم أهل زمانه بالأنساب حتى كانت العرب تدعوه عالم قريش ، وتهابه لحرمته وكرمه وفضله ؛ فقد كان ذا مال جزيل فى قومه ومروءة تامة وإحسان وتفضيل فيهم . يصل الرحم . ويصدق الحديث . ويكسب المعدوم . ويعين على نوائب الدهر . ويقرى الضيف . وكانت له صحبة برسول الله ﷺ فلما شرفه الله بالنبوة كان أبو بكر أول رجل أجاب دعوة الإسلام من غير كبوة فأجمعت الأمة علي تسميته بالصديق لأنه بادر لتصديق الرسول ولازم الصدق فلم تقع منه هناة [1] ما ولا وقفة فى حال من الأحوال . ثم قام بدعوة إخوانه ، ولأنه كان محببا سهلا كانت رجالات قريش تألفه ، فأسلم بإسلامه كثير وأجاب دعوته مثل سيدنا عثمان بن عفان والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وغيرهم من صناديد الإسلام . واشترى من أسلم من العبيد وأعتقهم فى سبيل الله فكانت يده الطولى مبسوطة بالفضل على السادات والموالى .

حاز شرف الصحبة بنص القرآن الكريم : ﴿ **إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا** ﴾ [2] ومن حين أسلم إلى حين توفى لم يفارقه سفرا ولا حضرا إلا فيما أذن له ﷺ فى الخروج فيه ، وشهد المشاهد كلها ، وحمل الراية العظمى فى آخر غزواته ، وحج بالمسلمين ، وصلى بالناس فى مرضه عليه الصلاة والسلام ، وكل باب فى المسجد سد إلا باب أبي بكر .

قد امتحنه الله بأشد ما يمكن به الامتحان ، فله فى الإسلام المواقف الرفيعة العالية :

(١) هناة : هفوة .
(٢) التوبة : ٤٠ .

ثباته في قصة الإسراء وجوابه للكفار ، وكونه موضع سر رسول الله ﷺ عند هجرته ، وصاحبه في الغار عند تحجبه ، ومسايره في الطريق عند سيره ، وقد نصب نفسه للخاصة والعامة والموالي والمعادي وترك عياله وأطفاله بين يدي الأعداء ، وكلامه يوم بدر ، ويوم الحديبية حين اشتبه على غيره الأمر في دخول مكة ، وما كان من الثبات عند المصيبة العظمى التي خرست عندها فصاحة فحول الرجال يوم مات النبي ﷺ ، واهتمامه في بعث جيش أسامة ، وقيامه في قتال أهل الردة وقد طمع أهل الشرك في الإسلام كما سيأتيك تفصيله وما زال يحج الصحابة بالدلائل حتى شرح الله صدورهم كما شرح صدره ورزقه تمام النعمة وصلاح الدين والدنيا ، فالفضل وإن كان مقسوما بينه وبين أصحاب النبي ﷺ ولكنه أكثرهم أسبابا في اقتنائه وأشدهم صوابا في معرفة طرق اكتسابه .

ولي الخلافة لما لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى في ١٣ من شهر ربيع الأول من سنة إحدى عشرة . وأول من بايعه عمر بن الخطاب وتبعه الرأي الغالب من جلة أصحاب رسول الله ﷺ (١) لأنه أفضل هذه الأمة وأولاها بالإمامة لفضيلته وخاصة منزلته وشدة استحقاقه من إسلامه على الوجه الذي لم يسلم عليه أحد من عالمه وفي عصره على حسب صحة الأحاديث والأسانيد في تقديم أبي بكر ، لأن رجالها أعم وخيرهم أكثر وإسنادهم أصح وقد صنع أبو بكر ما صنع في ماله وكان المال أربعين ألفا من الدنانير فأنفقه على نوائب الإسلام وحقوقه (٢) ، ولم يكن ماله ميراثا ، بل هو ثمرة كد وكسب جولان وتعرض لحكم الليالي والأيام ، ثم هو ثقيل الظهر بالنسل ذو بنين وبنات وزوج وخدم وحشم يعول أبويه وما ولدا ، ولم يكن فتى حدثا تهزه أريحية (٣) الشباب وغرارة (٤) الحداثة . والأعجب أنه لم يكن له بإزاء هذا الإنفاق وحذاء هذا العطاء رغبة تدعو أو طمع يحدو لأن النبي ﷺ لم يكن بلغ من رهطه ولا من قومه قوة تصد عنه أذى المشركين من قريش فيطمع في جاهه ، بل هم على ما علمت من السطوة والقدرة ثم لم يكن له على أبي بكر يد قبل ذلك مشهورة فيخاف العار في ترك مواساته عليها .

قضي الأمر ببيعته فصعد المنبر وقال : أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن صدفت فقوموني . الصدق أمانة والكذب خيانة . والضعيف فيكم

---

(١) رواها أحمد وغيره .

(٢) رواها أصحاب السير كابن هشام وغيره .

(٣) أريحية : سعة الخلق .

(٤) غرارة : جهالة .

قوى عندى حتى آخذ له حقه والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ـ إن شاء الله ـ لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل . أطيعونى ما أطعت الله وسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله (١) .

قام سيدنا أبو بكر رضى الله عنه بالإمامة من حراسة الدين وكفاية الأمة وصيانة الشرع الشريف فلم ينحرف عن شئ يمنة ولا يسرة وسار وكتاب الله يقوده وسنة رسوله تحوطه .

أعماله رضى الله عنه

بدأ بتسيير جيش أسامة بن زيد (٢) الذى كان جهزه النبى ﷺ ولم يثنه (٣) عن ذلك ما حصل من الاضطرابات فى بلاد العرب على أثر وفاة رسول الله ﷺ وشيع الجيش ماشيا وأسامة راكب ، فقال أسامة : لتركبن أو لأنزلن فقال : والله لا نزلت ولا ركبت ، وما علىّ أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله ، ثم أوصاه وأصحابه فقال : لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا (٤) ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تقعروا (٥) نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا للأكل ، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم فى الصوامع (٦) فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وإذا لقيتم قوما فحصوا (٧) أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاضربوا بالسيف ما فحصوا عنه ، فإذا قرب عليكم الطعام فاذكروا اسم الله . يا أسامه اصنع ما أمرك نبى الله ببلاد قضاعة ثم أنت آفل (٨) ولا تقصر من أمر رسول الله ﷺ ثم ودعه فذهب أسامة وغاب أربعين يوما ثم رجع المدينة ظافرا غانما كما سيأتى ونفع الله جماعة المسلمين بهدا الجيش نفعا عظيما ، لأنه فت (٩) فى عضد المنافقين وعلمت العرب أن المسلمين لو لم يكن بهم قوة ما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا بيتوا فعله من الأذى .

نعم رد البلايا الكثيرة عن جماعة المسلمين : فقد منى الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ

---

(١) رواه أحمد . (٢) رواه ابن كثير فى البداية والنهاية عن سيف بن عمر التميمى .
(٣) يثنه : يمنعه . (٤) يمثلوا : يشوهوا . (٥) يقعروا : يقلعوا .
(٦) الصوامع : معابد النصارى . (٧) فحصوا : حلقوا الوسط . (٨) آفل : غاب .
(٩) فت : قطع كناية عن الضعف .

بالمصيبة العظمى مصيبة الردة التى لو لم تتداركها حكمة أبى بكر رضى الله عنه لتشتت شمل المسلمين وأصبحوا شذر مذر [1] .

ما لبثت العرب بعد علمها بموت رسول الله ﷺ حتى ارتدت إلا قريشا بمكة وثقيفا بالطائف وأصبحت الناس على قسمين : تارك للدين كأتباع مسيلمة وأهل اليمن وهم الذين اتبعوا الأسود العنسى ، ومعطل لبعض أركانه كالزكاة وهم أتباع مالك بن نويرة .

شمر رضى الله عنه عن ساعده غير مبال بهذه الأهوال الجسام ولا هاب لها مع قلة الجيش وكثرة العدد بل مع قلة المسلمين وكونهم كالغنم فى الليلة الممطرة بقلتهم وكثرة عدوهم وإظلام الجو عليهم بفقد نبيهم ﷺ وهكذا الواثق بوعده سبحانه وتعالى : ﴿ **إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾ [2] وقام معتمدا على ربه مستسهلا المصاعب فكلل الله سبحانه وتعالى أعماله بالنجاح .

عاجلته عبس وذبيان مع جماعة من بنى أسد وكنانة ، وجاء مانعو الزكاة وأطمعوا الناس فى المدينة لقلة من فيها ، فأعان الله المسلمين فلم تطلع الشمس عليهم حتى ولت الأعداء الأدبار ، ثم جاء أسامة فاستخلفه على المدينة وقاتل المرتدين وهزمهم وكان قد استراح جيش أسامة وثاب من حول المدينة فعقد أحد عشر لواء قائدا وسير الجيوش لقتال أهل الردة فجبر الإسلام بعدما كسر وفض حدتهم وفرق كلمتهم وكسر شوكتهم والحمد لله [3] .

خص كل قائد بناحية لقتال من فيها من أهل الردة فـ (١) سيف الله خالد بن الوليد لطلحة بن خويلد الأسدى ومالك بن نويرة و (٢) عكرمة بن أبى جهل إلى مسيلمة باليمامة و (٣) شرحبيل بن حسنة لأهل اليمامة و (٤) أبو أمية إلى جنود العنسى هم قوم من الفرس سكنوا اليمن و(٥)حذيفة بن محصن إلى أهل دبا و (٦) عرفجة بن هرثمة إلى أهل مهرة و (٧) سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن و (٨) العلاء بن الحضرمى إلى البحرين و (٩) طريفة بن حاجز إلى بنى سليم وهوازن و (١٠) عمرو بن العاص إلى قضاعة و(١١) خالد بن سعيد إلى مشارف الشام . وزود كل قائد بما شاء أن يزوده من الإرشاد .

---

(١) شذر مذر : متفرقين . (٢) محمد : ٧ .

(٣) رواها أصحاب السنن وفصلهاابن كثير فى البداية والنهاية .

أحد عشر بابا من أبواب الفتنة فتحت فى آن واحد وجرح رسول الله ﷺ لم يندمل بعد والأمر فى سره وجهره محتاج إلى المجاهدة الحقة والقائم لابد له أن يدأب بالاستعانة بالمعروف مع من أجاب الدعوة واستمر على الإقرار ويقاتل من رفضها ولازم الإنكار وأصحاب العجلة والفساد من العرب حشو الإسلام والمسلمين وقد ارتفعت الأمانة فالكل عيون على الكل من قبل الأعداء .

هذا الموقف من أشد المواقف الحرجة التى ليس لها إلا عزم سيدنا أبى بكر رضى الله عنه يذكى سراج هدى نبيه ﷺ بنور الحق الساطع ويدعو الناس إليه بعد ما لفتهم داعى الشيطان وأدبروا عن الهدى وأصبحوا بعد إيمانهم كفارا .

اجتمع المشركون واجتمع المسلمون ونازل كل قائد خصمه وما زالوا بهم حتى هزم الله أعداءه على يد أوليائه كما بينه أصحاب السير فى كلام طويل ولم يهمه منهم مع كثرة المقاتلة ولم يغلبوا على قلتهم ولم يخذلوا على ضعفهم لأنهم بعيدون عن الهوى غير حائدين عن الصراط السوى .

لينظر الإنسان نظرة غير ذى هوى فيرى أبا بكر رضى الله عنه ومن معه من المسلمين كالشعرة البيضاء فى الثورة الأدهم [1] والعرب كلهم أعداء له ولمن معه ثم ليتأمل فعله من إعزاز دين الله وقتال من كفر بالله ولا سلاح معه أشد من الوثوق بوعد الله : ﴿ **إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾ [2] فجازاه الله بتحقيق قوله هذا ومنحه النصر المبين والفتح العظيم ودانت له أمم العرب واجتمعت كلمتها بعد تفرقها وألف له القلوب بعد تشتتها وتوجهت همة الجميع لتحقيق قوله تعالى : ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله** ﴾ [3] .

فتوحه رضى الله عنه

كانت بلاد العرب مجاورة لأكبر ممالك الدنيا حين ذاك : مملكة الفرس فى الشرق ومملكة الروم فى الشمال . ولا حاجة لتكرار الكلام فى شرح ما كان يعتقده ملوك هاتين المملكتين فى نفوسهم من العظمة بعد ما قرأ القارئ فى سيرة النبى ﷺ أن كسرى أبرويز مزق كتاب رسول الله ﷺ استكبارًا واستعظاما من قراءته . فما بعد هذا دليل على مقدار الجبروت والكبرياء اللذين كان من فضل تعميم عدل الإسلام ومساواته بين الأمم الأخرى

(١) الأدهم : الأسود .   (٢) محمد : ٧ .   (٣) الصف : ٩ .

هدمهما بالمرة . وقد كانت الحال من جهة الفرس إلى أن توفى رسول الله ﷺ أن جيوش العرب فتحت اليمن وضمت إليه البحرين وعمان والكل مما هوتحت حماية الفرس وقتذاك .

وكانت من جهة مملكة الروم مقصورة على كتابة كتاب إلى هرقل ملك الروم وتجهيز جيش فى السنة الثانية من الهجرة ورضا بعض عمال هرقل بالجزية .

انتدب أبو بكر رضى الله عنه سيف الله خالد بن الوليد ليضع أساس الدين القويم بالبلاد الفارسية وذلك فى بدء المحرَّم من السنة الثانية عشرة أن يبدأ (بالأُبُلَّة) . وانتدب عياض بن غنم وأمره أن يبدأ (بالمُضَيَّح) وأمدها بما شاء الله أن يمدهما به وأوصاهما ألا يستعينان بأحد ممن ارتدا على غزو أبدا .

سار خالد بن الوليد ورتب جيشه ثلاث فرق وقصد ثغر (الحَفِير) .

وكان صاحبه من عظماء الفرس اسمه « هرمز » تبغضه العرب وتنقم عليه لكثرة غزواته فيهم فسبق المسلمين على الماء ونزل خالد على غير ماء . ثم تلاقيا وسط الصف فاحتضنه خالد وقتله وحمل جيش المسلمين وانهزم المشركون واقتسمت الغنائم وأُرسلت البشائر وخمس الغنيمة إلى أبى بكر .

اتصل خبر هذه الهزيمة بملك الفرس (أزدشير) ومقامه (بالمدائن) فأرسل إلى المسلمين جيشا آخر يقوده عظيم من عظمائهم فجمع المنهزمين من الفرس وسار بهم وبجيشه حتى وصل نهر (الثِّنى) فالتقى الجيشان هناك فقتل قائد الفرس وحمل جمع المسلمين على جمع المشركين فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وغرق الكثير منهم فى النهر وأخذت الجزية من الفلاحين وصاروا ذمة وأرسلت بشرى الفتح وخمس الغنائم إلى أبى بكر .

اتصل خبر هذه الهزيمة أيضا بملك الفرس فأخذ من عزمه ومن صبره ما أخذ وأحال ذلك الجبروت والاستكبار إلى حال آخر صيره ينظر فى أمره ولفته إلى تلك الطامة المقبلة عليه فسير جيشا يقوده عظيم وفي أثره آخر يقوده أعظم منه ولكن كل هذا لم يغن شيئا ولم تلتق جنود خالد بن الوليد بجند الجيش الأول حتى مات القائد فى هزيمته وأصاب خالد أبناء من (بكر بن وائل) وقتلهم فكتب نصارى بكر لملك الفرس بما كتبوا ، فأمر الجيش الثانى أن يلحق جماعة المسلمين ويدرك بقية الجيش المنهزم ولكن القائد سير أمامه

ذلك الجيش برياسة غيره وسار هو إلى أزدشير فوجد أخبار الهزيمة وصلته فأعلته وأصبح فى مرض عضال .

ثم حصلت واقعة (أُليس) وثبت فيها الأعاجم لتوقعهم المدد وثبت المسلمون لتيقنهم النصر من الله .

وبعيد ما بين طالب رفه   من زمان ومن يحاول ذخرا

فجعل الله كلمته هى العليا ولم تمض ضحوة النهار حتى ولى الفرس الأدبار بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة وسار خالد بن الوليد قاصدا الحيرة فى سفن فى بحر الفرات فخرج إليه (مرزبان) [1] الحيرة وأرسل ماء الفرات فى الجداول والترع المتفرعة منه حتى انخفض منسوب النهر ووقفت سفن المسلمين على اليبس فسار خالد بالخيل وحاصر القصور وشدّد حتى خرجت القسس من ديورها تصبح بأهل القصور وتطلب منهم الصلح فصالحهم على الجزية فدفعوها وأهدوا إليه هدايا على عادتهم مع ملوك الفرس فأرسل خالد بالفتح والهدايا إلى أبى بكر فقبلها وعدها من الجزية وأمر خالدا أن يعدها منها .

فلما رأى حكام ما بعد « الحيرة » فعل خالد صالحوه على الجزية . وأخذ فى مكاتبة ملوك الفرس وسارا إلى مدينة الأنبار فطلب صاحبها شيرزاد فصالحه .

ثم سار سيدنا خالد وافتتح عين التمر عنوة ثم سار عنها قاصدا دومة الجندل وافتتحها عنوة أيضا .

أثار هذا من حمية العرب الذين تحت حكم الأكاسرة بهذه الجهات من عهد عظيم بسبب من قتل من العرب إخوانهم بعين التمر ودومة الجندل ، فطلبوا من الفرس جيشا يكون لهم عونا ، فأخرجت لهم فارس فارسين عظيمين فى عسكر كبير فكان حظهما فى مناصبة القتال مع جيوش الإسلام حظ من فات . ثم وقعت واقعة (الفِراض) وقاتل المشركون فيها قتالا شديدا ثم انهزموا وأمر سيدنا خالد بن الوليد بالرجوع إلى (الحيرة) .

كان من حكم من الحال فى ذلك الوقت أن ينصرف سيدنا خالد عن حرب العراق ويسير إلى الشام مددا لجيوش المسلمين هناك فصرفه أبو بكر واستخلف على جيشه فى العراق (المثنى بن حارثة الشيبانى) فقام من الحيرة حتى أتى بابل وأقام بها حتى لاقاه

---

(١) مرزبان : لقب عظماء الفرس .

(هرمز) فى جيش الفرس فقاتل جيش المسلمين قتالا شديدا أفضى إلى هزيمته .

كثرت الاختلافات الداخلية فى مملكة الفرس فشغلتهم عن أمرهم مع المسلمين واطمأن الحال فى كل ما فتحته جيوش المسلمين من البلاد فرأى (المثنى) أن يستخلف على جيشه ويقصد المدينة ليفاوض سيدنا أبا بكر فى أشياء فوجده مريضا فاستحضره أبو بكر عمر بن الخطاب وقال : إذا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع (المثنى) ولا تشغلك مصيبة عن أمر دينكم ووصية ربكم ؛ فقد رأيتنى وقت وفاة رسول الله ﷺ وما صنعته وما أصيب الخلق بمثله ، وإذا فتح الله على أهل الشام فاردد أهل العراق إلى عراقهم فإنهم أهله وولاة أمره وأهل الجرأة عليه .

هذا ما انتهى إليه أمر فارس فى ذلك العهد وإذا استحضر القارئ فى ذهنه صورة بلاد العرب يرى أنها كانت محدودة بدولة الروم شمالا ومملكة فارس شرقا وأن الدعوة للدين بوساطة الجيوش الإسلامية قد انتقلت منها فى عهد الصديق إلى هذه الممالك وأن سيدنا خالد بن الوليد اتجه جهة الشرق وأزال ملك فارس عن كل الأراضى الخصبة التى فى غربى الفرات وهو ما يعبر عنه بريف العراق وأصبح حد مملكة فارس نهر الفرات . وأما من جهة الشمال فالذى وقع بعد الذى علمت من كتاب رسول الله ﷺ الذى كتبه إلى هرقل والكتاب الذى كتبه إلى ملك غسان بالبلقاء والجيش الذى بعثه رسول الله ﷺ تحت إمرة زيدبن حارثة فى السنة الثامنة من الهجرة وقبول صاحب جرباء وأيلة الجزية ـ هو أن وجه سيدنا أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص إلى مشارف الشام وأمره أن يكون ردءا بتيماء لا يفارقها ، فجهز إليه ملك الروم جيشا فسار إليهم خالد فافترقوا فكتب لأبى بكر بالخبر فكتب إليه بالإقدام فتقدم ولقيه بطريق رومى اسمه (ماهان) فهزمه خالد ، وكتب إلى أبى بكريستمده فاهتم بأمر الشام وَاستَقْدَم عمرو بن العاص وكان واليا على صدقات بنى سعد من قضاعة ، كان أبو بكر مسيره إليها يوم عقد الألوية فى ذى القَصَّة ، وقد كان رسول الله ﷺ وعده ولايتها ، فكتب إليه أبو بكر : إنى كنت رددتك إلى العمل الذى ولاك رسول الله ﷺ مرة وقد أحببت أن أفرغك لما هو خير لك فى الدنيا والآخرة إلا أن يكون الذى أنت فيه أحب إليك .

فكتب إليه عمرو : إنى سهم من سهام الإسلام ، وأنت بعد الله الرامى بها والجامع لها فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم بها .

جهز أبو بكر أربعة جيوش جعل على أحدها عمرو بن العاص ووجهته فلسطين وعلى

الثانى شرحبيل بن حسنة ووجهته الأردن وعلى الثالث يزيد بن أبى سفيان ووجهته البلقاء وعلى الرابع أمين الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح ووجهته حمص وساروا جميعا على بركة الله . وقد ودعهم أبو بكر ماشيا وأوصاهم بما فيه صلاح دنياهم وأخراهم فظلت الجيوش سائرة حتى نزلت الشام .

بلغ (هرقل) أمر هذه الجيوش فقال لقومه : أرى أن تصالحوا المسلمين فوالله لئن تصالحوهم علي نصف ما يحصل من الشام ويبقى لكم نصفه من بلاد الروم أحب إليكم من أن يغلبوكم على بلاد الشام ونصف بلاد الروم . فرفضوا رأيه فسار حتى نزل (حمص) وأمر بجمع الجيوش فاجتمع من الروم عدد عظيم فوجه لكل أمير جيشا يفوق عدة من معه ، فأشار عمرو بن العاص على الأمراء بالاجتماع فاجتمعوا (باليرموك) وكل واحد أمير على جيشه والروم احتجزوا بخنادقهم ، وأقام الفريقان على ذلك صفرا والربيعين من السنة الثالثة عشرة من الهجرة ، فأرسل الأمراء إلى أبى بكر يستمدونه ، فكتب إلى سيدنا خالد بن الوليد أمير جند العراق يأمره أن يستخلف على جنده بعد أن يأخذ معه نصفه ويتوجه إلى الشام مددا لأمرائه ، كما قلنا ذلك عن قرب بعد ذكر واقعة دومة الجندل .

سار سيدنا خالد ينسف الأرض نسفا حتى وصف إلى المسلمين فى شهر ربيع الآخر وصادف وصوله وصول (ماهان) بجيش مددا للروم فولى خالد قتاله وقاتل كل أمير من بإزائه متساندين فرأى خالد أن هذا القتال لا يجدى نفعا ما دامت كل فرقة من الجيش لها أمير فجمع الأمراء وخطبهم .

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه البغى ولا الفخر . أخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبية وأنتم متساندون ، فإن هذا لا يحل ولا ينبغى . إن من ورائكم من لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا بما لم تؤمروا فيه بما ترون أنه رأى من واليكم ومحبته .

قالوا هات فما الرأى ؟ فقال :

يؤمر على الجيش كله أمير واحد ويتعاورون الأمارة حتى يؤمروا كلهم وأن هو يؤمر فى اليوم الأول . فقبلوا مشورته .

خرج سيدنا خالد فى تعبية لم تعبها العرب من قبل ذلك . جعل القلب فرقا وأقام فيه

أبا عبيدة . وجعل الميمنة فرقا وأقام فيها عمرا وشرحبيل . وجعل الميسرة فرقا وأقام فيها يزيد . وجعل على كل فرقة رجلا من الشجعان وكان عدد الفرق ستا وثلاثين فرقة وكل فرقة ألف رجل .

انتشب القتال والتحم الناس وتطارد الفرسان وأظهر خالد عجائب الشجاعة والحمية الإسلامية . ثم إن الروم حملوا حملة أزالوا بها المسلمين عن مواقعهم وأزاحوهم عن مواقفهم ، فنهض سيدنا خالد بالقلب حتى حال بين خيل المشركين ورجلهم فانهزم الفرسان وتركوا الرجالة ، فأخرج لهم المسلمون واشتدوا على الرجالة فهزموهم وقتلوا خلقا كثيرا وقاتلت نساء فى ذلك اليوم قتالا شديدا وأبلين بلاء حسنا .

انتهت هذه الموقعة بهزيمة الروم شر هزيمة وفى أثنائها جاء بريد المدينة بموت سيدنا الصديق وخلافة سيدنا عمر بن الخطاب وتولية أبى عبيدة رياسة الجيوش فلم يبلغ هذا الخبر الجيش إلا بعد الفتح .

ربما يقول قائل : الشأن فى الحروب أن تكون سجالا فلماذا تفاوتت فى هذه الوقائع مواهب القوى والهمة والعزم مع ما هو معروف فى دولة الروم من تمام التطاول إلى اجتناء ثمار الأعمال ؟ ولهذا فنحن قبل ذكر خبر وفاة سيدنا الصديق ذاكرون حديثا عن واقعة (اليرموك) هذه إحدى وقائع العرب مع الروم ترد نزعات الفكر ونزغات [1] الأهواء إن جمحت وتعرف الإنسان أن هداية الدين وصحة الاعتقاد وكمال العقيدة إذا تمت لإنسان ترق منه الوجدان وتلطف منه الأذهان وتنقذ منه البصيرة وترفع منه الفكر لاجتلاء النتائج ويصبح صاحبها وله من القدرة الباهرة ما لا يهتدم بناؤه أبدا .

قال الإمام أبو الحسن سلام بن عبد اللّه بن سلام الباهلى الإشبيلى فى كتابه الذى وضعه فى آداب النفوس ومكارم الأخلاق عند الكلام على مراتب الجود ودرجات السخاء إن (حذيفة العدوى) قال : انطلقت يوم « اليرموك » أطلب ابن عم لى ومعى شئ من ماء وأنا أقول إن كان به رمق سقيته منه ومسحت به وجهه ، فلما وجدته أشرت إليه أن أسقيه فقال لى ابن عمى : نعم . فإذا برجل يقول : آه فأشار إلىَّ ابن عمى أن أنطلق إليه فجئته فإذا هو هشام بن العاصى فلما أشرت إليه سمع آخر يقول : آه . فأشار إلىّ هشام أن

(١) نزغات : : مفسدات .

أنظلق إليه فجئته فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ، فانصرفت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات .

فأى شئ أعظم من هذا الإيثار وأى شئ أجل من هذا الاصطبار ؟ لقد تقصر الألسن عن عده وتكل الأفهام عن حده ، ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء واللّه ذو الفضل العظيم .

وفاة سيدنا الصدّيق

لسبع خلون من جمادى الآخر سنة ثلاث حُمَّ أبو بكر ، فلما اشتدَّ عليه المرض جمع كبار الصحابة فاستشارهم فى العهد لعمر بن الخطاب فكلهم قال خيرا فدعاعثمان بن عفان وأملى هذا العهد .

بسم اللّه الرحمن الرحيم

هذا ما عهد أبو بكر خليفة محمد ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأوّل عهده بالآخرة فى الحال التى يؤمن فيها الكافر . ويوقن فيها الفاجر . إنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيرا فإن صبر وعدل فذلك علمى به ، ورأيى فيه ، وإن جار وبدل فلا علم لى بالغيب والخير أردت ، ولكل امرئ ما اكتسب ، ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** ﴾ (١) .

ثم أمر بالعهد فقرئ على المسلمين وقد أطل عليهم فقالوا سمعنا وأطعنا ثم نادى عمر فقال له : إنى استخلفتك على أصحاب رسول اللّه ﷺ يا عمر ، إن للّه حقا بالليل لا يقبله بالنهار وحقا فى النهار لا يقبله فى الليل . وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة . ألم تر (يا عمر) أن ما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيها غدا إلا حق أن يكون ثقيلا . ألم تر (يا عمر) أن ما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه غدا إلا باطل أن يكون خفيفا . ألم تر يا عمر أن ما نزلت آية الرخاء مع آية الشدَّة وآية الشدَّة مع آية الرخاء ؛ ليكون المؤمن راغبا راهبا لا يرغب رغبة يتمنى فيها على اللّه ما ليس له ولا يرهب رهبة يلقى فيها بيديه . ألم تر يا عمر أن ما ذكر اللّه أهل النار بأسوأ أعمالهم فإذا ذكرتهم قلت إنى لأرجو ألا أكون منهم . وأن ما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم فإن

(١) الشعراء : ٢٢٧ .

حفظت وصيتى فلا يكون غائب أحب إليك من حاضر من الموت ولست بمعجزة .

توفى الصدّيق رضى الله عنه وغسلته زوجه أسماء وابنه عبد الرحمن وكفن فى ثوبيه كما أوصى ، ودفن ليلا فى حجرة عائشة وجعل رأسه عند كتفى رسول الله ﷺ ، ودخل قبره ابنه عبد الرحمن وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله ، فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال وعمره ثلاث وستون سنة .

تتوّجت هذه الأيام بأعماله فكانت فى سلسلة الأيام من أفضل العوامل فى إحراز الفضائل . لمّ شعث [1] المسلمين بعد فرقتهم بردّة الكثير من العرب . جرد الجيوش على الدولتين العظيمتين المجاورتين لبلاد الإسلام (الروم والفرس) دعاهما لدعوة الدين أو الدخول تحت حكمه حتى يكون عدله ومساواته عامين لجميع الأمم . وليخلص هاتين الأمتين من ملوكهما الذين يعدّون رعيتهم عبيدا ونفوسهم آلهة وشهواتهم مهما عاد ضررها على الرّعية سنة وفرضا . ففازت جيوشه بالنصر فى جميع مواقعها .

كانت حال الخلافة الإسلامية إلى عهده أنه الخليفة ، وسيدنا عمر بن الخطاب قاضيه ، وسيدنا أبو عبيدة أمينه ، وكتابه عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وزيد بن ثابت رضى الله عنهم .

كانت ولايات الإسلام فى عهده عشرا لكل واحدة وال .

١ ـ (مكة) وعليها عتاب بن أسيد الذى ولاه رسول الله ﷺ .

٢ ـ (الطائف) وعليها عثمان بن العاصى الثقفى .

٣ ـ (صنعاء) وعليها جماعة من المهاجرين من بنى أمية .

٤ ـ (حضرموت) وعليها زياد بن لبيد .

٥ ـ (خولان) وهى قبيلة عظيمة تسكن اليمن وعليها يعلى بن منبه .

٦ ـ (زبيد) وعليها أبو موسى الأشعرى .

٧ ـ (نجران) وهو موضع شمالى اليمن يقيم به قبائل من بنى الحرث وعليه جرير بن عبد الله .

---

(١) شعث : تفرق .

٨ – (البحرين) من شواطئ بلاد العرب المطل على الخليج الفارسي وعليها العلاء الحضرمي .

٩ – (جرش) وهو مخلاف باليمن وعليه عبد اللّه بن ثور .

١٠ – (دومة الجندل) وعليها عياض بن غنم .

وأمير جند الشام خالد بن الوليد القرشي المخزومي .

وأمير جند العراق المثني بن حارثة الشيباني .

سيدنا عمر بن الخطاب
رضى الله عنه

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر العدوى القرشى يجتمع مع رسول الله ﷺ فى كعب بن لؤى . وكنيته أبو حفص . ولقبه الفاروق .

ولد رضى الله عنه بعد الفيل بثلاث عشرة سنة وهو من أشراف قريش وإليه كانت السفارة فى الجاهلية . فإذا وقعت قريش فى حرب بينها أو بين غيرها أو نافرهم أو فاخرهم أحد كان هو السفير فى أمرهم والنافر والمفاخر عنهم .

تربى على الشهامة والنجدة والحمية الجاهلية وكان من أكبر المعارضين للإسلام عند ظهوره ثم منَّ الله عليه بالإسلام فكان من أكبر أسباب معزته ببركة دعوته ﷺ « اللهم أعز الإسلام بعمر » فكان إسلامه فتحا . وهجرته نصرا . وإمامته رحمة .

أسلم فى السنة السادسة من النبوة وله سبع وعشرون سنة بعد أربعين رجلا وإحدى عشرة امرأة فما دان بالإسلام حتى أشار على النبى ﷺ بترك الاختفاء والتستر وإظهار الدين ، فخرج النبى ﷺ ومعه المسلمون صفين يقدُم أحدهما عمر بن الخطاب ويقدُم الآخر حمزة بن عبد المطلب عم النبى ﷺ فلم يكن منظر أنكى (١) فى عيون المشركين من هذا المظهر يشق مرائرهم ويحرج صدورهم . يودون لهم من الأذى ما يودون وماهم ببالغيه .

كان رضى الله عنه نصيرًا للدين بما آتاه الله من قوة البطش غير مستخف بعمله ولا هياب أحدا كأن الله قد اختار لسانه للنطق بالحق واختصه بذلك ليقرع الأذان ويشق الحجب ، حتى إنه عندما أذن الله له بالهجرة إلى المدينة لم يتسلل لها خفية بل جاء إلى الكعبة وأشراف قريش بفنائها فطاف سبعا ثم صلى ركعتين ثم أتى حلقهم واحدة واحدة وصاح بعظمائهم : شاهت الوجوه . وأخبرهم بهجرته وقال لهم : من أراد أن تثكله أمه

---

(١) أنكى : أغيظ .

ويتم ولده وتترمل امرأته فليلقنى وراء هذا الوادى . فلم يجسر أحد منهم على اتباعه .

حضر المشاهد كلها مع رسول اللّٰه من بدر إلى تبوك . وهو ممن ثبت مع رسول اللّٰه ﷺ . وكان عجيبا فى فعله وعمله حتى قال ﷺ : « لقد كان فيمن قبلكم مُحَدَّثون ملهمون فإن يكن فى أمتى أحد فإنه عمر » .

كأن اللّٰه قد جعل الحق على لسانه وقلبه يقول به . وما نزل بالناس أمر فقالوا فيه وقال إلا نزل القرآن على نحو ما يقول عمر ، فوقعت موافقات كثيرة أوصلها بعضهم إلى عشرين ، وأشهرها مسألة قتل أسرى بدر . ومسألة الحجاب . ومسألة الخمر . ومسألة الاستغفار .

وهو أوَّل من سمى أمير المؤمنين . وأوَّل من كتب التاريخ الهجرى . وأوَّل من اتخذ بيت المال وكان دَخْله من زكاة المسلمين وجزية أهل الذمة وخمس الغنائم ومواريث منْ ليس وارث من موتى المسلمين . فكان مطهرا من المظالم نقيا عما كانت الملوك تأخذه من أممها ظلما. وأوَّل من دوَّن الدواوين لحصر أسماء الغزاة . وأوَّل من سن قيام رمضان وأنار المساجد فى لياله . وأوَّل من عس بالليل . وأوَّل من عاقب على الهجاء . وأوَّل من جلد فى الخمر ثمانين . وأوَّل من جمع الناس فى صلاة الجنائز على أربع تكبيرات . وأوَّل من اتخذ الديوان . وأوَّل من مسح السواد . وأوَّل من حمل الميرة من مصر إلى المدينة . وأوَّل من أخذ زكاة الخيل . وأوَّل من اتخذ الدرَّة . وأوَّل من استقصى فى الأمصار . وأوَّل من مصرها . اختط الكوفة ومصرها ، والبصرة ، والجزيزة ، والشام ، ومصر ، والموصل . وأوَّل من اتخط دار المؤن ليعين منها المنقطع . فيها الدقيق والسويق [1] والتمر والزبيب . ووضع فيما بين مكة والمدينة بالطريق ما يصلح من ذلك .

وله كثير من الكرامات الغريبة : ومن أشهرها وأعجبها صيحته وهو على المنبر (يا سارية الجبل) وكتابه لنيل مصر ، وإبطاله تلك العادة السيئة وقطعها عن أهل مصر . ودعاؤه على أهل العراق وقد حصبوا أميرهم : اللهم قد لبسوا علىَّ فألبس عليهم وعجل بالغلام الثقفى يحكم فيهم حكم الجاهلية لا يقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئهم ، والحجاج يومئذ ما ولد .

وأكبرها دلالة على فضله وأشدها علامة على نبله رضى اللّٰه عنه ما ذكره بعض المؤرخين أن عمرو بن العاص خطر بباله حفر برزخ السويس لاتصاله البحر الأحمر بالبحر

(١) السويق : ما يعمل من الحنطة والشعير .

الأبيض فاستأذن عمر بن الخطاب فمنعه لئلا تعبر منه الإفرنج فيكثرون بالمشرق وبلاد المغرب .

أعماله فى خلافته

لم يغب عن القارئ أنا تركنا جيش المسلمين (ببابل) تحت قيادة بشير بن الخصاصية الذى استخلفه المثنى حينما قصد المدينة لملاقاة الصديق كما ذكرنا فى ترجمته وقلنا إن نهر الفرات أصبح حدا لمملكة فارس . وتركنا جيش المسلمين كذلك فى حرب الروم (باليرموك) بعد هزيمة الروم عنها . وسنأخذ الآن فى سرد ما افتتحت جيوش المسلمين من بلادها هاتين المملكتين . فى مدة هذا الخليفة رضى الله عنه وأرضاه :

أمر فارس

ندب الناس مع المثنى وأمَّر عليهم أسبقهم انتدابا وكان أبا عبيدة (بن مسعود) وقال له وأوصاه وصية رجل دخل بين الأمم وطبائعها ، فقا ل : ستقدم على أرض المكر والخديعة ، تقدم على قوم تجرءوا على الشر فعلموه ، وتناسوا الخير فجهلوه ، فانظر كيف تكون . احفظ لسانك ولا تفشين سرك حتى لا تكون بمضيعة .

ثم أمر المثنى أن يتقدَّم إلى أن يلحق بالجيش وأمره أن يستنفر من حسنت توبته من المرتدين فسار مسرعا حتى وصل الحيرة فى عشر ، وكان الفرس قد شغلوا عن المسلمين ببعض اختلافات داخلية على من يلى ملكهم ثم اتفقوا أخيرا على ولاية (بوران) بنت كسرى وأن يقوم بأمرها (رستم) حتى يجدوا رجلا من بيت كسرى وأن يقوم بأمرها (رستم) حتى يجدوا رجلا من بيت كسرى يصلح للملك ، فاستعد رستم لقتال المسلمين وجهز الجيوش فأرسل جيشا إلى الفرات وجيشا إلى كَسْكَر وآخر لملاقاة المثنى ، وأغرى الفلاحين أن ينتقضوا على المسلمين ، فخرج المثنى من الحيرة إلى (خَفَّان) وانتظر أبا عبيدة حتى وصل بعد شهر فسار منها إلى الفرس فهزمهم ، ولحقوا (بكسكر) فقصدها أبو عبيدة وقد كانت جيوش الفرس تلاحقت فالتقى بهم أبو عبيدة وهزمهم شر هزيمة وبث سراياه وتجمع بما حواليه من الأنهار واعتصم بمعاقله حتى جهز الفرس جيشا آخر تحت قيادة (بهمن) المعروف بذى الحاجب ومعه الراية العظمى لفارس واسمها (درفش كاويان) وطولها اثنتا عشرة ذراعا فى عرض ثمانى أذرع مفصلة من جلود ، فحدثت بين المسلمين والفرس وقائع على الفرات انتهت بهزيمة الفرس وتقدَّمت العرب حتى مكنها الله

من سواد العراق وإجلاء الفرس عنها .

تضايفت الفرس من امتداد أيدى المسلمين لأخذ الجزية واستعمال ما افتتحوه من البلاد وزوال سلطتهم من غربى الفرات وضعف بلاد الجزيزة وغير ذلك من الطوارئ التى تتبع الهزيمة والانكسار ، فقامت عامة الفرس وخاصتهم تتدارك هذا الاضمحلال والزوال فاجتمعوا ورأوا من آل كسرى رجلا اسمه (يزدجرد) فتوجوه ونادوا به ملكا عليهم فجمع القادة وسير الجيوش .

بلغ ذلك سيدنا عمر بن الخطاب فجمع جيشا عظيما تحت قيادة سعد بن أبى وقاص الزهرى القرشى خال رسول الله ﷺ ، وأوصاه بوصية تنفذ فى القلوب قبل الأذان فقال له : يا سعد ابن أم سعد ، لا يغرنك من الله أن يقال خال رسول الله وصاحب رسول الله ، فإن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكنه يمحو السيئ بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته ، فالناس فى دين الله سواء وهم عباده يتفاضلون عنده بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت فيه رسول الله ﷺ يلزمه فالزمه . فسار سعد يقود هذا الجيش الشديد ويستأنس برأى أمير المؤمنين السديد ، ومعه أهل البأس والرأى وأهل الجهاد والصبر يضم إليه أقاصيه وطلائعه ويجمع إليه مكيدته وقوّته ، ويتأمل فى عورات عدوه ومكاره مقاتله ، ويُرهب عدوَّ الله وعدوَّه حتى وصل إلى (زَرود) فبلغه وفاة المثنى من جراحه التى أصابته ، فجمع سعد جيش المثنى وضم رجاله إلى رجاله وعبأ الجيش ورتب المقدمة والساقة والميمنة والميسرة وسار حتى نزل القادسية فأقام شهرا لا يأتيه عدوّ ، ثم تراسل مع (يزدجرد) ملك الفرس وانتهى الحال على خروج رستم فى مائة ألف أو يزيدون لقتال المسلمين .

فلما علم سعد أمير جيش المسلمين خبر رستم أرسل عمرو بن معدى كرب الزبيدى وطليحة بن خويلد الأسدى يستكشفان خبر الجيش ، فلم يسيرا إلا قليلا حتى رأيا سرح العدو منتشرا على الطفوف [1] ، فرجع عمرو وظل طليحة سائرا حتى دخل جيش الفرس وعلم حقيقة ما فيه ورجع .

تلاقى الجيشان ووقعت واقعة (القادسية) التى استمرت أياما وليالى ولم يكن أشد على المسلمين من الفيلة لنفار خيل العرب منها ، وأشدها ليلة الهرير التى حاربت فيها العرب والفرس من أذان العشاء حتى قام قائم الظهيرة ، وترك المسلمون فيها الكلام فلا

(١) الطفوف : الأطراف .

تسمع إلا صوت الحديد كأنما ساحة القتال سوق القيون ، وانتهى الأمر بهزيمة الفرس التى لم يسمع بمثلها وأخذت تلك الراية العظمى ، وقتل فيها (رستم) مع الكثير من مشهورى الفرس وقوادهم وباد عسكرهم قتلا وغرقا وأصبح أمر فارس بعد ما لاقته من العرب فشلا لم تغن الرجال ولا الأفيال ولا الأقيال .

مكث سعد ريثما استراح جيشه ثم قام عازما على فتح المدائن فسار يفتح البلاد التى فى طريقه ففتح (البُرْس) و (بابل) والله ينصرهم بالرعب ، والفرس مدحورون لا لانهزامهم فى واقعة القادسية فى أسرع من لفت الرداء ، وناهيك بقتال من ملئ رعبا فهربت قواده : قصد أحدهم (نهاوند) والثانى (الأهواز) وبقية المهزومين قصدوا المدائن فتبعتهم العرب تشردهم وتشتتهم ويفتحون ما يلاقونه ، ففتحوا (كُوثى) و (ساباط) وصالحوا أميرها على الجزية . ثم سار الجيش قاصدا المدينة الغربية فرأى المسلمون إيوان كسرى يلوح أمامهم أبيض ناصعا فتذكروا وعد رسول الله ﷺ على ما رواه مسلم عن جابر بن معمر أن رسول الله قال : عصبة من المسلمين يفتتحون البيت الأبيض بيت كسرى أو آل كسرى . فقويت قلوبهم وعظمت همتهم وازداد إقبالهم واشتاقت نفوسهم إلى أن يكونوا تلك العصبة المعنية بالذكر فى حديثه ﷺ فنادى ضرار بن الخطاب « الله أكبر » هذا أبيض كسرى هذا ما وعد الرحمن وصدق رسوله ﷺ ، وكبر المسلمون وحاصروا المدينة وفتحت القرى المجاورة . وقد جمعت الفرس المعابر إلا معبرة واحدة أو مخاضة تصلح للعبور دل المسلمين عليها أحدهم فعزم سعد على قطعها . فأمر فعبرت جماعة منهم ليحمى الفراض [1] حتى يعبر المسلمون ، ثم أمر المسلمين فعبروا فلم يلتفت الفرس إلا والفراض محمية والمسلمون يعبرون ، وقد سقط فى أيدى الفرس فهرب (يزدجرد) إلى حلوان ودخل المسلمون المدينة من غير معارض ونزل سعد القصر الأبيض واتخذه مصلى وصلى وقرأ فى صلاته قوله تعالى : **﴿ وكم تركوا من جناتٍ وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمةٍ كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين ﴾** [2] وأرسلوا البشائر والغنائم لأمير المؤمنين . فلما رأى رضى الله عنه ذخائر كسرى قال: إن قوما أدوا هذا لذوو أمانة . فقال له على : إنك عففت فعفت الرعية . ثم فتحت (جلولاء) وترك (يزدجرد) حلوان هربا وسار إلى الرى وفتحت (تَكْريت) و (نِينَوَى) و (الموصل) و (ماسَبَذَان) و (هِيت) .

---

(١) الفراض : محطة السفن .   (٢) الدخان : ٢٥ : ٢٨ .

ثم مكثت (المدائن) قاعدة أعمال العراق زمنا حتى رأى سيدنا عمر فى وجوه العرب تغيرا وفى أبدانهم ضعفا فأمر سعدا أن يرتاد منزلا فاختار الكوفة بعد اختبار ، واختطت ضعفا وبنيت دورها باللبن وجعل النهج (الشارع الأعظم) ٤٠ ذراعا وما يليه ٣٠ ذراعا وما بين ذلك ٢٠ ذراعا والأزقة ٧ أذرع ، وأسس مسجدها وصارت قاعدة أعمال العراق وتتبع لها من أعمال الفرس : الباب ، وأَذْرَبِيجَان ، وهَمْدان ، والرَّى ، وأصبهان ، وماه ، والموصل ، وقرْقِيسيَاء . وكلها فى الجهة الشمالية .

ثم فتحت (تُسْتَر) فتحها جيش البصرة . ثم السوس . ونهاوند وتم الانسياح فى بلاد العجم لضعف شوكة الفرس فأصبح سيدنا عمر أمير المؤمنين لا يخاف على المسلمين شيئا من توغلهم فى البلاد فعقد الألوية وسارت الجيوش حتى فتحوا (تبريز) و (الباب) وهو (الفاصل بين الفرس وأرمينية ودولة الروسيا) . وسار الأحنف إلى خراسان ليلاقى (يزدجرد) الذى أقام (بمرو) يثير الفرس على المسلمين فبلغ (هَرَاة) من بلاد الأفغان فافتتحها وسار نحو مرو الشاة جان وكتب إلى خاقان ملك الترك وإلى ملك الصُّغْد وملك الصين يستمدهما فلم يغنياه شيئا ثم افتتحوا كِرْمان ، وسجستان ، ومُكران ، وانتهوا إلى دوين النهر إلى الحدود بين الفرس والسند .

إلى هنا انتهى ما فعله المسلمون بالبلاد الفارسية جئنا منه بنتف مختصرة تدلك على غايته مفصلا .

لا شك أن الإشراق النبوى كان ملازما لهؤلاء الفاتحين والمدد المحمدى [1] يمدهم ، وإلا فكيف تبتدئ هذه الحروب سنة اثنتى عشرة من الهجرة بفتح أول بلد من بلادهم وهى (الأبلة) من حدود العرب غربا وتنتهى إلى ما وراء النهر وبلاد السند شرقا والخليج الفارسى جنوبا وبحر الخزر وأرمينية والروس شمالا فى هذه المدة التى لا تكفى مرتادا يريد أن يتعرف طبيعة هذه البلاد لشدة جسامتها ؟

جاء (الهرمزان) المدينة ولاقى سيدنا عمر بن الخطاب وقال له فيما قال : يا عمر كنا وإياكم فى الجاهلية كأن الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم فلما كان الآن معكم غلبتمونا .فقال له عمر : إنما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا . لم ينكر سيدنا عمر بن الخطاب غلبتهم للعرب ولم ينكر السبب . فانظر لهذا الائتلاف والاتحاد فى القلوب كيف

---

(١) لعل مقصد المؤلف بالإشراق النبوى والمدد المحمدى ، اقتداء الصحابة رضوان الله عليهم بالنبى ﷺ .

جعلها قلبا واحدا تتحرى برأى واحد وإن كانت فى أجساد مختلفة .

عم الدين الإسلامى فجمع الحائدين على الصراط السوى والمنهج القويم وأخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن جور الملوك إلى عدل الإسلام .

التقى الفرس والعرب فى وقائع كثيرة مشهورة ولم تنكسر لقوادهم راية ولم يفل [1] لهم جيش . ولم ير المسلمون فى واقعة من الوقائع مساوين لأقرانهم فى العدد والعدد بل كانت الفرس فى كل واقعة أضعاف العرب . فما هذه الحال العجيبة والنصر الغريب الذى لو أضيف إليه ما هو محقق باليقين فى الفرس من المهارة فى تعبئة الجيوش وإحكام معدات الدفاع ووفرة الأموال والعلم بطرق الدسائس والخداع لعدت هزيمتهم نادرة وغلبة العرب معجزة ؟ انظر لنور الإيمان الذى سطع فأزال كل ما يلحق النفوس من الجبن والذل والخوف ، وصرف الأيدى عن النهب والغارة . وانظر للقواد الذين لا يخشون تهديدا ولا وعيدا ولم يسلكوا بالأمة مسلك الأهواء لأنهم لم يكونوا دخلاء يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم . كانوا متفانين فى حب الدين ليس لهم شأن إلا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وترك الزهو والكبرياء وحب الدنيا .

هذه يد بيضاء فعلت فى الفرس ما تبين لك أمره ، فانظر لأختها كيف كان أثرها أيضا مع دولة الروم :

قلنا فى أول الكلام إننا تركنا المسلمين فى حرب جيش الروم باليرموك بعد موقعتها الهائلة وهزيمة الروم عنها وأمير الجند أمين الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح .

بلغه رضى اللّه عنه أن مددا أتى دمشق فحصرها المسلمون : أبو عبيدة من جهة وخالد بن الوليد من أخرى ، ودام الحصار سبعين ليلة حتى فتحت . وفتح بعدها حمص ، وحماه ، والمعرة ، واللاذقية ، وحلب ، وقِنّسرين . حتى وصلوا إلى قرب إنطاكية .

ثم بدا لسيدنا عمر أن يطوف على المسلمين فى بلدانهم لينظر آثارهم فسار عن المدينة ومعه غلام وبعير واستخلف عليها سيدنا على بن أبى طالب وقدم الشام فسد فروجها ورتب صوائفها وشواتيها ، واستعمل سيدنا معاوية على دمشق وعزل شرحبيل عن الأردن وقال : ما عزلته عن خيانة ولا جور ، ولكن أريد رجلا أقوى من رجل .

---

(١) يفل : مهزوم .

ثم قيل له : لو أمرت بلالا فأذن ، فأمره ، فلم يبق أحد أدرك النبى ﷺ إلا بكى حتى بل لحيته وعمر أشد الناس بكاء .

ثم استأذنه عمرو بن العاص فى فتح مصر وذكر له خيرها وأنها قوة عظيمة لمملكة الروم وكان عليها وال من قبلها يقيم بالإسكندرية . فسيره ، فقام لها بجيش كثيف . ثم اتبعه الزبير بن العوام وفتحت وعاقد أهلها على الأمان ونزل المسلمون (الفسطاط) واختطوا حوله وأسس عمرو مدينته . وشيد مسجده ، ثم سار إلى الإسكندرية واجتمع له بينها وبين الفسطاط جماعة من الروم والقبط فأثخنهم ، ثم وصل الإسكندرية وطلب من أهلها النزول على صلح مصر فلم يقبلوا ، ففتحها عنوة وغنم ما فيها وجعلهم ذمة ، وارتحل الروم إلى القسطنطينية وأقام المقوقس والقبط على الصلح الذى عقده لهم عمرو ، وأبقى المقوقس على رياسة قومه وكان المسلمون يشاورونه فيما ينزل من المهمات إلى أن توفى ، وكان يقيم بعض الأوقات بالإسكندرية وفى بعض الأوقات بمنف بمصر .

وبفتح مصر انتهى ما فعله المسلمون أيضا مع الروم فى مدة سيدنا عمر . أخذوا ولايتين عظيمتين : الشام ، ومصر وجزءا من الأناضول . وبالإجمال أضعفوا شوكتهم وأزالوا ملكهم وأذلوا دولتهم .

انظر لهذه الفتوح التى أطاش أمرها الأحلام وحير الأفكار والأفهام وتأمل لمنصب الخلافة الحقيقية فى تلك الأيام وما يحف جماعة المسلمين من حرية فى دين ، وعلم فى يقين . وسعة الوسائل المدنية الحقة ، والأمة قريرة العين بما تغنمه من نهضات الهمم بالفتح والإصلاح والأمور مستقيمة على مثل ما دعا إليه الإسلام ، ونوره ساطع على الديار التى بلغها أهله والقلوب تفيض منه والألسنة تتدفق فصاحة به وكأنما المسلمون ربيع يساقون إلى جدب فلم ينزلوا أرضا حتى يحيى الله مواتها بهم وينقع [1] غلتها ببركتهم .

انظر لمقام الخلافة مقام النيابة عن رسول الله ﷺ تره مشغولا بحراسة الدين وسياسة الدنيا مستمدا لأفعاله وأعماله وأقواله من كتاب الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . والأمة باذلة له الطاعة فى سرها وجهرها وهو لا يعتقد فى نفسه أنه أرقى درجه منها . يقول سيدنا أبو بكر : قد وليت عليكم ولست بخيركم . والفاروق رضى الله عنه يقول : من رأى فىّ اعوجاجا فليقومه . وحاله بين المسلمين فى مالهم وجبايتهم

(١) ينقع غلتها : ينمى زرعها .

وخراجهم كوصى اليتيم إن استغنى استعفف وإن افتقر أكل بالمعروف . وشغله بعد هذا النظر فى طلبات الرعية وتفقد أحوال البائسين من الأمة حتى لا يكون لأحد عليه حجة يوم لا ينفع مال ولا بنون فتراه يحمل الدقيق على ظهره ليوصله إلى الفقراء والمساكين أو يدرك بالطعام صبية يتضاغون [1] وأمهم تلهيهم حتى يناموا ، وهو رضى الله عنه غلق الفتنة كما قال ﷺ : لا يزال بين المسلمين وبين الفتنة باب شديد الغلق ما عاش هذا بين أظهرهم .

وأركان الدين قائمة . الصلاة الصلاة . إمامة المسلمين فى الصلاة راجعة إلى أرفع وظائفه . والزكاة القاطعة لكل احتيال بين أفراد الأمة فلا سلب ولا سرقة ولا ضغينة تولدها عداوة . والحج من بقاع الأرض يجددون به للأمير عهدهم ويشهرون طاعتهم . والصوم الذى به تتهذب النفوس ويذوق به الأغنياء مرارة الفقر فيرحمون الفقراء . والحدود قائمة لا يختل نظامها أبدا ، والجهاد على ما علمت من أخبار هذه الفتوح .

انظر لمواضع الشبه والنزعات الفكرية تجدها واقفة عند حد سلامة الاعتقاد . والفقه عبارة عن علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلوب : ﴿ **ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾ [2] والتوحيد عبارة عن أن يرى الموحد الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط وهكذا ، والناس شغل شاغل بنصرة دين الله والاجتهاد فى تعميم أمره عن المشاحنة فيه . ماذا يعده الدهر الخئون من البلايا والمصائب ينزل بها على المسلمين وهم فى أهنأ أوقات حياتهم وزيادة عزهم وسلطانهم ؟ وبماذا تخرج الأيام عليهم وقد ظفروا بكل ما اشتهوا ونالوا جميع ما ابتغوا فتحرمهم لذة ما ذاقوا ، وتقطع عليهم ما يتذوقون ؟ أى مصيبة تعدها الليالى إفسادا لحفاظ هذا النظام وسلبا لروح هذا البقاء ؟

مقتل سيدنا عمر بن الخطاب

نزعت نفس الشقى أبو لؤلؤة المجوسى نزعة كانت من أشأم النزعات على العالم الإنسانى . قوضت الأصل وخرمت العلائق بين الصحب والأهل ولا حول ولا قوة إلا بالله .

---

(١) صبية يتضاغون : يتصايحون .   (١) التوبة : ١٢٢ .

أتت مصيبة على المسلمين وكأنهم لم يسمعوا بالمصائب ويجهلون طرق العزاء فيها فأدهشتهم . فهم مذهولون منها أكثر مما هم محزونون .

أصيب رضى الله عنه فى المسجد بعد ما كبَّر . سمع عنه يقول : قتلنى أو أكلنى الكلب حين طعنه أبو لؤلؤة . وهو غلام مجوسى كان بعثه المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة لما يعلمه من الصنائع والأعمال التى فيها منافع للناس فضرب عليه مائة درهم فى الشهر ، فاشتكى إلى عمر رضى الله عنه فقال له : ما خراجك بكثير ، فانصرف ساخطا يتذمر ثم بعد أيام سأله عمر رضى الله عنه عن رحى تطحن بالريح كان أوصاه بها فقال له : سأصنع لك رحى يتحدث الناس بها . فقال عمر لأصحابه : لقد أوعدنى العبد . ثم كان منه الذى كان من طعنه بخنجره وطعن كل من يمر عليه فى المسجد يمينا وشمالا حتى لقد طعن ثلاثة عشر رجلا مات منهم سبعة ثم انتحر .

نظر عمر رضى الله عنه فيما عليه من الدَّين وأوصى ثم استأذن عائشة رضى الله عنها أن يدفن مع صاحبيه فأذنت له . ثم قيل له أوص يا أمير المؤمنين . قال : لا أتحملها حيا وميتا . إن استخلفت فقد استخلف من هو خير منى يعنى أبا بكر ، وإن أترككم فقد ترككم من هو خير منى يعنى رسول الله ﷺ . ثم قال فأوصى بالأنصار خيرا والمهاجرين والأعراب . واستقبل الله بقلب سليم رضى الله عنه وأرضاه .

سيدنا عثمان بن عفان

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى الأموى .

ولد فى السنة السادسة من عام الفيل وأسلم قديما وهو ممن أجابوا دعوة الصديق حين دعاهم للإسلام . وهاجر الهجرتين الأولى إلى الحبشة . والثانية إلى المدينة . وشهد المشاهد كلها إلا (بدرا) لشغله بتمريض زوجه بنت رسول اللّه ﷺ وأسهم له رسول اللّه ﷺ فى غنيمتها وزوجه بنته الثانية ولا يعرف أحد تزوج بنتى نبى غيره ولذلك سمى ذا النورين فهو من السابقين الأولين ، وله خصائص جميلة : منها أنه هو أول المهاجرين ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستة الذين توفى رسول اللّه ﷺ وهو عنهم راضٍ ، وأحد الصحابة الذين جمعوا القرآن . جمع الناس على مصحف واحد .

وله أوليات منها : أنه أوّل من أقطع القطائع ، وخفض صوته بالتكبير وخلّق المسجد . وأمر بالأذان الأول يوم الجمعة . وأوّل من قدّم الخطبة فى العيد على الصلاة . وأوّل من فوّض للناس إخراج زكاتهم . وأوّل من اتخذ صاحب شرطة . وأوّل من اتخذ فى المسجد مقصورة مخافة أن يصيبه ما أصاب عمر وما أغنى حذر .

بويع له بالخلافة بعد ما دفن عمر بثلاث ليال والناس تستشير وتختلف إلى عبد الرحمن بن عوف يشاورونه ويناجونه فيمن يلى منصب الخلافة . ولا يخلو به رجل ويعدل بعثمان أحدا . وكذلك كان رأى أكثر أعيان الصحابة وأغلبية الشورى .

شب عثمان رضى اللّه عنه على الأخلاق الكريمة والسيرة الحسنة والحياء الذى خصه اللّه منه بأجل السهام وضرب فيه بأوفر الحظوظ والأقسام حتى كانت تستحى منه الملائكة . كانت له اليد البيضاء فى تجهيز جيش العسرة إلى (تبوك) فقد أنفق من ماله ما لا يجود به غيره ، وحفر بئر (رومة) وتصدق بها وكان رشاؤه فيها كرشاء واحد من الناس .

زاد فى مسجد المدينة ووسعه وبناه بالحجارة وجعل عمده من الحجارة وسقفه بالساج وجعل طوله ١٦٠ ذراعا وعرضه ١٥٠ ذراعا ، وناهيك برجل ما مرت به جمعة منذ أسلم

حتى أعتق فيها رقبة ، كان عاملا أمينا للخليفتين رضى اللّه عنهما بعد النبى ﷺ ، وعمل فى خلافته ست سنين لا ينقم عليه أحد ، وكان أحب إلى قريش من عمر بن الخطاب : لان لهم ووصلهم وفعل معهم خيرا .

أعماله فى خلافته

فى حفظ القارئ أننا ذكرنا ما وصلنا إليه من أمر عسكر المسلمين الفاتحين فى مملكتى الروم والفرس فى عهد الخليفتين : الصديق ، والفاروق . ولنذكر الآن ما زاد على ذلك من الفتح فى أيام الخليفة ذى النورين وما جرى فى هذه البلاد .

الكوفة

استفتح سيدنا عثمان فى بدء خلافته باستعمال سعد بن أبى وقاص عليها عملا بوصية عمر رضى اللّه عنه ، ثم عزله بخلاف وقع بينه وبين ابن مسعود الذى كان على خراج الكوفة ، وعين بعده الوليد الأموى ، وعزل عتبة بن فرقد عن (أذر بيجان) فانتقض أهلها فغزاهم الوليد وأغار على أهل (مُوقَان) و (الطيلسان) ففتح وغنم وصالح كور (أذْرَ بيجان) وسير جيشا إلى أهل أرمينية فشتتهم وأقام واليا على الكوفة حتى شرب خمرا وشهدت عليه جماعة فأفتى على رضى اللّه عنه بعزله بعد جلده ، فعزله عثمان وجلده وولى مكانه سعيد بن العاص فقبلها على كره لأنه ممن أحس الفتنة هناك ولأن عثمان رضى اللّه عنه حمله على تفضيل أهل السابقة والقدم ومن فتح اللّه على يده تلك البلاد .

فشت القالة فى الكوفة فى حق سيدنا عثمان وعامله سعيد رضى اللّه عنهما . ثم سار الكوفيون لفتح (طَبَرِستان) ففتحوها فلما بلغوا (أذربيجان) تلاقوا بجيوش الشام وكانت بلية حب الرياسة دبت فى النفوس واستقرت فى الصدور بسبب التنافس فى الأغراض ، فاختصم رجال الجيش . ثم وقع من الكوفيين ما وقع من الاستخفاف بأولياء أمورهم وكثرت وقائعهم فحملت رؤساؤهم إلى الشام لمعاوية رضى اللّه عنه فلم تفدهم نصيحته فبعثوا بهم إلى (حمص) لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد فأدبهم . ثم اتفق أهل الكوفة على خلع سعيد فخلع وتولى أبو موسى وبقى مع أهل الكوفة ينازعهم وينازعونه حتى مات سيدنا عثمان .

البصرة

وكان والى البصرة (أبو موسى الأشعرى) فعزله أيضا وولى عبد الله بن عامر فبعد قليل انقض أهل فارس على أميرهم عبد الله وقتلوه ثم غدر أهل (إصْطَخْر ، وخراسان) فسار إليهما عبد الله بن عامر وصالح أهلهما ثم انتقل لغيرهما من البلاد حتى مكن الله الأمن فى تلك الجهات . وبينما هو كذلك إذا بعبد الله بن سبأ اليهودى نزل على حكيم بن جبلة العبدى بآراء غير مقبولة فأوغر الصدور على سيدنا عثمان ثم طردوه فدار على الأمصار حتى أتى مصر وكان من أكبر الأسباب التى دعت لشق عصا الطاعة فيها والافتراق والاختلاف .

الشام

أما الشام فقد كان جمعها فى أول خلافته رضى الله عنه لمعاوية بن أبى سفيان فقام بالغزوات البرية والبحرية حتى بلغ عمورية وتمكن من الحصون التى بينها وبين طرسوس وإنطاكية ثم افتتح جزيرة قُبْرُس وكان المستعمل على غزو البحر عبد الله بن قيس فغزا خمسين غزوة لم ينكب فيها ، ثم انتهى لمرفأ من الروم فجاءوا فقتلوه . وبينما الحال كذلك خرج أبو ذر الغفارى فى الشام بمذهب يشبه مذهب الاشتراكيين الآن ، لأنه كان ينادى : يا معاشر الأغنياء واسوا الفقراء ، وكان يستدل بقوله تعالى : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾ [1] فشكا الأغنياء ما يلقونه إلى معاوية ، وحق لهم أن يشكوا ؛ لأن أول واجب على أهل السلطان تأمين الناس على حياتهم وأعراضهم وأموالهم وهذه الحال من أكبر مواضع الخوف ، فكتب إلى عثمان رضى الله عنه فى شأنه بما كتب فطلب منه أن يشخصه إليه فلما وصل المدينة ولاقى سيدنا عثمان رأى الأولى به أن يسيره إلى الرَّبذة فأقطعه قطعة من الإبل وأقام منفردا إلى أن مات .

مصر

أما مصر فقد كان فاتحها عمرو بن العاص فجعله سيدنا عثمان على الجند وولى عبد الله بن سعد خراجها فلم يتفقا فجمع سيدنا عثمان لابن سعد الخراج والجند وعزل ابن

(١) التوبة : ٢٤ : ٣٥ .

العاص عنها ثم رأى أن يغزو إفريقية فسير جيشا للغزو فيها وفتح ما شاء الله أن يفتح وقتل جرجير ملكها ، وما كاد هذا الحال يتسع ويستقر حتى وصلها عبد الله بن سبأ يحمل أسباب الفتنة ودواعى الشر كما سيجىء إليك .

فصـــل

تأمل تجد فى كل مصر من الأمصار بادرة كأن الدين وقع فى يد لا يفهمه أو فهمه وتغالى فيه أو لم يمتزج حبه بقلبه أو امتزج ولكن ضيق عقله ضلّ عن تصريفه . أو كأنما افتكت من المسلمين العزيمة الأصلية أو اختلت دعائم الاعتقاد القديم : فإما إفراط باسم الدين كمقالة أبى ذر الغفارى التى لا تنطبق على مصالح البشر ، وإما تفريط كالكلام فى التنفير والانحراف عن سيدنا عثمان رضى الله عنه كدعوى عبد الله بن سبأ والعياذ بالله .

يعجب الإنسان أن أهل الدعوة للخير أصبحوا وليس لهم قدرة على استعمال أى ضرب من ضروب القوة فى حمل الأمة على الآداب الدينية كأن نورها الذى كان اخترق القلوب نفد منها .

ساءت حال أمة انتقل بأسها من أعدائها لنفسها ، فهى أقرب إلى الفوضى من الإصلاح ، وأدعى للتفرقة من الالتئام ، والسبب العظيم لهذا البلاء الجسيم هى الفتن لعن الله مثيرها . ولذلك قال تعالى : ﴿ **والفتنة أشدُّ من القتل** ﴾ (1) وقال : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصَّة** ﴾ (2) وقيل فى الأثر : الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها .

قلنا : إن سيدنا عثمان ولى الخلافة واستمر ست سنين لا ينقم الناس عليه شيئاً وإنه لأحب إلى قريش من سيدنا عمر بن الخطاب ؛ لأن عمر رضى الله عنه كان شديدا عليهم فلما وليهم عثمان لان لهم ووصلهم ثم توانى فى أمر بعضهم لما رآه فيهم .

اضطره ظهور القالة وفشو المنكر فى الأمصار أن يستعمل عليها أقرباءه وأهل بيته فى الست الأواخر من عهد خلافته لاختصاص أولئك به أكثر من غيرهم فكان هذا العلاج من دواعى استفحال الداء وزيادة الانحراف عن باب الخلافة .

استكمل الفتح للأمة ، واستكمل الملك ، ونزل العرب بالأمصار على حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة ومصر ، فالمختصون بصحابة رسول الله وهم المهاجرون

---

(1) البقرة : ١٩١ . (2) الأنفال : ٢٥ .

والأنصار من قريش وأهل الحجاز ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم يمتون بذلك ويتشرفون به ، ونعم الشرف ، وسائر العرب الذين كان لهم فى الفتوح قدم يرون لأنفسهم فضلا ويفخرون به وحق لهم الفخر .

نبههم لذلك ولفتهم لمعنى التفضيل والسابقة انغلاق باب الفتوح وتناسى تلك الحال وذل العدو وزواله واستفحال الدعوة الإسلامية لهم وعظم ملكها فيهم ، فأخذت عروق الجاهلية تنبض ، وأنوف نفوسهم تشمخ .

وافق ذلك أياما من أواخر عهد سيدنا عثمان وقد كانوا أخذوا عليه قبلها إخراج أبى ذر الغِفَارى إلى الرَّبَذَة وقد سمعت خبره وزيادة النداء الأول يوم الجمعة وإنما فعله لكثرة المسلمين وانتشارهم فى أنحاء المدينة وإتمامه الصلاة فى منى وعرفة ، وكان الأمر فى عهد رسول اللّه والخليفتين على القصر . وتنازله لمروان بن الحكم عن خمس مغانم إفريقية ولم يمنع الشرع أن ينفل من شاء من المسلمين ، وقد كان رسول اللّه ينفل . نقموا هذه الأمور من سيدنا عثمان ولم يكن فيها ما يشينه ولم يخرج فى شىء منها عن حدود الشرع ، ولكن أولئك قوم بطروا فطلبوا لأنفسهم ما ليس لهم فحقت عليهم العقوبة .

قال الإمام العينى فى تاريخه عقود الجمان ، وقد ذكر السبب فى ذلك ، ما معناه : روى أرباب السير منهم هشام ، والواقدى ، وسيف ، وغيرهم عن عقبة عن يزيد الفقعسى : كان عبد اللّه بن سبأ يهوديا من أهل صنعاء وأمه يهودية سوداء أسلم فى أول خلافة سيدنا عثمان بن عفان وكان قصده بوار الإسلام ، كان ينتقل فى البلدان يحاول الفتنة ، فطاف الحجاز والشام والعراق ومصر ، وطاف كورها وأظهر الأمر بالمعروف وهو ينفر الناس من عثمان ، فخرج مع جماعة من مصر من أهل خربتا وهو أول من قدم المدينة يحاسب سيدنا عثمان على أعمال عماله الأمويين بالأمصار .

دارت رحى الفتنة فى المدينة وامتلأت كلاما فى حق أمراء الأمصار وبعث سيدنا عثمان إلى عماله أن يوافوا الموسم فقدموا عليه وهم : عبد اللّه بن عامر أمير البصرة . وعبد اللّه بن سعد أمير مصر . ومعاوية بن أبى سفيان أمير الشام ، وبعد كلام كان معهم استشارهم فى تسكين هذه الفتنة ، فقال عبد اللّه بن عامر : اشغلهم بالجهاد . وقال ابن سعد : استصلحهم بالمال . وقال معاوية : اجعل كفايتهم لأمرائهم وأنا أكفيك الشام . وقال عمرو : أرى أنك قد لنت ورضيت عليهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى أن تلزم طريق صاحبيك فتشتد فى موضع الشدة وتلين فى موضع اللين فقال سيدنا عثمان : قد

سمعت كل ما أشرتم به ولكل أمر باب يؤتى منه . إن هذا الأمر الذى يخاف منه على هذه الأمة كائن . وإن بابه الذى يغلق عليه ليفتحن فنكفكفه باللين إلا فى حدود الله فإن فتح فلا يكونن لأحد على حجة ، وقد علم الله أنى لم آل الناس خيرا وأن رحى الفتنة دائرة فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها . سكنوا الناس . وهبوا لهم حقوقهم فإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا . ثم نفر ونفر الأمراء إلى بلادهم .

أما أصحاب الفتنة الناقمون على عمال الأمصار المنحرفون عن عثمان فلم يرتدعوا عن غيهم وجاءتهم كتب من المنحرفين بالمدينة يقولون لهم فيها : اقدموا علينا فإن الجهاد عندنا ، فاتعد جميعهم شهر شوال يخرجون فيه مظهرين الحج .

اجتمع الكل بالمدينة : ٥٠٠ من مصر وعليهم الغافقى بن حرب ، ومثلهم من الكوفة ، وكذلك من أهل البصرة . وكل هذه الطوائف متفقة على الانحراف عن عثمان مختلفة فيمن يتولى الخلافة بعده لكل منهم رأى وهوى : فالكوفيون يريدون طلحة بن عبيد الله ، والبصريون الزبير بن العوام . والمصريون عليا فجاء كل قبيلة لمن لهم فيه هوى وسلموا عليه وعرضوا عليه أمرهم وأتى أهل مصر عليا فسلموا عليه وعرضوا عليه أمرهم فصاح بالمصريين وطردهم وقال : لقد علم الصالحون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ ، وكذلك قال طلحة والزبير . ثم استقر الحال على الإذعان بما طلبوه من إعفائهم من العمال الذين يطلبون عزلهم واستعمل على مصر محمد بن أبى بكر ، وكتب له عهده ، وخرج محمد ومن معه يريدون مصر ، وانصرف الجميع مظهرين الرجوع .

لم تتفرق أهل المدينة إلا والتكبير فى نواحيها وقد أحيط بدار عثمان ونودى : من كف يده فهو آمن . فلزم الناس بيوتهم واستغربوا من رجوع الثوار بعد الإذعان ، وجاء محمد بن مسلمة المصريين وقال لهم ما الذى رجعكم بعد ذهابكم ؟ فقالوا : أخذنا كتابا من البريد مع خادم عثمان لعامل مصر يأمره فيه بقتلنا ، فسأل البصريين عن مجيئهم فقالوا : لنصر إخواننا . وكذلك قال الكوفيون ، فقال كيف علمتم بما لقى أهل مصر وكلكم من صاحبه على مراحل حتى رجعتم إلينا جميعا ؟ هذا أمر أبرم بليل فقالوا : اجعلوه كيف شئتم لا حاجة لنا بهذا الرجل ليعتزلنا فأخذوا منهم الكتاب . فإذا هو من سيدنا عثمان إلى عبد الله بن أبى سرح . يقول له فيه : إذا أتاك محمد وفلان وفلان فاحتل فى قتلهم . فقالوا لهم : وكيف اتصل بكم هذا الكتاب ؟ قالوا : بينما نحن مع محمد بن أبى بكر على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة وإذا بغلام أسود على بعير يخبط البعير خبطا كأنه رجل يطلب

أو يطلب ، فقلنا له ما قصتك وما شأنك كأنك هارب أو طالب ؟ فتلجلج ، فمرة يقول أنا غلام أمير المؤمنين ومرة يقول أنا غلام مروان . ففتشناه فوجدنا معه إداوة ييست فيها شيء يقلقل فشققناها فإذا فيها ذلك الكتاب . فلم يبق أحد من أهل المدينة إلا حنق على سيدنا عثمان وسألوه فى ذلك فقال والله ما كتبت ولا أمرت ولا علمت فقال (على) ومن معه من كبار الصحابة : صدق عثمان فقال المصريون : إذاً من كتبه ؟ فقال عثمان : لا أدرى . قالوا : أفيجترأ عليك ، ويبعث غلامك ، وجمل من إبل الصدقة ، وينقش على خاتمك ، ويكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظيمة وأنت لا تدرى ؟ قال : نعم قالوا : ما أنت إلا صادق أو كاذب : فإن كنت كاذبا فقد استحققت الخلع لما أمرت به من قتلنا : وإن كنت صادقا فقد استحققت الخلع لضعفك عن هذا الأمر ولا ينبغى أن يترك هذا الأمر بيد من تقطع الأمور دونه فاخلع نفسك فقال : لا أخلع قميصا ألبسنيه الله .

امتد الشقاق بقوة سلطان المغالبين فلم يلهم الله أحدا أن يحقق أمر هذا الكتاب ويبين للناس ما اختلفوا فيه ويكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه ، أو يتفكر فى كيفية رجوع هذه الفرق معا بعد افتراقها وبعد سلوكها طرقا مختلفة ، أو يكشف الغطاء عن ذلك السم السارى من قديم الذى دعا مثل عبد الله بن سبأ للخروج والتجول فى الأمصار ، أو يوفق الله جماعة من الصحابة إلى الوقوف أمام هذه الفتنة وقد كشرت عن نابها ، بل ضاع السداد وضعف الرشاد وقامت نزعة الحرب بين أهل الدين وقد كان إطفاء مثل هذه النار من أسهل الأمور قبل ذلك على أى رجل من الجمهور الإسلامى .

دافع سيدنا عثمان رضى الله عنه كثيرا عن نفسه وكتب للناس كتابا قرأه عليهم ابن عباس يوم التروية وأكثر من الإذعان إلى مطالبهم وكلما سدَّ بابا فتحوا غيره حتى منعوا عنه الماء ، فجاءهم على رضى الله عنه فقال : يأيها الناس ، كيف تقطعون الماء والمادة والروم وفارس لتأسر وتطعم وتسقى ؟ فقالوا : والله ولا نعمة عين .

ثم إن الثوار منعوا الناس عن مخالطته ومكالمته وقصدوا باب داره وحصروه فقاتلهم جمع من أولاد الصحابة ، فأمر عثمان بالكف عن القتال انظر إلى وازع الدين الذى كان فى نفس هذا الخليفة رضى الله عنه جعله يؤثره على أمور الدنيا وإن أفضى ذلك للهلاك وحده دون الكافة فمنع المقاتلين عنه ثم جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى ، ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة

وحفظا للألفة التى بها حفظ الكلمة ولو أدى ذلك لهلاكه .

ثم أحرق الثوار الباب ودخلوا عليه وهو يقرأ القرآن فلم يشغله ما رأى عن تلاوته ثم قال : إن رسول الله ﷺ قد عهد إلىَّ عهدا فأنا صابر عليه . وأمرهم بالانصراف ، ثم دخل على عثمان الذين كتب عليهم الشقاء فقتلوا هذه النفس الزكية .

قتلوا خليفتهم ، وزوج بنتى نبيهم ، ذا النورين ، قتلوه ظلما . فقاتله ظالم ، وخاذله معذور . مات شهيدا مبشرا بالجنة على بلوى واختبار بعد السب والتعطيش والحصر الشديد والمنع من القوت . وأطنوا [1] أصبعين من أصابع زوجته . ولم يكن ما فعله من تجهيز جيش العسرة ، وحمد رسول الله مسعاه ، وقوله له : ما على عثمان بن عفان ما عمل بعد اليوم ، ولا على احتجاجه عليهم ولا إفحامه ـ رادعا لهم ولا كاسرا من غربهم حتى وطئوا أضلاعه بعد موته ، وألقوا على التراب جسده بعد سحبه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

نعم . قد قرر الإسلام العبودية لله وحده . والحرية فى ضمن دائرة الشريعة والمساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات وإطلاق الإرادة والفكر من سلطة كل زعيم وسيطرة كل رئيس ، ومقتضى ذلك أن يكون المسلم عبدا كاملا لله ، حرا كاملا بالنسة لما سواه .

نعم . كان الصحابة يراجعون النبى ﷺ الرأى قائلين له : هل هذا شىء قلته من عندك يا رسول الله أو نزل به وحى ؟ فإن قال : هو من عندى جاءوا بما عندهم من الرأى ، وربما رجع النبى إلى رأيهم كما قد جرى فى بعض الغزوات والأمور المعاشية وقوله ﷺ : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » .

نعم . وقع أبلغ من هذا أن النبى ﷺ طعن سواد بن غزية بقدح فى بطنه وهو مكشوف ليستوى فى الصف يوم بدر فقال : قد أوجعتنى فأقدنى فكشف له عن بطنه ، وأذن للناس قبل موته بأن من له حق عنده فليطلبه وإذا كان نحو ضرب فليقتص منه . وأذن لرجل أن يضربه حين ادعى أنه ضربه يوما فقال : إننى كنت عارى الكتف أو الظهر فألقى الرداء عن عاتقه الشريف . وشأن الرجلين أن يتمسحا به ويتوصلا لهذا الشرف العظيم . نعم . إن الصديق والفاروق اقتديا بالنبى ﷺ فى مثل هذه الأعمال فأوقف سيدنا عمر بن

(1) أطنوا : قطعوا .

الخطاب (عليا) مع رجل من آحاد اليهود للمحاكمة فعاتبه على رضى الله عنه بعد المحاكمة بأن لم يسو بينه وبين خصمه : كناه هو وسمى ذاك ، وفى التكنية تعظيم . وراجعته امرأة وهو على المنبر فى مسألة تقدير المهر محتجة بآية : **﴿ وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً ﴾** [1] فقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

كان هذا كله وحسن التربية شائع فى الأمة على منهاج الكتاب والسنة وكل فرد حاصل على دقائق الأدب . والتهذيب علما وعملا وتخلقا وتحققا جار على أكمل نمط . وطهارة الظاهر تحاكى طهارة الباطن صافية عن الكدر . والآداب راقية بذويها وأهلها إلى مصاف الملك فضلا عن البشر .

أهين بهذا التطرف والغلو فى الافتئات [2] مقام الخلافة الذى كان حفاظ الدين . وكانت تلك الصدمة الأولى . أهين ذلك المنصب الشريف الذى كان إليه المرجع فى حل المشكلات ، والضياء فى ظلمة الشبهات . واحتلبوا بذلك دما لا تطير رغوته ، ولا تسكن فورته ، ولا يكل طالبه . وكيف يضيع دمه وقد انفصمت بذلك عروة الوحدة ، وانحلت رابطة الاجتماع ، ونجم عن التفريق فى الخلافة الافتراق فى الدين نفسه ؟ فآلت الأمة إلى الشقاق ، وافترقت على مئات من المذاهب المختلفة ، وابتلى الدين وأهله بالمنازعة التى انقضى الزمان والأمة تتكلف علاجها ولا تعان عليه ، وصدق (على) رضى الله عنه فى قوله : إن قتلته ثلموا [3] فى الإسلام ثلمة لا تسد إلى يوم القيامة ومن يَرُدّ التعدد إلى توحد ، والافتراق إلى اجتماع وهو من وظائف الخلافة التى حدث عنها هذا الشقاق .

من غُصّ دَاوَى بشربِ الماء غصتَه ... فكيف يصنع من قد غُصّ بالماء

هذه نتيجة الخروج على أولياء الأمور وأهل السلطان . فليندب المسلمون حظهم بعد هذه البلوى التى أصابت مستقر الحقيقة بسبب الإسراف فى حرية الدين والفكر إلى هذا المقدار ، وجعل مزاياه الشريفة من العوادى عليه بسبب سوء الاستعمال . وليتق الله كل واحد من الزعانف [4] الذين لعبت بهم الأهواء ، وأشعرت قلوبهم العداء بمثل هذه الظنون السيئة .

استقامت الدنيا فى عهد الصاحبين ، ففتحت الفتوحات العظيمة التى لا تزال تفاخر بها الأجيال المتأخرة ، ولو استمر الحال على ما كان لأمسى الدين الإسلامى نطاقا على

(١) النساء : ٢٠ .
(٢) الافتئات : السبق إلى الشىء دون الرأى .
(٣) ثلمة : عنب .
(٤) الزعانف : قليل الشأن .

الكرة الأرضية لا بدعوة الغلبة والقهر على لسان السيف كما يدعون ، ولكن بدعوة الحجة والبرهان على لسان الحق إن كانوا يعقلون .

هذه بعض آياته : اتفاق ووفاق ، وإرادة سامية . وحرية فكر مطلقة . ومحافظة على الجار والجوار ، ومحبة اتصلت بأعماق القلوب . وجد فى العمل وكراهة للقعود والكسل . وميزان قسط قائم بالحق بين الناس . وبصيرة فى كل شىء . وقواعد عدل تمنع الاسترقاق وتحظر الاستعباد . وحفظ عهود وصدق ووفاء . وتحريم للفواحش ما ظهر منها وما بطن . فلا عذر ولا خيانة . ولا خديعة ولا غيلة [1] . والدين بين المسلمين النصيحة الخالصة ، يتواصون بالحق ويتواصون بالصبر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

أية أمة ترى هذا ولا تهاجر فى طلبه وتفتخر بعمله وتتباهى بالوصل إليه ولكن قضى الله أن يسلط على الأمة شرارها ، فتصبح ولا تتواصى بحق ولا تعتصم بصبر ولا تتناصح فى خير . بل نعيش أفراداً ونعمل (إن كنا نعمل) أفرادا كأن لم تجمعنا مع أحد صلة ولم تضمنا إليه وشيجة ، فضلا عن المذاهب المتعددة التى انتشرت بين المسلمين ، وأخرجتهم عن كثير من مزايا الدين ، بل أوقفتهم على أبواب الكفر والزندقة والكذب على الله ، والزور والافتراء على أنبيائه وأوليائه وأصبح الحديث بالتظنن : كل واحد يأتيك منه بما ينصر مذهبه ، ويؤيد طريقته ، حتى أصبحنا والحال كما قيل عن المسلمين ـ لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين .

---

(١) غيله : قتل لسلب المال .

سيدنا على بن أبى طالب

هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمى القرشى ، بن عم رسول الله ﷺ ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، وهو أول خليفة أبواه هاشميان . ولد رضى الله عنه فى السنة الثانية والثلاثين من ميلاد رسول الله ﷺ وبويع له بالخلافة لخمس بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وثلاثين ، فأقام بها رضى الله عنه نحوا من خمس سنين لم يصف له فيها يوم ، ﴿ وكان أمر الله قدرا مقدورا ﴾ [1] .

بعث عليه الصلاة والسلام و (على) رضى الله عنه دون البلوغ . وكان معه فى منزله فاهتدى بهديه وسلك سبيله . ولم يتدنس بدنس الجاهلية . ولم يعبد وثنا قط . فهو أحد السابقين إلى الإسلام وأحد العلماء الربانيين . والزهاد المذكورين . والخطباء المعروفين . وأحد من جمع القرآن الكريم . وأخو رسول الله فى المؤاخاة . أخرج الترمذى عن ابن عمه قال : آخى رسول الله بين أصحابه فجاء (على) تدمع عيناه فقال : آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بينى وبين أحد ؟ فقال النبى : أنت أخى فى الدنيا والآخرة .

شهد الغزوات كلها إلا غزوة تبوك فإنه استخلفه النبى على المدينة فلما أسف رضى الله عنه قال له النبى ﷺ : أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى كان له القدم الثابتة فى جميع الغزوات : فهو أول المبارزين يوم بدر . وأول الثابتين يوم أحد وحنين . أصابته فيه ست عشرة ضربة . وأول الفاتحين يوم خيبر . وأول السابقين يوم الفتح . أنابه عنه ﷺ فى الإقامة بمكة أياما بعد هجرته أدى فيها الأمانات والودائع وقام بالوصايا . فلما خرج النبى ﷺ افتداه بنفسه ، ونام على فراشه والمشركون يظنون أنهم يحاصرون النبى ﷺ ، حتى أصبحوا ووجدوا عليا رضى الله عنه . ثم أنابه أيضا فى قراءة أوائل التوبة فى موسم الحج إيذانا ببراءة رسوله من المشركين .

ماذا يقول القائل فى هذا الإمام ؟ وكل وصاف منسوب إلى العجز لتقصيره عن الغاية مهما انتهى به القول : فهو أول فى العلوم . أول فى الشجاعة . أول فى السخاء . أول فى الحلم والصفح . أول فى الفصاحة . أول فى الزهد . أول فى العبادة . أول فى التدبير

---

(١) الأحزاب : ٣٨ .

والسياسة . أشد الناس رأيا وأصحهم تدبيرا لولا تقاه لكان أدهى العرب .

كأنما أفرغ من كل قلب . فهو محبوب إلى كل نفس . ظهر من حجاب العظمة بمعاليه فاستولى الاضطراب على الأذهان والمدارك . وذهب الناس فيه مذاهب خرجت بهم عن حدود العقل والشريعة . أهل الذمة تحبه والفلاسفة تعظمه . وملوك الروم تصوره فى بيوتها وبيعها . ورؤساء الجيوش تكتب اسمه على سيوفها . كأنما هو فأل الخير وآية النصر والظفر .

لابد للقارئ أن يستحضر فى ذهنه الحال التى كان عليها المسلمون بعد قتل خليفتهم المظلوم ، ويشخص فى فكره حالة الحيرة التى أطلق لها الذهول العنان (١) ، فجالت فى الضمائر بما يسعه الإمكان : فوضى لا ملجأ ولا سند .

حيارى لا قوة ولا عضد وأمامهم فتنة كالحسكة شاكة من كل طرف . والاضطراب قد ألم بمستقبلهم وماضيهم وحاضرهم .

قتل سيدنا عثمان كما علمت فبقى (الغافقى بن حرب) أميرا على المدينة خمسة أيام . وعلى ممتنع عن البيعة . وأتى الكوفيون الزبير والبصريون طلحة فامتنعا أيضا . وأهل الأمصار رأوا أن رجوعهم إلى الأمصار بغير إمام يوقع الخلف والفساد ، فبقوا وهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا وهرب مروان وبنو أمية ولحقوا بالشام ومعهم قميص عثمان وأصابع زوجته ، فأثاروا الشعور وهيجوا الأفكار ونصبوه على منبر دمشق وقامت الناس تطلب القود . وطار الخبر لمكة واتصل بأم المؤمنين عائشة رضى اللّه عنها وهى عائدة . ونادوا فى المدينة برجوع الأعراب إلى بلادهم فأبوا .

هكذا كانت الحال فى هذه الأمة التى فاضت ينابيع حياتها حتى شملتها فجمعت شملها . وكانت تفاخر أهل السماء فى رفعتها وأهل الأرض بمدنيتها .

ثم اجتمع كثير من المهاجرين والأنصار ، وأتوا عليا يبايعونه فأبى لأنه قدر المستقبل حق قدره ، وعلم أنه إنما يستقبل فتنة سائرة لا مرد لها فقال لهم : التمسوا غيرى أو قال : أكون وزيرا لكم خير من أن أكون أميرا ومن اخترتم رضيته فإنا مستقبلون أمرا له وجوه وله ألوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول فناشدوه اللّه والدين وألحوا عليه وقالوا : لا نعلم أحق منك ولا نختار غيرك فأبى فخوفوه اللّه فى مراقبة الإسلام حتى غلبوه فى

(١) العنان : لجام الفرس .

ذلك فقال : قد أجبتكم .

رأوا أن هذا الأمر إلا بمبايعة الزبير وطلحة فذهب إليهما جماعة وأتوا بهما فبايعاه .

قال قوم : كرها وقال قوم : اشترطا عليه إقامة الحدود يريدون القود من قتلة عثمان .

ثم قام الناس فبايعوه ، وتخلف عن بيعته جمع كبير من أكابر الصحابة فى المدينة : كسعد بن أبى وقاص ، وسعد بن زيد ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، والمغيرة بن شعبة ، وعبد الله بن سلام ، وقدامة بن مظعون ، وأبى سعيد الخدرى ، وكعب بن عجرة ، وكعب بن مالك ، والنعمان بن بشير ، وحسان بن ثابت ، ومسلمة بن مخلد ، وفضالة بن عبيد وغيرهم .

رأى الإمام علىّ رضى الله عنه أن بيعته تمت بالأغلبية فقام وخطب الناس ودعاهم إلى الخير وحذرهم الشر وبدأ فى أعماله .

أعماله فى خلافته

بدأ بتغيير عمال الأمصار ولم يسمع رأى القائلين باستبقائهم حتى يستقر الأمر وكيف لا يبدأ بهم وهم داعية الفرقة وسبب الشتات ومن نجم من بينهم الاختلاف : فبعث على (البصرة) عثمان بن حنيف الأنصارى بدل عبد الله بن عامر ، وعلى (الكوفة) عمارة بن شهاب بدل أبى موسى الأشعرى ، وعلى (اليمن) عبيد الله بن عباس ، وعلى (الشام) سهل بن حنيف بدل معاوية بن أبى سفيان ، وعلى (مصر) قيس بن سعد بن عبادة بدل عبد الله بن سعد .

فأما صاحبا (البصرة واليمن) فلم يردهما عنهما أحد . فأقاما . وافترقت مصر على صاحبها : ففرقة دخلت فى الجماعة ، وفرقة اعتزلت وقالت : لا نكون مع (على) إلا إن قتل قتلة عثمان ، وفرقة قالت : نحن من (على) إلا أن استقاد من إخواننا . ولاقى صاحب (الكوفة وهو قريب منها طليحة بن خويلد الأسدى فقال له : ارجع فإن القوم لا يريدون بأميرهم بدلا فرجع ، وقابل صاحب الشام عند تبوك خيلا عليها رجال من الشام فردوه وامتنع سيدنا معاوية عن مبايعة (على) لأنه ظن فيه هوادة فى نصرة عثمان على قاتليه ومعاوية يرى لنفسه حقا عظيما فى القصاص من قتله عثمان لأنه وليه والله تعالى يقول : ﴿ **ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل** ﴾ [1] ولم ير فى

---

(١) الإسراء : ٣٣ .

الامتناع عن البيعة خروجا على الإمام لعدم انعقاد البيعة لتخلف كثير من أكابر الصحابة عنها ، ولم تكن باجماع أولى الحل والعقد فأرسل رجلا بطو مار ليس فيه شيء من الكتابة وعنوانه : من معاوية إلى على بن أبى طالب . وأمره إذا قدم المدينة أن يرفعه ليعلم الناس أنه مخالف ففعل الرجل ما أمر به حتى رفعه إلى على رضى الله عنه ففضه فلم يجد فيه كتابا . فقال للرسول ما وراءك ؟ فقال : آمن أنا ؟ قال : نعم . قال : تركت قوما لا يرضون إلا بالقود . قال : وممن ؟ قال : منك . وتركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان منصوبا على منبر دمشق . فقال : اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان . قد نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله .

أصبحت الأمة مضطربة مختلفة المقاصد ووجهتها كلها الحق وهو ضالتها : معاوية يرى أن البيعة لم تنعقد ، والإمام يرى انعقادها ، وطلحة والزبير يرفضانها لأنهما اشترطا إقامة الحد على قتلة عثمان ، والإمام يقول : لاقدرة لى على شيء مما تريدون حتى يهدأ الناس وتنظر الأمور وتؤخذ الحقوق . وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها منادية فى الناس بدم عثمان ؛ لأنها متحققة بأنه قتل مظلوما فى البلد الذى يأمن فيه الطير فى الشهر الحرام .

خطبت أم المؤمنين فى الناس وانتصرت لسيدنا عثمان وطلبت القود له من الغوغاء والعبيد الذين اجتمعوا عليه وتبعها كثير ؛ لأن معظم الناس ذهبت عقولها ولم يبق من خصال العرب الكريمة إلا أشدها ، ثوران فى العقول لأخذ الثأر وأكثر الصحابة يرون أن أول واجب على المسلمين فى هذا الوقت تتبع القتلة والقصاص منهم إقامة لحد الله الذى لا يصح تأخيره مهما نتج منه . جعلوا إقامة هذا فى عنق كل مسلم وهو ملزم بالقيام بما يوصله إليه ، ولذلك لم ير الزبير ولا طلحة فى هذا خروجا على الإمام لأن البيعة لم تنعقد له .

الوقت الذى يئول فيه أمر الانتقاض على الخليفة إلى قتله ويتناسى الناس فيه ذلك الحال القديم من احترامه وتكون فيه الأفكار مرتعا لخطرات الخروج من كل طرف لا يبعد أن يكون من مصائب الإمام (على) فيه رميه بأنه منحرف عن الحق فى حق قتلة عثمان .

استقام رأى طلحة والزبير وأم المؤمنين على قصد البصرة فقصدوها فلما قاربوها راسلها أميرها فأعلمته أنها جاءت لتخبر الناس بمقتل عثمان وأن الغوغاء استحلوا الدم الحرام وسفكوه وقتلوا إمام المسلمين بلا ترة [2] ولا غدر وأظهر الزبير وطلحة أنهما بايعا

---

(١) الإسراء : ٣٣ .

(٢) ترة : قطيعة .

كرها ، فصمم صاحب البصرة أولا على منعها ثم أراد أن يعلم هل أحد فى البصرة يمالىء طلحة والزبير فدس لأهلها واحدا من الناس فظهر له أن فيها أنصارا لهذا الأمر ، فخرج بمن معه حتى نزل ميسرة المربد ، وأقبلت أم المؤمنين فنزلت ميمنته ، وخطبت الناس ، فتبعها جمع من أصحاب عثمان ، وخرج لهم حكيم بن جبلة من فرسان البصرة ، وقاتلهم حتى إذا ذاقوا حر السلاح تنادوا إلى الصلح حتى يرسلوا إلى المدينة ليعلموا أكانت بيعة طلحة والزبير طوعا أو كرها فإن ثبت أنهما أكرها ترك ابن حنيف البصرة ، فذهب كعب بن سور قاضى البصرة رسولا من عند أهلها فلما قدم المدينة قال : يأهل المدينة ، أنا رسول أهل البصرة إليكم أسألكم أأكره طلحة والزبير على البيعة أم أتياها طائعين ؟ فقال أسامة بن زيد بأنهما أكرها فلقى أسامة بن زيد من والى المدينة سهل بن حنيف أخى عثمان بن حنيف إهانة . وبلغ هذا الخبر عليا فأرسل إلى عثمان بن حنيف يقول : والله ما أكرها على فرقة ، ولقد أكرها على جماعة وفضل فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا . فلما ذاع خبر إكراه الزبير وطلحة طلبا من ابن حنيف أن يخرج من البصرة فامتنع محتجا بكتاب من (على) . فاستولوا فى ليلة على البصرة وحبسوا ابن حنيف فبلغ ذلك حكيما فأقبل وقاتل حتى قتل كثير . ثم أقامت أم المؤمنين ومن معها بالبصرة .

كل هذا والإمام بالمدينة يعبى جيشه إلى الشام فلما بلغه الخبر دعا وجوه أهل المدينة لأنه يرجو أن يلحق الزبير وطلحة قبل أن يصلا البصرة فخف قوم وتثاقل قوم وظهر آخرون برأى مثل أبى موسى الأشعرى وقد سألوه الخروج والقتال مع (على) فقال : إن بيعة عثمان لفى عنقى وعنق صاحبكما فإن لم يكن بد من قتال فلا نقاتل أحدا حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا .

أصبحت هذه الفتنة صماء لا يعلم فيها أكان النائم خيرا من اليقظان . أم القائم خيرا من القاعد . فكم من رجل أغمد السيف وآخر نصل السهم . وكثر الجدال : فمن محرض على الخروج مع أمير المؤمنين ، ومن مثبط عنه حتى قام القعقاع بن عمرو وقال : (أيها الناس ، لابد من إمارة تنظم الناس وتنزع الظالم وتعز المظلوم وهو يدعوكم لتنظروا فيها بينه وبين صاحبيه وهو المأمون على الأمة الفقيه فى الدين فمن نهض إليه فإنا سائرون معه) ثم قال الحسن بن على رضى الله عنه : أجيبوا دعوة أميركم وسيروا إلى إخوانكم فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه والله لأن يدعيه أولو النهى أمثل فى العاجل والآجل وخير

في العاقبة فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم ، وإن أمير المؤمنين يقول : قد خرجت مخرجي هذا ظالما أو مظلوما وإني أذكر الله رجلا رعى حق الله إلا نفر فإن وجدني مظلوما أعانني وإن وجدني ظالما أخذ مني . والله إن طلحة والزبير أول من بايعني وأول من غدر . فهل استأثرت بمال وأبدلت حكما فانفروا فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر فأثر فيهم هذا القول ورضوا بالخروج فنفر معه قريب من تسعة آلاف ثلثهم في نهر الفرات والباقون ركبوا . فالتقوا بأمير المؤمنين فرحب بهم وأثنى عليهم ثم ندب القعقاع بن عمرو ليكون بينه وبين طلحة والزبير فقدم القعقاع البصرة وبدأ بأم المؤمنين فقال : أي أمه ما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أي بني ، الإصلاح بين الناس ، قال فابعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما ، فبعثت إليهما فحضرا فقال القعقاع : إني سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت الإصلاح فهل أنتما متابعان ؟ قالا : نعم قال : فأخبراني ماوجه هذا الإصلاح ؟ قالا قتلة عثمان ؛ فإن هذا الأمر إن ترك كان تركا للقرآن . قال : قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة وأنتما قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكما اليوم . قتلتم ستمائة رجل فغضب لهم ستة آلاف فاعتزلوكم وطلبتم حرقوص ابن زهير فمنعه ستة آلاف فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون ، وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذى حذرتم وقربتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون . وهذا أمر دواؤه التسكين فإن سكن اختلجوا فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر ، وإن أبيتم فعلامة شر . قالوا أصبت وأحسنت فإن رجع (علي) وهو على مثل رأيك صلح الأمر . فرجع إلى علي وأخبره الخبر وأشرف القوم على الصلح وأقبلت الوفود من كل جهة وأصبح الكل متفقين على الصلح .

سمع بذلك السبيئة . أصحاب ابن سبأ ، وتحققوا أن الصلح إنما يعود عليهم بالوبال لأنه إن تم كان على قتلهم لأنهم هم الذين أثاروا أمر عثمان فباتوا شر ليلة وقد أشرفوا على الهلكة . باتوا يتشاورون فلم يجدوا غير انتشاب الحرب ثم أصبح الناس والتقى الجيشان خارج البصرة وخرج الزبير على فرسه بين الجيشين فخرج إليه عليٌّ حتى اختلفت أعناق دوابهما فقال علي للزبير : لعمري لقد أعددتما سلاحا ورجالا إن كنتما أعددتما عند الله عذرا فاتقيا الله : « ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » ألم أكن أخاكما في دينكما تحرمان دمي وأحرم دمكما فهل من حدث أحل ذلك ؟ فقال طلحة : ألبت على عثمان ، فلعن عليٌّ قتلة عثمان . ثم ذكر الزبير بأشياء منها أنه قال له : أتذكر يوم مررت مع رسول الله ﷺ في بني غنم فنظر إليَّ فضحك وضحكت إليه فقلت له : لا

يدع ابن أبى طالب زهوه فقال لك رسول الله ﷺ : « ليس بمزه لتقاتلنه وأنت ظالم » . فرجع الزبير وهو حالف ألا يقاتل عليا . وشعر أنه أخطأ فى اجتهاده وأصبح الرجوع للحق أولى لأنه يعمل لله ثم رجع الناس والجميع لا يشكون فى الصلح وباتوا بأهنأ ليلة وبات الدخلاء بأسوأ حال .

فلما كان الغلس قاموا من غير أن يشعر بهم أحد وقصد مضرهم مضر البصرة وربيعتهم ربيعة البصرة . ويمنهم يمن البصرة وأعملوا السلاح وثار كل قوم فى وجوه أصحابهم ودسوا لكل طرف من يعلن الخبر فسأل طلحة والزبير عن الخبر فقيل لهما : طرقنا أهل الكوفة ليلا فقالا : قد علمنا أن عليا غير منته حتى يسفك الدماء وسأل على فقيل له : ما شعرنا إلا وقوم منهم يعملون فينا السلاح فقال : قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء . ونادى فى الناس أن كفوا وأخرجوا أم المؤمنين فى هودجها لعل الله يصلح بها فرموها بالنبل وهى تنادى « اذكروا الله والحساب » ولا يأبون إلا إقداما ، واشتدت حمية أهل البصرة لحرم رسول الله ﷺ ولم يكن محيص عن القتال ، فاقتتلوا وترك ابن الزبير القوم ، ورجع فتبعه من يعرف بابن جرموز وقتله وهو يصلى بوادى السباع .

أمسك بخطام الجمل كثير من أرباب الشجاعة والنجدة فقتل دونه نحو السبعين من قريش وعدد عظيم من غيرهم ، واشتد أهل الكوفة على الجمل لأنهم رأوا أن البصريين لا ينهزمون ما دام واقفا فرامه كثير وكل من رامه قتل ، فعقروا الجمل وتفرقوا عنه ، ثم حملوا هودجها وهو مثل القنفذ من كثرة السهام وظهرت آثار الكدر على أمير المؤمنين من هذا الحادث الذى لم يكن فيه لأحد مأرب ، ثم دفنت القتلى ، وأطاف عليهم (على) فلما أتى على طلحة قال : لهفى عليك أبا محمد إنا لله وإنا إليه راجعون والله لقد كنت أكره أن أرى قريشا صرعى وأنت كما قال الشاعر :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه   إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

سيرت أم المؤمنين إلى مكة ورجع علىّ إلى الكوفة التى اتخذها مقر خلافته وأرسل يدعو معاوية للدخول فيما دخل فيه الناس فامتنع حتى تقتل قتلة عثمان ويختار المسلمون لأنفسهم إماما .

سار الإمام لمحاربة أهل الشام وسار إليه معاوية والتقى الجيشان فى سهل صفين ومشت

السفراء بين الطرفين فكان فى سفراء الإمام من يجهل باب الإصلاح والفساد فاحتد فى الكلام حتى اشتد معاوية فى الخصام وقال : ما بيننا إلا السيف .

تناوشا وقتا حتى دخل شهر المحرم لسنة ٣٧ فعقد علىّ ومعاوية هدنة مدّتها شهر طمعا فى الصلح ، واختلفت بينهما الرسل ، وانتهت المخابرات على إصرار علىّ على مبايعته ثم النظر فى أمر قتلة عثمان ، وأصر معاوية على أخذ القود من قتلة عثمان أولا ثم النظر فى البيعة .

نبذ كل طرف عهد هدنته وابتدأ القتال أول يوم من صفر طول النهار وهكذا الأيام التالية ، فلما كان مساء الثلاثاء الثامن من صفر أجمع علىّ على ملاقاة جيش معاوية بجيشه كله ، فلما أصبحوا التقى الجيشان وانصرفا وكل غير غالب ، ثم دارت رحى الحرب بشدة يوم الخميس عاشر صفر ودخل الليل ولم يصد الناس عن القتال إقباله فاستمروا ، فلما أصبحوا كان الملل والسآمة فى جيش الشام أبين ورأى ذلك معاوية وعمرو بن العاص فقال عمرو : ندعوهم لكتاب الله أن يكون حكما بيننا وبينهم ، فرفعوا المصاحف على الرماح ونادى مناد يقول : هذا كتاب الله بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد أهل الشام ؟ من لثغور العراق بعد أهل العراق ؟ فلما رآه أصحاب علىّ اختلفوا ثم اتفقوا على إرسال رسول يسأل عما أريد من رفع المصاحف فقالوا : الرجوع إلى ما أمر الله فى كتابه : تبعثون رجلا ترضونه ونبعث رجلاً نرضاه يعملان بما فى كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه . ورضيت الناس بهذا وقبلت واختار أهل الشام عمرو بن العاص واختار أهل العراق أبا موسى الأشعرى ، وكتبوا بذلك عهدا وأن يجتمع الحكمان بدومة الجندل أو بِأَذْرُح فى رمضان .

انصرف الناس من هذا المكان المشئوم الذى اجتمعت فيه فئتان عظيمتان من المسلمين يقاتل بعضهم بعضا . ولكن الذى يخفف البلية أن الفريقين كانا يريدان الله بعملهما ؛ لأن الجميع لم يقصدوا فى محاربتهم غرضا دنيويا لإيثار باطل أولا لاستشعار حقد كما قد يتوهمه متوهم وينزع إليه ملحد ، وإنما اختلف اجتهادهم فى الحق ، وسفه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده فى الحق ، فاقتتلوا عليه وإن كان المصيب عليا فلم يكن معاوية قائما بقصد الباطل إنما قصد الحق ، وربما أخطئوا والكل كانوا فى مقاصدهم على حق .

رجع الإمام إلى الكوفة ووقع الشقاق فى جيشه . فريق راض بالتحكيم وفريق كاره له وهؤلاء اعتزلوا الإمام ونزلوا حروراء وبايعوا شبث بن ربعى على القتال وأن يكون الأمر

شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ثم جاءهم الإمام ونصحهم فثابوا إلى رأيه ودخلوا مصرهم .

انقضى الأجل وحل رمضان واجتمع الحكمان من السنة السابعة والثلاثين وخلع كل منهم صاحبه وأثبت عمرو معاوية ، وكتبا شيئاً رأى الإمام أن كل واحد اتبع فيه هواه ، وافترقا ، ولم يفيا بما تعهدا به ، فصمم على حرب معاوية مرة ثانية ولحق عمرو بالشام وبايعه مع أهلها .

أصبح الحال وجيش أمير المؤمنين موطن فتن كلما أطفئت واحدة قامت أخرى : فمن خوارج عليه . ومن غلاة فيه . ومن محاربين معه . ومن مقاتلين لأجله . والسلطة تسير إلى الوراء . وأصبح المقاتلون معه محرضين بالفصاحة والبلاغة لا بالطاعة والامتثال . كأنما حربهم معه مجاملة . ومعاوية بالشام مستقيم له الأمر وجنده أحسن جند فى طاعة الأمراء . بعث عمرو بن العاص إلى مصر وفيها قيس بن سعد بن عبادة فبايعه أهلها وهو أخبر بطرق استجلابهم . واعتزلت طائفة منهم وعليهم يزيد بن الحارث الدلجى (بخربتا) ووقع الخلاف بين الإمام وبين قيس فى شأنهم فعزله وولاها محمد بن أبى بكر . وعلم أمير المؤمنين أن معاوية بن حديج دخل مصر مطالبا بدم عثمان ، ورأى أن محمدا لا تمكنه المقاومة ، فولى على مصر الأشتر بن الحارث النخعى ، وكتب إليه عهدا جمع فيه سياسة الدنيا وصلاح الآخرة ، ولكن قدر الله موته فى الطريق ، وبقى فى مصر محمد بن أبى بكر حتى دخلها معاوية بن حديج وقتلوه وحرقوه فى جوف حمار . وبقتل محمد بن أبى بكر صارت مصر فى طاعة معاوية وبايع له أهلها : وبعد أن تم له ذلك سير إلى البصرة عبد الله بن الحضرمى ، وسير السرايا إلى بلاد أمير المؤمنين حتى دخلت الحجاز واليمن فى طاعة معاوية وأصبح الإمام فى وسط من الخلق مضطرم بالخلاف والشقاق : فريق شيعته ، وآخرون خوارج : لا عليا ولا معاوية ؛ وفريق منافق يظهر الطاعة ويخفى العداء . وصارت الجماعة إلى الفرقة والاختلاف ، وتغيرت الناس حتى سأل رجل عليا رضى الله عنه : ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبى بكر وعمر ؟ قال : لأن أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلى وأنا اليوم وال على مثلك . وملّ أمير المؤمنين الإمارة وسئمها ، وكأنه استشعر راحته من هذا الشقاق المتتابع والخلاف المستعصى بضمه إلى إخوانه من الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، فصرح بذلك فى كثير من خطبه ومواعظه الأخيرة .

اجتمع ثلاثة من الخوارج وتذاكروا ما حل بإخوانهم من الخوارج ، وكرهوا المقام

بعدهم ، فاتفقوا على أن يذهب أحدهم عبد الرحمن بن ملجم المرادى إلى الكوفة ليقتل عليا . ويذهب الثانى وهو البُرَك بن عبد الله إلى الشام فيقتل معاوية . ويذهب ثالثهم وهو عمرو بن بكر التميمى إلى مصر فيقتل عمرو بن العاص ، واتعدوا بينهم ليلة ينفذون فيها ما اتفقوا وهى صبح ليلة الجمعة لسبع عشرة خلون من رمضان . فأما البرك فذهب إلى معاوية وانتظره فى صلاة الصبح فضربه بالسيف فوقع فى إليته ولم يمته فأمر به معاوية فقتل . وأما عمرو بن بكر فذهب إلى عمرو بن العاص فلم يخرج إلى الصلاة لعذر أصابه واستناب خارجه بن حذافة السهمى فضربه الخارجى فقتله ظنا منه أنه عمرو فخاب ظنه وقبض عليه فقتل وضرب به المثل : « أراد عمرا وأراد الله خارجة » وقصد عبد الرحمن بن ملجم أشقى البرية الكوفة وانتظر عليا فبينما أمير المؤمنين ينادى الصلاة الصلاة إذ ضربه بسيفه قائلا : الحكم لله لا لك يا على ولا لأصحابك ، فقال على : لا يفوتنكم الرجل فشد عليه الناس وأخذوه ، ثم قال على : النفس بالنفس إن هلكت فاقتلوه كما قتلنى ضربة بضربة ولا تمثلوا به وإن بقيت رأيت فيه رأيى ، ثم دخل جندب فقال : إن فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن فقال : ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر . ثم دعا الحسن والحسين فقال لهما : أوصيكما بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تبكيا على شىء أزوى [1] عنكما ، وقلا الحق وارحما اليتيم وأغيثا الملهوف واصنعا للأخرى وكونا للظالم خصيما وللمظلوم ناصرا ، واعملا بما فى كتاب الله ولا تأخذكما فى الله لومة لائم . ثم نظر إلى محمد الأكبر ابن الحنفية فقال له : هل حفظت ما أوصيت به أخويك ؟ قال : نعم قال : فإنى أوصيك بمثله ، ثم لم يزل يذكر الله حتى مات فغسله ولداه الحسن والحسين وابن أخيه عبد الله بن جعفر وكفن فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص .

ليتأمل القارئ مقدار تبدل الأحوال واختلاف العقائد وتشتت الأهواء بالفتن . قتل سيدنا عمر رضى الله عنه سرا . وتولى بعده سيدنا عثمان فازداد الطيش حتى قتل رضى الله عنه جهرا . وتولى الإمام فكان بين لجاج [2] وعناد حتى جهزت لحربه الجيوش . وهكذا كل أمر يصعد منزلة منزلة حتى يبلغ الغاية ، ولا سبب لذلك إلا مفارقة أدب الدين . وقد مكث رضى الله عنه فى الإمارة ما شاء الله أن يمكث وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يظهرسخطه لمن عصى ورضاه عمن أطاع ، فأذاق الأمة كأس الضر فى نكث بيعة خليفة رسوله وقتله ظلما . أو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يمثل للمسلمين عيانا مزايا

(١) أزوى : ذهب .   (٢) اللجاج : التمادى .

الوحدة والمحبة والائتلاف ، وضرر التعدد والعدواة والشقاق . فأوقع بأسهم بينهم حتى يتوبوا ولا يعودوا لتفريق كلمتهم وشق العصا بينهم وبين أئمتهم وليعلم جماعة المسلمين فى كل آن أن نصر الله بعيد عنهم كلما فشلوا وتنازعوا وصرفوا التعلق عما كانت عليه الناس فى عهد السلف الصالح .

لو أصلحت دعوة من النفوس فاسدها وداوت مرضها لكان لدعوته رضى الله عنه فى صلاح حال المسلمين جميل الأثر . ولو ساعد الدهر لارتقت الأمة العربية فى عصره حتى شقت الفلك بارتقائها ونافست بوساطته الأمم فى كل شىء . وناهيك بمن جمعت بعض حكمه ففاقت بها الأسفار وتليت بعض معجزات بلاغته فزلزلت على لينها ما استحجر من الأرواح . أى وجدان لطيف هو يخاطب الناس بما يقيمهم ويعينهم وينعشهم ويرقى بهم بسلم البرهان إلى الكمال . تنغلق الأفكار دون الإتيان بمثل عهده رضى الله عنه للأشتر النخعى الذى ملأه بالأوامر الصادعة والزواجر الرادعة وطالب الناس بالطاعة عليه وحملهم باتباع ما فيه . هو أول قانون لسير العمال فى الأمة الإسلامية جلّى فيه رضى الله عنه الغاية بما لم تصل مدارك الكثير إلى مرماه . ولما كان هو من أحسن ما تتعلق به النفوس وتتشوق لرؤيته العيون بعد سيرته رضى الله عنه أتينا به خاتمين سيرته الشريفة بخير أعماله . وليشهد الناس هذه الحكم التى تفيض من الأفئدة ، والفصاحة التى تتدفق عن الألسنة . والله على كل شىء قدير.

لولا عجائب صنع الله ما نبتت   هذى الفضائل فى لحم وفى عصب

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أمر به عبد الله على أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر فى عهده إليه حين ولاه مصر : جباية خراجها ، وجهاد عدوها ، واستصلاح أهلها ، وعمارة بلادها .

أمره بتقوى الله . وإيثار طاعته واتباع ما أمر به فى كتابه من فرائضه وسننه التى لا يسعد أحد إلا باتباعها ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها ، وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه فإنه جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره وإعزاز من أعزه .

وأمره أن يكسر عند الشهوات ويزعها عن الجمحات فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله .

ثم اعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور . وأن الناس ينظرون من أمورك فى مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم ، وإنما يستدل على الصالحين بما يجرى الله لهم على ألسن عباده ، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرةُ العمل الصالح : فاملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك فإن الشح بالنفس الإنصاف منها فيما أحبت أو كرهت ، وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم ؛ فإنهم صنفان : إما أخ لك فى الدين ، أو نظير لك فى الخلق ، يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ، ويؤتى على أيديهم فى العمد والخطأ ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذى تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ؛ فإنك فوقهم ووالى الأمر عليك فوقك ، والله فوق من ولاك وقد استكفاك أمرهم وابتلاك بهم .

ولا تنصبن نفسك لحرب الله ؛ فإنه لا يدى لك بنقمته ولا غنى لك عن عفوه ورحمته ولا تندمن على عفو . ولا تبجحن بعقوبة . ولا تسرعن إلى بادرة وجدت منها مندوحة (١) ، ولا تقولن إنى مؤمر آمر فأطاع ؛ فإن ذلك إدغال فى القلب ومنهكة للدين وتقرب من الغير .

وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر إلى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على مالا تقدر عليه من نفسك ؛ فإن ذلك يطامن إليك من طماحك ، ويكف عنك من غربك (٢) ، ويفئ إليك بما عزب عنك من عقلك .

إياك ومساماة الله فى عظمته ، والتشبه به فى جبروته ؛ فإن الله يذل كل جبار ويهين كل مختال .

أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك فإنك إلا تفعل تظلم . ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ، ومن خاصمه الله أدحض (٣) حجته وكان لله حربا حتى ينزع ويتوب . وليس شىء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم فإن الله سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد .

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها فى الحق ، وأعمها فى العدل ، وأجمعها لرضا

(١) مندوحة : سعة . (٢) غربك : غلوك . (٣) أدحض : أبطل .

الرعية فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة . وليس أحدٌ من الرعية أثقل على الوالى مئونة فى الرخاء وأقل معونة له فى البلاء وأكره للإنصاف وأسأل بالإلحاف وأقل شكر عند الإعطاء وأبطأ عذرا عن المنع وأضعف صبرا عند ملمات الدهر من أهل الخاصة . وإنما عماد الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء العامة من الأمة فليكن صغوك لهم وميلك معهم .

وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم [١] عندك أطلبهم لمعائب الناس فإن فى الناس عيوبا الوالى أحق من سترها . فلا تكشفن عما غاب عنك منها فإنما عليك تطهير ما ظهر لك والله يحكم على ما غاب عنك ، فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من عورتك .

أطلق عن الناس عقد كل حقد ، واقطع عنك سبب كل وتر وتغاب عن كل ما لا يضح لك ، ولا تعجلن إلى تصديق ساع فإن الساعى [٢] غاش وإن تشبه بالناصحين ، ولا تدخلن فى مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ، ولا جبانا يضعفك عن الأمور ، ولا حريصا يزين لك الشره بالجور ، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله .

إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيرا ومن شركهم فى الآثام ، فلا يكونن لك بطانة فإنهم أعوان الأثمة وإخوان الظلمة ، وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل آصارهم[٣] وأوزارهم ممن لا يعاون ظالما على ظلمه ولا آثما على إثمه ، أولئك أخف عليك مئونة ، وأحسن لك معونة ، وأحنى عليك عطفا ، وأقل لغيرك إلفا فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك . ثم ليكن آثرهم [٤] عندك أقولهم بمر الحق لك وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه واقعا من هواك حيث وقع .

والصق بأهل الورع والصدق ثم دريهم على ألا يطروك ولا يُبَجِّحوك بباطل لم تفعله ؛ فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو وتدنى من العزة .

ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء ؛ فإن فى ذلك تزهيد لأهل الإحسان فى الإحسان وتدريبا لأهل الإساءة على الإساءة ، وألزم كلا منهم ما ألزم نفسه .

---

(١) أشنأهم : أعزاهم . (٢) الساعى : النمام .
(٣) آصارهم : أثقالهم . (٤) آثرهم : خيرهم .

واعلم أنه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظن راع برعيته من إحسانه إليهم وتخفيفه المئونات عليهم وترك استكراهه إياهم على ما ليس قبلهم فليكن منك فى ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك ، فإن حسن الظن يقطع عنك نصبا طويلا . وإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده ، وإن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده .

ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة واجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعية ، ولا تحدثن سنة تضر بشىء من ماض تلك السنن ؛ فيكون الأجر لمن سنها والوزر عليك بما نقضت منها .

وأكثر مدارسة العلماء ومنافسة الحكماء فى تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك وإقامة ما استقام به الناس قبلك .

واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض : فمنها جنود اللّه . ومنها كتاب العامة والخاصة ، ومنها قضاة العدل . ومنها عمال الإنصاف والرفق . ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس . ومنها التجار وأهل الصناعات . ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجة والمسكنة ، وكلا قد سمى اللّه سهمه ووضع على حده وفريضته فى كتابه أو سنة نبيه صلى اللّه عليه وآله عهدا منه عندنا محفوظا .

فالجنود بإذن اللّه حصون الرعية ، وزين الولاة ، وعز الدين وسبل الأمن . وليس تقوم الرعية إلا بهم ، ثم لا قوام للجنود إلى بما يخرج اللّه لهم من الخراج الذى يقوون به فى جهاد عدوهم ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم . ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب لما يحكمون من المعاقد ويجمعون من المنافع ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها . ولا قوام لهم جميعا إلا بالتجار وذوى الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم ، ويقيمونه من أسواقهم ، ويكفونهم من الترفق بأيديهم مما لا يبلغه رفق غيرهم ، ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم ، وفى اللّه لكل سعة ، ولكل على الوالى حق بقدر ما يصلحه ، وليس يخرج الوالى من حقيقة ما ألزمه اللّه من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة باللّه وتوطين نفسه على لزوم الحق والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل .

فول جندك أنصحهم فى نفسك للّه ولرسوله ولإمامك ، وأنقاهم جيبا وأفضلهم حلما

ممن يبطئ عن الغضب ، ويستريح إلى العذر ويرأف بالضعفاء وينبو [1] على الأقوياء وممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف .

ثم الصق بذوى المروءات والأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة ، ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة ؛ فإنهم جماع من الكرم وشعب من العرف . ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما ، ولا يتفاقمن فى نفسك شىء قويتهم به ، ولا تحقرن لطفا تعهدتهم به وإن قل ؛ فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك ، ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالا على جسيمها ؛ فإن لليسير من لطفك موضعا ينتفعون به وللجسيم موقعا لا يستغنون عنه .

وليكن آثر رءوس جندك عندك من واساهم فى معونته وأفضل عليهم من جدته [2] بما يسعهم ويسع من ورائهم من خلوف أهليهم حتى يكون همهم هما واحدا فى جهاد العدو ؛ فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك . وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل فى البلاد وظهور مودّة الرعية ، وإنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدرهم ، ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة أمورهم وقلة استثقال دولهم وترك استبطاء انقطاع مدتهم ، فافسح فى آمالهم وواصل فى حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم ؛ فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع وتحرض الناكل إن شاء الله . ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى ولا تضيفنّ بلاء امرئ إلى غيره ، ولا تقصرن به دون غاية بلائه ولا يدعونك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيرا ولا ضعة امرئ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيما .

واردد إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ويشتبه عليك من الأمور ؛ فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول** ﴾ [3] فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه والرد إلى الرسول ﷺ الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة .

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه [4] الخصوم ولا يتمادى فى الذلة ولا يحصر من الفىء إلى الحق إذا عرفه . ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه . أوقفهم فى الشبهات وآخذهم

(١) ينبو : يبعد .
(٢) جدته : غناه .
(٣) النساء : ٥٩ .
(٤) تمحكه : تتبعه .

بالحجج . وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم ، وأصبرهم على كشف الأمور ، وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء وأولئك قليل . ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له فى البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس ، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك ، فانظر فى ذلك نظرا بليغا ؛ فإن هذا الدين قد كان أسيرا فى أيدى الأشرار يعمل فيه بالهوى ويطلب به الدنيا .

ثم انظر فى أمور عمالك فاستعملهم اختبارا ولا تولهم مجاباة وأثرة فإنهما جماع من شعب الجور والخيانة . وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم فى الإسلام فإنهم أكرم أخلاقا ، وأصح أعراضا ، وأقل فى المطامع إشرافا ، وأبلغ فى عواقب الأمور نظرا . ثم أسبغ عليهم الأرزاق ، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو سلموا أمانتك . ثم تفقد أعمالهم ، وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم ؛ فإن تعاهدك فى السر لأمورهم حَدوة لهم على استعمالهم الأمانة والرفق بالرعية ، وتحفظ من الأعوان ؛ فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهد ؛ فبسطت عليه العقوبة فى بدنه ، وأخذته بما أصاب من عمله ، ثم نصبته بمقام المذلة ، ورسمته بالخيانة وقلدته عار التهمة .

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله ؛ فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم ؛ لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله . وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ؛ لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلا ، فإن شكوا ثقلا أو علة أو انقطاع شرب أو بالة أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ، ولا يثقلن عليك شيء خففت به المئونة عنهم ؛ فإنه ذخر يعودون به عليك فى عمارة بلادك وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمدا فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم فى رفقك بهم ؛ فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه لطيبة أنفسهم به ، فإن العمران محتمل ما حملته ، وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر .

ثم انظر فى حال كتابك فول على أمورك خيرهم ، واخصص رسائلك التى تدخل فيها مكايدك وأسرارك بأجمعهم لوجود صالح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامة فيجترئ بها عليك فى خلاف لك بحضرة ملأ ، ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك وإصدار جواباتها على الصواب عنك وفيما يأخذ لك ويعطى منك ، ولا يضعف عقدا اعتقده لك ، ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك ، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه فى الأمور ؛ فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل . ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك ؛ فإن الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم ، وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء ، ولكن اختبرهم بما ولو للصالحين قبلك فاعمد لأحسنهم كان فى العامة أثرا وأعرفهم بالأمانة وجها ؛ فإن ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره . واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأسا منهم لا يقهره كبيرها ولا يتشتت عليه كثيرها ومهما كان فى كتابك من عيب فتغابيت عنه أُلزمته .

ثم استوص بالتجار وذوى الصناعات ؛ وأوص بهم خيرا : المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق ببدنه ؛ فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح فى برك وبحرك وسهلك وجبلك وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها فإنهم سلم لا تخاف بائقته وصلح لا تخشى غائلته . وتفقد أمورهم بحضرتك ، وفى حواشى بلادك . واعلم مع ذلك أن فى كثير منهم ضيقا فاحشا وشحا قبيحا واحتكارا [1] للمنافع وتحكما فى البياعات ، وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة ، فامنع من الاحتكار ؛ فإن رسول الله ﷺ منع منه . وليكن البيع بيعا سمحا بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع ، فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به وعاقب فى غير إسراف .

ثم الله الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى ؛ فإن فى هذه الطبقة قانعا ومعتراً [2] . واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم ، واجعل لهم قسما من بيت مالك وقسما من غلات صوافى الإسلام فى كل بلد ، فإن للأقصى منهم مثل الذى للأدنى وكل قد استرعيت حقه . ولا يشغلنك عنهم بطر [3] ؛ فإنك لا تعذر بتضييعك التافه لأحكامك بالنظر فى الكثير المهم فلا تشخص همك عنهم . ولا تصعر [4] خدك لهم . وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون . وتحقره

(١) الاحتكار : تخزين السلع .

(٢) قانعا ومعتراً : الذى لا يسأل والذى يسأل .

(٣) بطراً : لمريض يعيش .

(٤) تصعر : تميل خدك كبرا .

الرجال . ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فليرفع إليك أمورهم ؛ ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله يوم تلقاه فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم ، وكلٌ فأعذر إلى الله فى تأدية حقه إليه . وتعهد أهل اليتم وذوى الرقة فى السن ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه وذلك على الولاة ثقيل . والحق كله ثقيل . وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم .

واجعل لذوى الحاجات منك قسماً . تفرغ لهم فيك شخصك وتجلس لهم مجلسا عاما فتتواضع فيه لله الذى خلقك وتقعد عنهم جندك وأعوانك : من أحراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير مُتَتَعْتِع ؛ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول فى غير موطن : « لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى ير متتعتع » ثم احتمل الخرق (١) منهم والغى (٢) ، ونح عنهم الضيق والأنفة ــ يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته ويوجب لك ثواب طاعته . واعط ما أعطيت هنيئا . وامنع فى إجمال وإعذار .

ثم أمور من أمورك لا بد لك من مباشرتها منها : إجابة عمالك بما يعيا عنه كتابك ، ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك مما تحرج به صدور أعوانك . وامض لكل يوم عمله فإن لكل يوم ما فيه . واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله تعالى أفضل تلك المواقيت وأجزل تلك الأقسام ، وإن كانت كلها لله إذا صلحت فيها النية وسلمت منها الرعية .

وليكن فى خاصة ما تخلص به لله دينك إقامة فرائضه التى هى له خاصة ، فأعط الله من بدنك فى ليلك ونهارك ، ووف ما تقربت به إلى الله من ذلك كاملا غير مثلوم (٣) ولامنقوص بالغا من بدنك ما بلغ . وإذا قمت فى صلاتك للناس فلا تكونن منفرا ولا مضيعا ؛ فإن فى الناس من به العلة وله الحاجة وقد سألت رسول الله ﷺ حين وجهنى إلى اليمن : كيف أصلى بهم ؟ فقال : « صل كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين رحيما » .

وأما بعد فلا تطيلن احتجابك عن رعيتك ؛ فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق وقلة علم بالأمور ، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه ، فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير ويقبح الحسن ويحسن القبيح ويشاب الحق بالباطل ، وإنما الوالى بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور ، وليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب وإنما أنت أحد رجلين : إما امرؤ سخت نفسك فى البذل

(١) الخرق : الحماقة . (٢) الغى : ضعف الكرَام . (٣) مثلوم : معيب .

فى الحق ففيم احتجابك من واجب حق تعطيه أو فعل كريم تسديه ، أو مبتلى بالمنع فما أسرع الناس كف الناس عن مسألتك إذا أيسوا من ذلك ، مع أن أكثر حاجات الناس إليك مما لا مئونة فيه عليك من شكاة مظلمة ، أو طلب إنصاف فى معاملة .

ثم إن للوالى خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاول وقلة إنصاف فى معاملة ، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال . ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك قطيعة . ولا يطمعن منك فى اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس فى شرب أو عمل مشترك يحملون مئونته على غيرهم فيكون مهنأ ذلك دونك . وعيبه عليك فى الدنيا والآخرة . والزم الحق من لزمه من القريب والبعيد وكن فى ذلك صابرا محتسبا واقعا ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع . وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه ؛ فإن مغبة [1] ذلك محمودة . وإن ظنت الرعية بك حيفا فأصحر لهم عذرك . واعدل عنك ظنونهم بإصحارك فإن فى ذلك رياضة منك لنفسك ورفقا برعيتك وإعذارا تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق .

ولا تدفعن صلحا دعاك إليه عدوك ولله فيه رضا ؛ فإن فى الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك . وأمنا لبلادك . ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه ؛ فإن العدو ربما قارب ليتغفل . فخذ بالحزم واتهم فى ذلك حسن الظن . وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء . وارع ذمتك بالأمانة ، واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت ؛ فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعا مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود . وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استوبلوا من عواقب الغدر . فلا تغدرن بذمتك ولا تخيسن [2] بعهدك . ولا تختلن [3] عدوك ؛ فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقى ، وقد جعل الله عهده وذمته أمنا أفضاه بين العباد برحمته ، وحريما [4] يسكنون إلى منعته ويستفيضون إلى جواره . فلا إدغال [5] ولا مدالسة [6] ولا خداع فيه . ولا تعقد عقدا تجوز فيه العلل . ولا تعولن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة . ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق ؛ فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته وأن تحيط بك من الله فيه طلبة لا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك .

إياك والدماء وسفكها بغير حلها ؛ فإنه ليس شيء أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا

---

(١) مغبة : عاقبة . (٢) تخيسن : تنقضن . (٣) تختلن : تخدعن .
(٤) حريماً : ما يدافع عنه الإنسان . (٥) إدغال : إفساد . (٦) مدالسة : غش وكذب .

أحرى بزوال نعمة وانقطاع مودة من سفك الدماء بغير حقها ، والله سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة ، فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام ؛ فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله ولا عذر لك عند الله ولا عندى فى قتل العمد لأن فيه قود البدن . وإن ابتليت بخطأ وأفرط عليك سوطك أو سيفك أو يدك بعقوبة فإن فى الوكزة فما فوقها مقتلة فلا تطمحن بك نخوة سلطانك من أن تؤدى إلى أولياء المقتول حقهم .

وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الإطراء ؛ فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان فى نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين .

وإياك والمن على رعيتك بإحسانك أو التزيد فيما كان من فعلك . أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك ؛ فإن المن يبطل الإحسان ، والتزيد يذهب بنور الحق ، والخلف يوجب المقت عند الله والناس قال اللّه تعالى : ﴿ **كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾ (١)

وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها والتسقط فيها عند إمكانها أو اللجاجة فيها إذا تنكرت ، أو الوهن عنها إذا استوضحت ، فضع كل أمر موضعه وأوقع كل أمر موقعه .

وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة ، والتغابى عما تعنى به مما قد وضح للعيون فإنه مأخوذ منك لغيرك وعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور وينتصف منك المظلوم .

املك حمية أنفك وسوْرة (٢) حدك . وسطوة يدك . وغرب لسانك (٣) ، واحترس من كل ذلك بكف البادرة وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار ، ولن تحكم من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك .

والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة أو سنة فاضله أو أثر من نبينا ﷺ أو فريضة فى كتاب الله فتقتدى بما شاهدت مما عملنا به فيها . وتجتهد لنفسك فى اتباع ما عهدت إليك فى عهدى هذا واستوثقت به من الحجة لنفسى عليك لكيلا تكون لك علة عند تسرع نفسك إلى هواها .

وأنا أسأل الله بسعة رحمته وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة أن يوفقنى وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه مع حسن الثناء فى العباد وجميل الأثر فى البلاد وتمام النعمة وتضعيف الكرامة ، وأن يختم لى ولك بالسعادة والشهادة إنا إليه راغبون . والسلام على رسول الله ﷺ وآله الطيبين الطاهرين وسلم تسليما كثيرا والسلام .

(١) الصف : ٣ .　　(٢) سورة : غضب .　　(٣) غرب لسانك : حدة لسانك .

خلافة سيدنا الحسن

لا بد لنا من كلمة على خلافة سيدنا الحسن يتصل بها الكلام ويعلم منها كيف استقام الأمر لسيدنا معاوية ؛ فقد تركنا أغلب الناس فوضى بعد قتل الإمام فى العقل والشريعة معا .

كان أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه قد بايعه أربعون ألفا من عسكره على الموت ، ولما أخذ يتجهز للمسير قتل ، فبايع الناس وهذا الجيش ولده الحسن ، وبلغه أن معاوية سائر إليه فى أهل الشام فتجهز هو أيضا بهذا الجيش الموثق بالإيمان والعهود إلى لقاء معاوية . فلما نزل الحسن المدائن حدث فى جيشه من الشقاق والنفاق ما دعاه لتأخير ما عزم عليه ، رأى أن جند العراق لا تقوم بهم دولة لما هو واقع بينهم دائماً من النزاع والتطلع إلى ما ليس لهم حتى نازعوا الحسن فى بساط كان يجلس عليه .

رأى أن بيعته كبيعة أبيه ليست عامة ولكنها مقصورة على شيعتهم من أهل العراق . فراسل معاوية بن أبى سفيان يبذل له الصلح واشترط عليه شروطا وقال له : ان أنت أعطيتنى هذا فأنا سميع مطيع . وكان معاوية قبل وصول كتاب الحسن إليه ختم صحيفة فى أسفلها وكتب للحسن يقول له : اشترط فى هذه الصحيفة ما شئت . فاشترط وأهم شروطه تأمين جيشه وشيعة علىّ كلهم ، فقبلها معاوية ، وقدم العراق ، فقابله الحسن بجيشه ، وبايعه بالخلافة هو وجنده ، وصدق رسول الله ﷺ فى قوله عن الحسن : « ان ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين » .

تم دور الخلافة بالخلفاء الراشدين بتسليم سيدنا الحسن الأمر ، وانتهى دور الفتن والشقاق الذى ابتدأ من قيام الثوار على سيدنا عثمان بن عفان ونهايته قتل الإمام على رضى الله عنهما .

فتن دامت عشر سنين لو كانت فى أمة أخرى لهدمتها وقوضتها ، ولكن الله نظر إلى دينه القويم بعين عنايته ، فألف كلمة أهله وحفظه كما وعد : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ (١) ثم انقسم المسلمون على أنفسهم وأصبحوا فرقا : فمنهم الشيعة ومنهم

(١) الحجر : ٩ .

الغلاة والروافض والخوارج وغيرهم من أهل الملل والنحل . يقفون فى وجه كل إصلاح ويشقون عصا كل طاعة كما سيأتى تفصيله .

ألا مخبر يخبرنى لو لم يقدر الله هذه الفتن فإلى أى ركن من أركان الدنيا كان يصل الإسلام ؟ وإلى أى درجة كانت ترفع كلمته ؟ وإلى أى عدد كانت تنتهى شيعته ؟ وإلى أى شرف كانت تصل رفعته ؟ . . أظنه كان يستأمن بقوته أعظم قوى الكون ، ويصبح كل شيء دونه منحطا ومتضائلا خاضعا ومستكينا إليه .

لو نظر الناظر ما وجد لهذا الشقاق الذى حصل إلا تطاول الأيدى لقتل سيدنا عثمان ونقض بيعة له فى أعناقهم ، مع أن الخروج عن طاعة الإمام . لم يجعل النبى ﷺ له سببا إلا الكفر البواح الظاهر الصريح الذى لا تأويل فيه ولم يقل بذلك أحد منهم . وكأن مصيبته هذه لم تكف حتى أعقبها الله بافتراق الأمة فى داخليتها فكان لكل جماعة رأى وليس هذا بالأمر الهين . وكيف يكون هينا وقد أدّى للقتال والخروج على الإمام وعمل السيف فى رقاب المسلمين ما عمل ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم آلت الدولة لبنى أمية وتوالت فتوحها برا وبحرا وانتظم الشمل بعد شتاته وجبر الوهن بعد ثلمه واشرأبت أعناق أرباب الدولة إلى إعزاز جانبهم وإذلال مجانبهم وإظهار دينهم ، وقد نما فيهم إحساس المحاماة عن الحوزة فاتجهت جيوش الدولة وأساطيلها إلى الفتح فلم تمض الأيام ولم تتصرم الليالى حتى فتحت الجزر فى البحر الأبيض المتوسط والمدن والحصون فى قارة آسيا ، وأصبح كنف الأمة مكينا يكلأ الوادعين فيه . ثم مازال أرباب الدولة قائمين بتشريفها بالرأى السديد والعزم الشديد حتى أخذت الجزية من ملك بالقسطنطينية بعد الحصر والتضييق والعذاب الأليم ، واستدامت لها الهداية إلى أن أنسى الله سبحانه وتعالى بعض القوم أدب الدين وحدود المحافظة على المواثيق والعهود ، ونشزت [1] طوائف منهم زائغة عن السداد ومتنكبة عن الصواب والرشاد ، فأدت حالتهم إلى اضمحلال بعض الأطراف من ملكهم ، فخرجت عليهم منها غارات وفتن كانت مقدمة لانتقال الدولة من بنى أمية إلى بنى العباس كما سيرد عليك ببعض التفصيل بعد هذا ، فتدرك منه ما يؤدى إلى الزيادة والبركة وما يورث الفشل والاختلال : ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾ [2] .

---

(١) نشزت : خرجت عن الطاعة .

(٢) آل عمران : ١١٠

إن الصدور لا تزال تكمن ما فيها . ولذلك فإن شيعة على رضى الله عنه لا تزال ترى هذا الأمر فى أولاده يطلبونه متى سنحت لهم الفرصة وقد صارت لهم مذاهب ونحل يعجز القلم عن استقصائها ، والخوارج لا تزال ترى التحكيم ضلالة ، ولا ترى البيعة إلا شورى ، ولا تنتخب إلا رجلا على مذهبهم ومعتقدهم ، وتفرقوا شيعا كل له مذهب يتبعه ولو بغير إمام وجماعة منهم يقولون : إن معاوية هو الذى أحال الخلافة ملكا وأنى لمعاوية ذلك ؛ وإنما الذى أحالها ملكا هى العوامل الطبيعة التى إذا عرضت للأمة تضطرها لطلب الانفراد بالمجد والاستئثار به ، وقد وقع هذا بالفعل لبنى أمية ، ولم يكن لمعاوية أن يدفع تأثيره عن نفسه وقومه ؛ لأنه أمر طبعى ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته الأمة فاستماتت دونه ، ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم فى الانفراد بالأمر لوقع فى افتراق الكلمة ولم يكن للحسن رضى الله عنه ذلك بل كان القوم فى نهاية الشقاق : يدل على ذلك أنه لما تراسل مع سيدنا معاوية فى أمر تسليم الخلافة خطب الناس ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : والله ما يثنينا عن أهل الشام شك ولا ندم وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر فشيبت السلامة بالعداوة والصبر بالجزع ، وكنتم فى مسيركم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم ، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم . ألا وقد أصبحتم بين قتيلين : قتيل بصفين تبكون عليه ، وقتيل بالنهروان تطلبونه بثأره ، وأما الباقى فخاذل أو ثائر . ألا وإن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة ، فإن أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه إلى الله عز وجل بظبى السيوف ، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذناه بالرضا . فناداه الناس من كل صوب وناحية : البقية البقية وأمضى الصلح .

فأين هذه العصبية من عصبية بنى أمية ومثل عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الذى عمله حجة وفعله قدوة يخشاها : كان إذا رأى القاسم بن محمد بن أبى بكر يقول : لو كان لى من الأمر شىء لوليته الخلافة ولو أراد أن يعهد إليه لفعل . ولكنه كان يخشى من بنى أمية أهل الحل والعقد لما ذكرناه فلا يقدر أن يحوّل الأمر عنهم لئلا تقع الفرقة . ومثل هذا هو الذى وقع للمأمون منذ عهده للرضا . ومن هذا أيضا الذى نراه فى رجال الدول المتمدينة الذين يحرصون على تقاليدهم فهم فى عصبية تامة يخيفون بها الحكومة ويغرسون فى قلوب أربابها بذور التقية والحذر ، فلا يتأتى لحكوماتهم أن تجلب لبلادها من البضائع إلا ما ليس له وجود عندهم فضلا عن أنها تستخدم غيرها فى عملها . وعلى أن الملك إنما ذم منه الشارع التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الأغراض والشهوات ، ولم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين ومراعاة المصالح . وإذا كان الملك

مخلصا يحمل الناس على عبادة الله وجهاد عدوه لم يكن مذموما . والملك الذى يخالف بل ينافى الخلافة هو الجبروتية المعبر عنها بالكسروية . وخلافة سيدنا معاوية لم تكن كذلك بل من رأى كثير من المؤرخين الذين لم يصح عندهم حديث « الخلافة بعدى إلخ » أن تلحق دولته بدولة الخلفاء الراشدين وأخباره بأخبارهم فهو تاليهم فى الدين والفضل والفتح العظيم برا وبحرا ، ومن بعده من خلفاء بنى مروان وبنى العباس الذين فتحوا الفتوحات وأعلوا كلمة الله فى الأرض ، وإن شق ذلك على جماعة فى هذه الأيام شغلوا أنفسهم بما لا طائل تحته من تفضيل وتضليل ، وجلسوا مجلس الحكم فى هذه القضية من قبل أن يتحروا أوثق مصادرها ، والأيام تسوق لهم كل يوم حديثا عن سياسة دنياهم ، وقد صرف الله قلوبهم عن النظر فيها وأولى بهم أن يتناصحوا فى خيرها وشرها ، ولا يتركوا الناس أفذاذا [١] لا يعلم أحدهم بما يكون من عمل أخيه .

اللهم ألف كلمة المسلمين ولم شعثها ووفقها لما تحبه وترضاه بمنك وكرمك إنك على كل شىء قدير .

---

(١) أفذاذ : منفردين .

سيدنا عمرو بن العاص
رضى الله عنه

هو الفاتح لأعظم ركن من أركان الخلافة الإسلامية . البلد الذى هو واسطة عقدها . أموية . وعباسية . وتركية . البلد الذى لم يتمصر قبله مصر . ولم يذكر قبل أهله حى .

نقدمه على غيره لعلاقة السلطان الذى بينه وبين هذا البلد وأهله لأنه أول فاتح إسلامى تولى فتحه بسيفه وحكمه بعدله ؛ ولعلاقة الدين ، لأنه أول من شرح الله على يده صدور أهله إليه وأطلّع فى صدورهم نبراسه بوساطته . وأول مسجد خشعت فيه الأصوات للرحمن وسجدت فيه الجباه للديان ــ مسجده الذى أسس فى مصر منذ فتحها ووقف على إقامة قبلته (أى على تحريرها) ثمانون رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ هو من أجلهم .

هو سيدنا عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعيد (بالتصغير) بن سهم بن عمرو ابن هصيص (بالضم) بن كعب بن لؤى القرشى السهمى .

اختلف الناس فى وقت إسلامه فقائل قبل الفتح وقائل بين الحديبية وخيبر وقائل بأرض الحبشة . وعاش تسعين سنة وكان يذكر ليلة ولد سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وكان أدعج [١] أبلج [٢] قصير القامة عليه مهابة الإمارة وسيماؤها . أخرج ابن أبى خيثمة من طريق الليث قال : نظر عمر بن الخطاب إلى عمرو (رضى الله عنهما) يمشى فقال : ما ينبغى لأبى عبد الله أن يمشى على الأرض إلا أميراً .

وكان لسناً بادى الحجة يسد برأيه ثلمة [٣] السيف وقد سدها . ويفل [٤] بالروية [٥] حده وقد فله . قائل لم يقل بغير تفكير ولم يعمل بغير تدبير . قال إبراهيم بن مهاجر عن الشعبى عن قبيصة بن جابر : صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا أبين قرآنا ولا أكرم خلقاً ولا أشبه سراً بعلانية منه .

---

(١) أدعج : أسود العين واسعها . (٢) أبلج : مضئ مشرق . (٣) ثلمة السيف : حرفى السيف .
(٤) يفل : يقطع . (٥) الروية : التمهل .

بلغ مقدار لحنه بحجته ودهائه فيما يريد وما يراد منه أن سيدنا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين كان إذا رأى الرجل يتلجلج فى كلامه يقول : أشهد أن خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد ، يعنى خالق الأضداد .

وذكر الزبير بن بكار أن قريشا بعثت لعمرو تناظره بعد أن أسلم فقال لرسولها : أنشدك الله ربك ورب من قبلك ومن بعدك نحن أهدى أم فارس والروم ؟ قال : نحن أهدى . قال : فنحن أوسع عيشا أم هم ؟ قال : هم . قال : فما ينفعنا فضلنا عليهم وقد وقع فى نفسى أن الذى يقوله محمد من أن البعث بعد الموت ليجزى المحسن بإحسانه والمسيىء بإساءته حق ولا خير فى التمادى على الباطل .

وكان شديد الحياء من رسول الله ﷺ لا يرفع طرفه إليه . وكان للمعضلات حلّالا . وكان النبى ﷺ يقربه ويدينه لمعرفته وشجاعته . وولاه غزوة ذات السلاسل ، وأمده بأبى بكر وعمر وأبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم وكان أميرهم وكانوا يصلون خلفه .

وبعث إليه النبى ﷺ فقال : خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتنى فلما أتاه قال له : إنى أريد أن أبعثك على جيشى فيسلمك الله ويغنمك وأرغب لك من المال رغبة صالحة ، فقال : يا رسول الله ، ما أسلمت من أجل المال بل أسلمت رغبة فى الإسلام ، فقال : ياعمرو ، نعم المال الصالح للمرء الصالح .

وأثنى النبى ﷺ على ثباته إذ فزع أهل المدينة فزعا فتفرقوا فنظر عمرو بن العاص إلى سالم مولى أبى حذيفة فى المسجد فإذا عليه سيف ففعل مثله فخطب النبى ﷺ فقال : ألا يكون فزعكم إلى الله ورسوله ؟ ألا فعلتم كما فعل هذان المؤمنان ؟

ذاق لذة الحاضرة وعرف حال استيطان الريف وأدرك صعوبة جلافة البدو وماز جفاء الأعراب ، فلما ضرب الإسلام بجرانه (١) واتسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر ونزعت البوادى إلى القرى وفشا التأدب لم يعجزه استكمال شىء دون استعماله مع أهله على الوجه الذى يحسن مسمعا ويلطف من القلب موقعاً .

نظر إلى دولة الروم ومملكتها نظرة اخترقت حجابها المستور وسبر (٢) تركيبها بمسبار الحكمة مع شدة اختفائهم وقتها بسياسة الخلفاء فى مجامع رجال دولتهم المعروفة عند جماعة المؤرخين (الجماعة السرية) فتبدى له من أمر الدولة الفراق فى فرقها ، وأدرك أن

(١) بجرانه : بأطرافه . (٢) سبر : اختبر .

قد آن وقت استباحة هذه المدن وخضد شوكة هذه الدولة عن مصر .

فلما كانت سنة ثمان عشرة وقدم سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه (الجابية) قام إليه وخلا به وقال له فيما قال : ائذن لى أن أسير إلى مصر وحرضه عليها . وقال : إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم وهى أكثر الأرض أموالا وأعجزهم عن القتال والحرب ، فتخوف سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه على المسلمين ، وكره ذلك ، فلم يزل به من تعظيم أمرها وتنبيه خاطره الشريف إلى مزارعها ومنافعها ومحصول أرضها وبرها وخيرها وفيضان نيلها وحال أهلها حتى ركن لذلك ، وعقد له على ثلاثة آلاف وخمسمائة أو أربعة ألف رجل وقال له : سر وأنا مستخير الله فى مسيرك فسار وافتتحها ، وفى كونها فتحت صلحا أو عنوة خلاف . ولم يخنه الرأى فى شىء مما قال ، ولم تعرف له كذبة فيما روى كأنما نشأ الرجل بين أهل هذا المصر وربى فيه .

كان نظره فى ذلك على الغيب والبلاد فى عالم العماء والخفاء أثقب وأصدق من نظر كثير من حكومات اليوم على الشهادة ، والكرة الأرضية أبسط من كف . فكم قدّروا قوة أخصامهم وأخطئوا وكم وطئوا بلادهم فضلوا حتى دفعوا فى حروب أنهكتهم ظنوها فى أول أمرها لعباً ولهواً .

ثم وصفها لسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وصفا يقصر عنه المخالط والعشير : فمنه أنه قال له عنها : بينما هى لجة بيضاء إذا هى زبر جدة خضراء : نيلها عجب ، وترابها ذهب ، وأمراؤها جلب ، وهى لمن غلب .

كيف يرى المصرى الآن . هل قدر بعد ثلاثة عشر قرنا أن يفلتها من وصف عمرو بن العاص أم هى هى فهمها عمرو ليعلمها وعلمها ليحكم عليها . وكيف يرى الناظر مكان العظمة فى مقال هذا البدوى ومقدار العظة والاعتبار فيه مع أنه لم يتحكك بعلوم أصول الكلام ولم يتحنك بفلسفة الحكماء ، ولم يشهر علمه بشهادات التدريس ، ولم يمل عليه إلا نور بصيرته التى هى نتيجة حسن المنبت وطيب المغرس وصيغة الأدب الدينى الذى هو فردوس النفوس تنقد بوساطة الحقائق ، ويحكم عليها حكما صحيحا تؤيده الأيام ويحققه المستقبل .

وكان مع هذه الدنيا المقبلة والسعادة الخادمة والسلطنة القاهرة النافذة وقوله وهو على المنبر : لقد قعدت مقعدى هذا وما لأحد من قبط مصر علىّ عهد ولا عقد إن شئت قتلت

وإن شئت خمست وإن شئت بعت ـ أسبق الناس لحق وأبعد الناس عن باطل : فلم يعهد فى أثناء ولايته عليها نقضه لعهده ولا خفرة لذمة ولا هتكه لعرض ولا نظره لما فى يد الناس من الأموال والثمرات والعروض ، ولم يستأثر لنفسه خيرا دون من يعول ويرعى .

يستظهر على ذلك من تأنيّه وتؤدته فى إرسال ما كان يحمل من مصر إلى المدينة من الطعام ونظره فى ذلك لطوق البلاد والعباد وكتاب أمير المؤمنين يلى الكتاب بطلب ذلك وهو يحتمل العتب منه ولا يحول عن سبيله . وكما يؤخذ من جبايته لها أقل من جباية غيره . وقول سيدنا عثمان رضى الله عنه له : إن اللقاح بمصر قد درّت ألبانها بعدك ياعمرو . فقال له : لأنكم أعجفتم أولادها .

ثم أزال عن أهل مصر كثيرا من البدع وأذاقهم حلاوة الدين وحسبك بعروس النيل وبدعة الجبر من بدعة ومن إزالتها من حسنة .

وحسبك من مناقبه الإسلامية الغراء : رضاؤه بالحق على نفسه وإذعانه له : أخرج ابن عبد الحكم عن أنس قال : أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب فقال ياأمير المؤمنين : عائذ بك من الظلم قال : عذت بمعاذ . قال : سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربنى بالسوط ويقول : أنا ابن الأكرمين ، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص يأمره بالقدوم عليه ويقدم ابنه معه فقدما فقال عمر : أين المصرى ؟ خذ السوط فاضرب . فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر : اضرب ابن الأكرمين ثم قال للمصرى : ضعه على صلعة عمرو . فقال ياأمير المؤمنين : إنما ابنه الذى ضربنى وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو : بم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً .

وناهيك بهذه المنقبة الإسلامية من أمير المؤمنين وعامله رضى الله عنهما وحسبك هذه الكلمة الطيبة خير شرعة يستقى منها جميع العالم معانى الحريّة والمساواة والإخاء والعدل والإحسان .

أفلا يأسف المصرى على نفسه إذا قايس بين ترقيها فى ذلك العهد وبين انحطاطها الآن ! شتان بين نفس تسافر لوقتها من مصر إلى الحجاز لتشكو ضربة من سوط وبين أخرى ترى حقها من جميع الوجوه مضاعا وهى مستأنسة بالظلامة لا تحس بالألم فضلا عن أن تهم بالشكاية منه .

أفلا ينبغى للمتبجح بفضل الأجانب أن يقصر بعد هذا الفضل وأمثاله من مكارم

الأخلاق عن الإفراط فى الإطراء عليهم ! أفلا يوجب عليه العدل أن يشرك قومه معهم ويضعهم فى طبقتهم فيذكرهم إذا هو ذكر (الكونت ميرابوه) أو (الجنرال دلافيت) أو (روبسبير) أو (مارا) وغيرهم من الفرنساويين أو (كروميل) الإجليزى أو (واشنطون) أو (فرنكلين) الأمريكانيين أو (جريبالدى) أو (كافور) التليانيين ؛ لأن سعى هؤلاء فى تحرير أنفسهم ومساواة بعضهم ببعض لم يكن بأشرف من المعنى الذى قصده أمراء الإسلام ، ولكن هؤلاء نشئوا بين قوم عرفوا فضلهم فأذاعوه وسمعوه فوعوه ، وفضلنا صنيعة أصحابه ولا حول ولا قوة إلا بالله . -

هذا بعض الشيء من سيرة هذا الفاتح وبقى شيء لابد من ذكره والتنويه به تذكرة لإخواننا القراء . قال ابن حجر فى الإصابة : إن عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن طهارتهم واختياره لهم فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ [1] وقوله : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً** ﴾ [2] وقوله : ﴿ **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم** ﴾ [3] وقوله : ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ [4] وقوله : ﴿ **يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾ [5] وقوله : ﴿ **للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون** ﴾ [6] وقوله : ﴿ **لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى** ﴾ [7] وجميع ذلك مع الأحاديث الشهيرة الكثيرة يقتضى القطع بتعديلهم ، ولا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله له ، إلى تعديل أحد من الخلق ، على أنه لو لم يرد من الله ورسوله فيهم شئ مما ذكرناه لأوجبت الحال التى كانوا عليها مع رسول الله ﷺ وبعده من الهجرة والجهاد ونصرة الإسلام وبذل المهج والأموال وقتل الآباء والأولاد والمناصحة فى الدين وقوة الإيمان واليقين القطع على تعديلهم والاعتقاد بنزاهتهم وأنهم أفضل من جميع الخالفين بعدهم والمعدلين الذين يجيئون من بعدهم . ثم وجدت بين المسلمين طوائف من العجم والفرس ديدنهم التنكر لكل دولة ذاهبة ليحتلبوا خير كل دولة مقبلة ، أولئك

---

(١) آل عمران : ١١٠ .
(٢) البقرة : ١٤٣ .
(٣) الفتح : ١٨ .
(٤) التوبة : ١٠٠ .
(٥) الأنفال : ٦٤ .
(٦) الحشر : ٨ .
(٧) الحديد : ١٠ .

ساقهم هذا الضرب من النفاق إلى الكذب والبهتان فى حق خيار من سلف وخلقوا لهم صغائر وكبائر . وهذا الفاتح الجليل ممن أصيب ببهتان كبير من هؤلاء ، وأدى فجور الكاذب عليه أن يخلق له أفعالا ويختلق عليه أمورا ليمحى بسيئاته المكذوبة حسناته هذه . وهيهات وقد أخذ الناس ببهرج (1) هذا القول وزور الكلام المصطنع وأغفلوا هذه المكارم وما علموا أن موقع الرجل من الملة والأمة هو الموقع الذى تخبطه له هذه المحاسن وتوجبه له هذه المناقب ، لا ما ترميه به الأعداء . لم يدركوا أن الأمويين لم يشتموا إلا لإرضاء العباسيين وأن الزارى (2) بهم لم ينظر فى عمله إلى شىء من خدمة الحق أو إعلاء كلمة الدين وأن الكل بعد ذلك مقلدون .

(1) ببهرج : بزيف .

(2) الزارى : العائب عليه .

سيدنا معاوية رضى الله عنه

هو أبو عبد الرحمن معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن ابن عبد مناف القرشى الأموى .

كان أبوه أبو سفيان أحد أشياخ مكة أسلم بعد الحديبية على ما حكاه الواقدى : وقال غيره ، بل يومها . وكتم إسلامه عن أبيه وأمه حتى أظهره يوم فتح مكة وهومثل الذى وقع للعباس رضى الله عنه إذ أسلم ببدر وكتم إسلامه إلى قبيل الفتح .

قال أبو نعيم : وكان من الكتبة الفصحاء وهو ممن كتب الوحى بين يدى رسول الله ﷺ فكان أمينه على وحى ربه جل وعلا .

وكان من أكابر العرب نسبا وقربا منه ﷺ حاز شرف الإسلام وشرف الصحبة وشرف النسب وشرف المصاهرة المستلزمة لمرافقته له ﷺ فى الجنة وشرف الحلم وشرف العلم وسؤدد (1) الإمارة والخلافة ، وكفى بنسبه فخرا قول النبى ﷺ يوم الفتح « من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » . ميزه بذلك ﷺ دون غيره زيادة فى إعلان شرفه ومجده .

روى عن أجلاء الصحابة كأبى بكر وعمر وأخته أم المؤمنين أم حبيبة وروى عنه أجلاؤهم وفقهاؤهم كعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وغيرهم ، فروى عن النبى ﷺ فيما روى مائة وثلاثة وستين حديثا .

كان عاقلا لبيبا عالما داهية فى السياسية والكياسة وهو الذى قال : لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت قالوا : وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : إذا جذبوها أرخيتها وإن أرخوها جذبتها .

حسن التدبير حكيما فصيحا بليغا يحلم فى موضع الحلم ويشتد فى موضع الشدة والحلم عنده أغلب ، كريما باذلا للمال يكرم الوافدين ويحسن القرى ويقضى الحوائج . اختلف الناس فى حبه ولم تختلف فى فضله .

---

(1) سؤدد : مجد أو سيادة .

مخايل فضل نشأت فيه وثبتت ونمت معه حتى صرن شمائل كمال وخلال خير وجلال . أخرج أبو سعيد المدايني قال : نظر أبو سفيان إلى ولده معاوية وهو غلام فقال : إن ابني هذا لعظيم الرأس وإنه لخليق أن يسود قومه فقالت أمه : قومه فقط !! ثكلته إن لم يسد العرب قاطبة !! .

قال ابن عباس رضى اللّه عنه وكان من النقاد : ما رأيت للملك أعلى من معاوية . رواه البخارى فى تاريخه أو قال : ما رأيت أليق من أعطاف معاوية بالرياسة والملك وقال عبد اللّه بن عمر : ما رأيت بعد رسول اللّه ﷺ أسود من معاوية بن أبى سفيان . قالوا : وأين أنت من أبى بكروعمر وعثمان وعلى ؟ قال : أولئك أفضل منه وهو أسود منهم .

ووصفه عبد الملك بن مروان عند ما مر بقبره فقال : إنه كان ينطق عن علم ويسكت عن حلم ، كان إذا أعطى أغنى وإذا حارب أفنى .

نعم لقد كان سائس أمم ومربى دول وراعى ممالك ، وكفى بقول سيدنا عمر بن الخطاب لجلسائه يوما : تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية — دليلا على أنه سباق للعظائم من الأمور .

وكان يهون عليه كل شئ إذا انتظم أمر الملك وبدا صلاحه فابتكر فى الدولة أشياء لم يسبقه إليها أحد : منها الأسطول لحماية الثغور ووقاية فروج البلدان من تطرق الأعداء ، والبريد لسرعة وصول الأخبار بمتجددات الأحوال وناهيك بها من نعمة علمت مزاياها الملل الآن فما زالت ترقيها حتى كان من بعض خدامها تيار الكهرباء وأجنحة البخار ، وديوان الخاتم وهو ديوان به نواب فإذا صدر توقيع من الخليفة بأمر من الأمور ووصل التوقيع إلى ذلك الديوان أثبتت فيه ونسخته وختم عليه بالشمع وختم بختم ذلك الديوان لمضاهاته عند اللزوم لمراجعة الحساب .

وفضائله كلها غرر : منها ما رواه البخارى أن مولى لعبد اللّه بن عباس قال له : إنى رأيت أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان أوتر بركعة . فقال له : إن معاوية فقه .

ومنها ما رواه الترمذى وقال إنه حديث حسن : أن رسول اللّه ﷺ دعا لمعاوية فقال : اللهم اجعله هاديا مهديا . ومنها ما أخرجه الحارث بن أسامه من أنه ﷺ ذكر مناقب الأربعة الخلفاء وجماعة آخرين من أصحابه ثم قال : معاوية بن أبى سفيان أحلم أمتى وأجودها . محا عنه بهذه الدعوة المباركة المقبولة مضائق النفس وثورانها ونزع عنه حب

الدنيا الذى هو رأس كل خطيئة . ولا أحسن من هاتين الصفتين ، كما لا أقبح من الغضب والبخل . وأخرج مثله (المنلا) فى سيرته ونقله عنه المحب الطبرى فى رياضه أنه ﷺ ذكر مناقب الخلفاء الأربعة وجماعة من أصحابه ثم قال : ومعاوية بن أبى سفيان أمينى وصاحب سرى .

ومنها أنه دخل ﷺ على زوجته أم حبيبة ورأس معاوية فى حجرها وهى تقبله فقال : ؟ أتحبينه . فقالت : وما لى لا أحب أخى ؟ فقال ﷺ : إن الله ورسوله يحبانه .

ومنها ما رواه الحافظ بن منيع قال : قال النبى ﷺ : « عزيمة من ربى وعهد عهده إلىّ ألا أتزوج إلى أهل بيت ولا أزوج بنتا من بناتى لأحد إلا كانوا رفقائى فى الجنة » .

ومنها بشارته بالخلافة : فقد روى أحمد بسند حسن أن معاوية رضى الله عنه أخذ الإداوة لما اشتكى أبو هريرة وسار بها إلى النبى ﷺ ، فبينما هو يوضئ رسول الله ﷺ رفع رأسه إليه مرة أو مرتين وهو يتوضأ فقال : يا معاوية ، إن وليت أمراً فاتق الله واعدل .

ولى قيادة الجنود فى الشام وثغور الروم فى خلافة سيدنا عمربن الخطاب وذلك بعد موت أخيه يزيد الخير الذى كان قائد هذه الجنود فمرض فاستنابه منابه حتى مات فأقره سيدنا عمر بن الخطاب . وناهيك ببصيرته الفاروقية فى الانتقاد والانتقاء لمثل الشام فى ذلك الوقت الملتهبة فيه قلوب أهل البلاد بنار الحقد على جماعة المسلمين إثر الفتوحات الإسلامية والمصاعب المكتنفة بذلك المقام ، فأقام فيها نحوا من عشرين سنة عاملا لسيدنا عمر بن الخطاب وسيدنا عثمان بن عفان ، ثم أضاف إليها مصر ثم تسمى بالخلافة ومكث نحوا من عشرين سنة أخرى خليفة ، ولم يشك أحد من معاوية رضى الله عنه ، بل كانت الناس راضية عنه عاملا ، وهم فى عهد خلافته أرضى .

ومن عجائب فراسته أنه قال : إن أهل مكة أخرجوا رسول الله ﷺ فلا تكون الخلافة فيهم أبدا ، وإن أهل المدينة قتلوا عثمان فلا تعود الخلافة إليهم أبدا .

مثّل إذا شئت معرفة فضل سياسته ، وشخص إن أردت الوقوف على مقدار عقله ونبله الموقع الذى صارت إليه الأمة الإسلامية بعد فتح الشام وثغوره ، والمقام الحرج الذى صار فيه قائدها وحاكمها ، وتأمل كيف كان حالها فى نظر أمة الرومان وجمهورية رومة أولا . ثم إمبراطوريتها ثانيا ؛ لاعتبارهم إياها أقدس مكان لأنها وطن الأنبياء ، ومكان المعجزات وميدان الأديان . وبعد فتح مصر التى أقل وصف لها ما قاله الإسكندر المقدونى : إن مصر مركز للعالم بأسره ، إذا انبعثت منها أنصاف أقطارها فإنها تمر بجميع الأمصار

فيسهل على القابض عليها أن يصل منها إلى حيث يريد ويختار لا أشك فى أنك تدرك مركز الشرق الإسلامى إزاء هذه الحال . ومركز الغرب إزاءه أيضا وتعتقد أنه من أعسر المواقع وأحرجها .

أنشأ سيدنا معاوية رضى اللّه عنه فى سنة ٢٨ وهو عامل الشام فى خلافة سيدنا عثمان ابن عفان رضى اللّه عنه أسطولا سافر به فى البحر فافتتح جزيرة قبرص ، وكان فى عمله هذا مصداق قول رسول اللّه ﷺ لأم حرام : أخرج البخارى عن أنس بن مالك عن أم حرام (بالفتح) بنت ملحان وكانت خالته أن رسول اللّه ﷺ قال (من القيلولة) فى بيتها ، فاستيقظ وهو يضحك فسألته فقال : (عُرض علىّ أناس من خيار أمتى يركبون ثبج [1] البحر الأخضر كالملوك على الأسرة) قالت : يا رسول اللّه ، ادع اللّه أن يجعلنى منهم . قال :(أنت من الأولين) قال فتزوجها عبادة بن الصامت فأخرجها معه فلما جاز البحر ركبت دابة فصرعتها . وقال ابن الأثير : وكانت تلك الغزوة غزوة قبرص فدفنت فيها وكان أمير ذلك الجيش سيدنا معاوية بن أبى سفيان وضرب عليها جزية عظيمة .

ثم فتح من الجزر إقْريطش (كريد) وجزيرة (كوس) وجزيرة (رودس) وجزيرة (أرْواد) قرب القسطنطينية ومن البلاد لحد قيسارية (قيصرية) .

انظر لعمله رضى اللّه عنه فى فتح هذه الجزر تجده أدرك ببصيرته المعنى الذى لاحظته دول أوربة فيها الآن وأصبحت تتناطح عليها من أجله وأن عمله فى ذلك الوقت عمل الحكيم الحليم العاقل الحازم الذى قيل فيه :

البس لكل حالة لبوسها   إما نعيمها وإما بؤسها

صان كرسى الملك بالأبهة والعظمة وجلب إليه القلوب بحسن المجاملة وملكها بجميل المعاملة فهابه العدو وطمع فى كرمه الصديق وجيش المسلمين فى ذلك الوقت لم يصل إلى مائة ألف مقاتل وجميعه منتشر فى البلاد من الشام إلى أرمينية ومنها إلى مصر وغيرها من الجزر القصوى والأراضى التى افتتحت من بلاد العرب إلى الصين .

كانت الدولة فى عهده بدوية حضرية فكان اجتماعها وتعاونها فى حاجاتها بالمقدار الذى لا يورث الرفه والدعة والترف البالغة مبالغها فى عهد المعاش والمسكن فكانت الأمة مقبلة على الدنيا بالمقدار الضرورى فقط محافظة على البعد من الانغماس فى الترف وأسباب الشهوات التى لا توجد دواعيها إلا فى نهاية العمران والحضارة اللذين هما نهاية

---

(١) ثبج : وسط .

ستر والبعد عن الخير .

ثم انفرد له الأمر فحارب الروم بحرا وغزاهم برا ، وأغرق من سفن قسطنطين الثانى جزءا عظيما فى خليج (الصيالوق) بسواحل إقليم (ليسيا) من الأناضول فى سفح جبل (فينكس) .

ثم زاد فى مقدار أسطوله وسيره فى زمن الربيع حتى بلغ به سواحل مرمرا فنزل غرب القسطنطينية وحاصرها ست سنين يؤخر فى كل سنة (فى تشرين الثانى) الموافق (نوفمبر) أساطيله إلى مينا (سيزَنْقَه) التى كان استولى عليها ثم يعود للحصار زمن الربيع .

ثم سير جيشه الكثيف ، وأمر عليه سيدنا سفيان بن عوف ، وأمر ابنه يزيد بالغزاة معه فتثاقل واعتل ، فأمسك عنه ثم أصاب الناس فى غزاتهم جوع ومرض شديد .

فعلم أنه أراد بتثاقله إتمام لذائذه فأقسم ليلحقن بسفيان بن عوف فى أرض الروم ليصيبه ما أصاب الناس ، وسار وكان فى الجيش سيدنا أبو أيوب الأنصارى ، فاقتتل المسلمون واشتدت الحرب بينهم وتوفى أبو أيوب عند القسطنطينية بالقرب من سورها وهو ممن شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وصفين مع (على) وغيرها من حروبه .

وفى تشديده على يزيد فى اللحاق بالجيش ما لا يخفى من أنه لا تأخذه فى الحق لومة لائم ولا يعرف فيه قرابة ولا رحما ولا يصون نفسه ولا أولاده عن الجهاد فى سبيل الله ومقاسمة المسلمين فيما هم فيه من خير ومن شر، ثم استمرت الغزوات برا وبحرا وقواده فيها (بشر بن أرطأة) و (سفيان بن عوف) و (فضالة بن عبيد الأنصارى) و(مالك بن عبد الخثعمى) و (عمر بن يزيد الجهنى) حتى فتحوا من البلاد فى مدة وجيزة ما لو أردنا ذكر خبرها لاستلزم أسفارا ضخمة .

اختصوا بالعناية الإلهية القوة واحتضنتهم السعادة فلم ينحرفوا عن سنن الاعتدال ولم يغلب الرجل منهم على رأيه غالب . ولم يلفته عنه أدنى الرضا وأدنى السخط ، وثقوا من أنفسهم فوثقت بهم الأمة وأصبحوا متحدين فى آرائهم غير مختلفى الأهواء .

وإلى هنا يحق للقلم أن يقف دون وصف غرابة هذا المشهد الذى تفاوتت فيه مراتب الهمة والعزيمة إلى أعلى ما يمكن من منازلها الرائعة يحق له أن يقف دون العجب من هذه الحال التى فاتت سعة العلم وتعدت قوة العقل وأصالة الحكم وذهبت بكثير من الناس إلى ما وراء عجب المحسات وعلت بهم فوق ما تتخيله الأفكار . ألا عارف يخبرنى كيف كان

ذلك ؟ مقام الخلافة يحفظ ، ومعظم جزر البحر المتوسط تؤخذ ، وبلاد إلى حدود الصين تفتح ، والروم تهدد وتحصر ، وجيش الدولة لا يبلغ مائة ألف نفس على الأكثر منتشر فى الجهات كما ذكرنا .

ما بال المسلمين تعددوا بعد توحدهم وتفرقوا بعد تجمعهم ؟ أين التناصح بالحق والتواصى بالصدق والاعتصام بالصبر ؟ أين الحق الذى فرض على كل مسلم القيام به لدينه ونفسه وأهله وبلده ووطنه ؟ اللهم إما أن أولئك كانوا ارتقوا عن أفق الإنسانية إلى عالم سماوى ، أو تكون هذه (الملايين) انحطت عن أفقها الإنسانى إلى أفق العجماوات !

إذا كان لابد من مذكر بالخير ومشير بالرأى فليحقق لمن هو مطلوب منهم الإصلاح وموكول إليهم أمر الأمة وهم المسئولون عن كل صغيرة وكبيره تلامسها بين يدى الخالق والمخلوق أن البدع والتعاليم الفاسدة التى فرطوا فى منعها جعلت المسلمين شيعا وأذاقت بعضهم بأس بعض حتى صار الكل غرضا لسهام مظالم الأعداء . ولا تزال الأمة تزداد تفريقا حتى تزعزعت عقائدها وفسدت آدابها وتجرأت الناس على استباحة المحظورات وأصبح لها أقبح الأثرفى العوائد والأخلاق .

إن باب هذه الفتن إنما فتح على الأمة بانصراف كبرائها عن الجادة المستقيمة وإن اللّه لمطلع على أحوالهم عالم بما أضاعوه من أمر عباده ولقد كان لهم سوء الأثر فى تضليل هذه العقول وفساد الأخلاق وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم فليتقوا اللّه فى هذه الأمة ولتعلم هى أنها أسرفت على نفسها ، وإن هى أفاقت أسفت كل الأسف على ما فرطت ، وندمت (وإن كان الندم لا ينفعها) على ما فات فربما ينبهها إلى ما هو آت .

هذا بعض الشئ من هذه السيرة الجليلة سيرة هذا الفاتح وأصحابه ورجال دولته الذين جمعوا أمرهم بعد الشقاق عسانا نتعظ بها فنلم شعث [1] الفرقة . وقد نبع قوم ينتقصون فعل معاوية وينالون منه وهم أقل من أن يعدوا فى مصاف الرجال : ﴿ **وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه** ﴾[2] ، ولكن أهل السنة جميعا على حب أصحاب النبى ﷺ ودفع التأثيم عنهم كالشأن فى المجاهدين ؛ لأن اللّه امتن عليهم بمنة لم يشاركهم فيها أحد : وهى حلول نظر رسول اللّه ﷺ فيهم وإمداده لهم بما قطع غيرهم من اللحاق بهم فى باهر فعلهم وكمالهم وعظيم استعدادهم وسعة علومهم وحقيقة شرفهم . فاللهم ارض عنهم واحشرنا معهم واجزنا بمحبتهم خيرا واهدنا لبعض عملهم هذا . آمين يارب العالمين .

---

(١) شعث : تفرق . (٢) الحج : ٧٣ .

الوليد بن عبد الملك

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاصى بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف أبو العباس الأموى بويع له بعهد من أبيه يوم الجمعة النصف من شوال سنة ست وثمانين وهو ثانى الخلفاء المروانيين .

أى بلاد فتحت وأى مساجد عمرت وأى آية للحضارة والعمران ظهرت فى عهد هذا الخليفة المجاهد المقدام الفاتح أبى الأيامى وثمال [1] اليتامى وملجأ العجزة والمساكين ، الذى شرح القلوب المحزونة ببره وفتح البلاد المستحكمة بسيفه وعدله شبيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى فعله وفتحه وانتشار الإسلام بفضله حتى قالوا : وأيامه كأيامه .

كأنما كان فعله متحريا مكان الوجدان من القلوب ومقر التصديق من العقول . لذلك تجد الذى عمره من المساجد وشيده من مواضع العبادة من أنفس ما يتقرب به إلى الله العامل العابد . وما فتحه من البلاد والممالك من أشرف ما يفتخر به الإنسان الفاتح القائد . فتراه مثلا يجدد فى مسجد رسول الله ﷺ فى المشرق ويفتح الأندلس للمسلمين بالمغرب . إن ذلك لمن أعظم نتائج الفطنة وثمرة العقل . ولذلك كان عصره من أرقى العصور مدنية وأغزرها فتحا .واتساعا وعمرانا وأجلها عظمة وأبهة لاشتراك الأمة فى أعمال الخير وانصرافها فى سبيل المجد والاجتهاد وتوجه سعيها إلى التغلب على الغير والذب عن الحوزة .

ولى الخلافة فى أواخر سنة ست وثمانين كما قدمنا فما دخلت سنة سبع وثمانين عليه إلا وهو مقسم أوقاتها بالفكر والخيال جاعل أيامها وساعاتها ينابيع سعادة ووسائل ارتقاء .

بدأ بتعيين عماله فى البلاد التابعة للخلافة الإسلامية بانتقاء وانتقاد يفوقان حد الوصف ويتعديان موضع التحرى ، وحسبك انتقاء مثل لسيدنا عمر بن عبد العزيز أميرا على مكة المكرمة والمدينة المنورة ؛ فقد جمع بين المسجد وحمامته وخلى بين الخطيب ومنبره .

ثم شرع فى بناء جامع دمشق الذى هو إحدى عجائب الدنيا جمع فيه مائة ألف ماهر من الصناع ، وحمل إليه أربعين حملا من الفسيفساء هدية من ملك الروم ، ثم أتت وفوده

---

(١) ثمال : راعى .　　　(٢) استفزهم : ضايقهم .

لمشاهدته فصرعتهم عظمته واستفزتهم [1] أبهته ، وناهيك بهيبة مكان سلاسل قناديله من اللجين المسبوك . ثم كتب للجهات بتوسيع المساجد وبنائها ، فكتب بإدخال حجر رسول الله ﷺ في مسجده وتوسعته بمائتى ذراع ، وهكذا جدد المسجد الحرام ومسجد ومسجد مصر .

ثم والى الفتوح وسير قتيبة بن مسلم الباهلى من أكابر قواده ففتح خوارزم و (سَمْرقند) و (سَرْدَانِيَة) .

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين فجهز مسلمة أخاه والعباس ابنه لغزو الروم فجمعت خمسون ألفا فلما التقى العسكر غلبت الروم وفتحت بلاد كثيرة من مملكتها .

وفي سنة تسع وثمانين فتحت جزيرتا (منورقة) و (ميورقة) من جزر بحر الروم شرقى الأندلس . وفى سنة تسعين فتح عسكر الإسلام (نَسَف) ومدائن أخرى وحصونا من أذربيجان . وفتح محمد بن مروان جهة (دَرْبَند) وحصونه ودان له ما وراء باب الأبواب وفتح الحجاج بخارى . ووصل محمد بن القاسم لأرض الهند . ودخل قتيبة (قَشْغَر) أول مدن الصين وافتتحها بعد حرب عوان لاقى فيها ابن أخت ملك الصين فى مائتى ألف مقاتل .

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وكان موسى بن نصير أمير المغرب وعامله على إفريقية ، وكان استنزل يوليانوس لطاعة المسلمين بعد حروب كثيرة ، وعرف منه السبيل لفتح الأندلس ، فأرسل خيرة القواد طارق بن زياد الليثى لفتحها ، فجاز طارق البحر فى ٣٠٠ فارس من العرب ، واحتشد معهم من البربر نحو من عشرة آلاف وصيرهما عسكرين ترأس على أحدهما ونزل به جبل الفتح الذى سمى باسمه ، والآخر رأس عليه طريف بن مالك النخعى ، فلقيهم رودريك فى نحو من أربعين ألف فارس فهزموه وافتتحوا البلاد وغلبوهم على ما بأيديهم مع كثرتهم وقوتهم ؛ لأنهم مقبلون بقلوبهم متحدون بوجهتهم .

فلما بلغ خبر هذا الانتصار موسى بن النصير استخلف على القيروان ولده عبد الله ونهض فى سنة ثلاث وتسعين فى عسكر عظيم ودخل الأندلس وأتم الفتح إلى برشلونة فى الشرق وأربونة فى الجوف وصَنَم قادس فى الغرب .

أصبحت الأندلس وهى المملكة المعدودة فى الرتبة السادسة بين الممالك الأوربية

---

(١) استفذهم : ضايقهم .

داخلة تحت حكم مملكة العرب وجناح الإسلام يرف فوقها غربا وفوق قارة آسية شرقا .

انظر لعزيمة هذا الفاتح الجليل ومضاعفة الدين واليقين لقوته . أجمع رأيه أن يأتى إلى المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام خائضا ما بينهما من أمم الفرنجة والأعاجم وغيرهم : يعنى أنه يخترق مملكة فرنسا من شمالها فيدخل فيها ثم يعرج من غرب أرض سويسرة أو مملكة جرمانيا ثم يدخل فى مملكة (أستّوريا) ثم إلى الروملى إلى القسطنطينية إلى الأناضول فدمشق أو ما حوالى ذلك . وكاد يكون ذلك لولا حرص الوليد على جماعة المسلمين وقلقه عليهم وموالاة كتبه لموسى بن نصير بالعودة ولزوم طاعته فقفل راجعا وولي ابنه عبد العزيز عليها وأسكنه قُرْطُبَة ، ومن هنا اتصلت العرب بأراضى الفرنجة وتوغلوا فيها ، ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ففتح فيها مدينة (أرْدَبِيل) والكرْخ والبيضاء وخوارزم ، وفتح فى سنة أربع وتسعين كابُل وفرغانة والشاش ، وفتحت أقاصى جهة الباب ومدينة طوس فى سنة خمس وتسعين .

ثم دخلت سنة ست وتسعين التى أراد الله أن يتقلص ظل هذا الخليفة العادل عن الدولة فيها ولا معقب لحكمة ولا رب سواه ، فقضى رحمه الله بدير مرّان ، وحمل على أعناق الرجال ، ودفن بدمشق ، وتولى دفنه سيدنا عمر بن عبد العزيز فودع الدنيا مصافحا لخير أهلها . وكانت مدّة خلافته تسع سنين وثمانية أشهر استقر فيها نصاب الدولة فى مقر عزة من السلطان والقدرة وكمال الفضيلة . ولولا أن عاجله الفناء لاقتطع من الممالك الأوربية ممالك عظيمة وشيد لخلافته ومهد لعصابته [1] ما هو أجل وأفخم مما شاده وبناه .

اتسعت ممالك الإسلام فى دولته اتساعا لم يعهد له مثيل وجبى من الأموال شيئا كثيرا ، وكانت الدولة فى عهده غاية فى الثروة ، وكان فى بيت ماله ما يكفى الحاجات وذوى الحاجات ست عشرة سنة ، وحث الناس على الأبنية والعمارة وبناء الضياع ، وأصلح الله به وبهم الأرض ، فأحالوا القفار حواضر وتهيأت الأمة واستعدت لقبول كل خير ، وكان مع اتساع هذا الملك وزيادة عمرانه يقظا فى أمر دولته لا تفوته الذرة ولا تكاد نفوس أعدائه تحدّث سرها بمخالفته ، وكانت له عيون تطالعه بأخبار الناس منبثة فى كافة أرجاء ممالكه ليقفوا له على متجددات الأحوال : من ذلك ما يحكى أن الهيصم بن جابر أحد الخوارج عليه اختفى وهرب إلى المدينة لما أحس بشدّة التضييق عليه والطلب له ثم أطال شعره واختضب وغير من شكله وهيئته ودخل فى غمار الناس ولم يعرفه أحد : ثم بلغ

---

(١) عصابته : جماعته .

الوليد أن أمره هذا قد أعيا الحجاج فنقب عليه مرة ، فعلم أن الرجل بالمدينة على الهيئة التى ذكرناها ، فكتب إلى عثمان بن حيان بالمدينة ينبئه بأن الرجل عنده ويصف له من أمره وحاله ما هو عليه ، فقرأ عثمان الكتاب على الناس والهيصم جالس ، فنظر إليه رجل كان بجانبه وقال له : ما أنا بمخليك . وقبض عليه وأتى به عثمان بن حيان وأقر أنه الهيصم .

ومن فضائله أنه كان يختم القرآن فى ثلاث ، وكان يبر حملته ويقضى عنهم ديونهم ، وكان محبا للخير محبوبا عند الناس ساهرا على ما فيه سمو مقام الخلافة ، وهو أول من حمل الطعام إلى المساجد .

ومن غرر أعماله التى فاق بها من جاء قبله وسبق بها من جاء بعده أنه حبس المجذومين والعميان والزمنى ، وأجرى لهم الأرزاق وبنى لهم الملاجئ ، وحشر إليها المرضى وأعطى كل مقعد خادما وكل ضرير قائدا وشيد التكايا وجمع فيها المعوزين وقال للمحتاجين : لا تسألوا .

هو أول من لاحظ أمر الصحة بأشراف معانيه فقطع بين أصحاب العلل والأصحاء ووصل بينهم وبين النعمة والإحسان ، فمنع تلك الوجوه المحتاجة من الخروج للطلب فى الأسواق ، وكلف القادر الصحيح الخدمة والعمل فحقق إنصافه بين الرعية بالعدل ؛ لأن فى انزواء المقعد ظهور القادر الذى وفقه الله للعمل يتميز بعمله منهم ويربأ (١) بنفسه أن يرى عيالا على الناس . وتناهى فى الاعتناء بأمرالصحة حتى كان من عوائده سؤال الأطباء عن أهوية البلدان ونفعها للأمراض ، فلما سمع منهم أن هواء دمشق ينفع المجذومين أسس هناك ملجأ للمجذومين لا تزال آثاره باقية خارج المدينة للآن .

وهو أول من وضع المنار فى الطرقات ناهيك بها من نعمة تحقق الأمن وتستدعى زيادة العمران .

وهو أول من وضع علامة الأميال فى الطرقات ما بين المدينة والشام وغيرها ورقم عليها أعدادا ، ليعلم المسافر القدر الذى قطعه والباقى عليه من سفره .

وهو أول من حفر الآبار من الشام للمدينة ومن المدينة لمكة يشرب منها الوارد والمتردد .

أفلا ينبغى لنا أن نذكره بالخير إذا رأينا الآن اهتمام الممالك والجماعات بأمر الصحة العمومية وجمع الإعانات لها وعجزهم على كثرة مواردهم عن القيام بما كان قائما به الوليد ؟

---

(١) يربأ : يسموا .

أفلا ينبغي أن نذكره بالخير إذا رأينا الآن عدد (الكيلومترات) على جانبى السكة الحديد وهى العلامات التى كان هو أول من وضعها بالفوائد التى بيناها ولضبط مواقع الوقائع من خير أو شر ؟ نعم ينبغى لنا ذلك لنعرف للمبتكر حقه فى الفضيلة وللمخترع قدره فى الإحسان . وبالجملة فقد كانت الدولة والأمة فى مدته آية فى العمران والحضارة وتشبيد مواطن الخير والبر والإحسان ، فلا تجد بقعة إلا وفيها شئ من ذلك .

كثرت فى عهده الخيرات ولم يعهد عليه فيها شئ من أبواب الظلامات كتسخير الرعايا بغير حق أو اغتصاب شئ من معاشهم ومكاسبهم من اعتمالهم ، ولم يدخل الضرر على أحد بانتقاص عمرانه أو تخريب جداره لغاية له . ولم يتسلط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ولم ينجح إلى المكوس [1] وزيادتها والتناهى فيها للحد الذى الذى لا يجيزه دين ولا شرع ولا عقل ولا طبع كما رأيناه وسمعنا به . وهذا مصداق ما قاله الموبذان (لبهرام) ملك الفرس : من أن الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة وهى بحبوحة العدل والخوف من الله وهو رأس الحكمة ؛ لأنه لا شئ بعد القيام لطاعة الله والتصرف تحت أمره ونهيه ثم لا قوام بالشريعة إلا بالملك ، ولا عز للملك إلا بالرجال ، ولا قوام للرجال إلا بالمال ، ولا سبيل للمال إلا بالعمارة ، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل ، والعدل الميزان المنصوب بين الخليفة نصبه الله وجعل الملوك قيمة عليه .

هذه حال الدولة وهى فى نشأة الحياة تسرى روح العدل فيها من السلطان إلى أهله إلى حاميته إلى جنده إلى أمته إلى جميع رعيّته بالتشبه والاقتداء ، فتجد الكل سواء فى الملابس والشارات والعوائد والأخلاق والأحوال والمصانع والبيوت وهذا معنى قولهم : الناس على دين ملوكهم ؛ لأن الملك غالب والرعية مقتدون لاعتقادهم الكمال فيه . أما حالها وقد صارت إلى غير ذلك فالتكاسل والاستبعاد حتى تصبح الأمة عالة على غيرها ويقصر الأمل فيها ويضعف الاعتماد ببطلان النشاط واختلال القوى وتتلاشى المكاسب والمساعى لعجز الناس عن المدافعة عن أنفسهم وعما فى حوزتهم وتنقبض الأيدى عن العمل ، فيصبح طعمه لكل آكل ، ثم يذهب ما للملك من الأبهة والجمال وتغشى الناس أخلاق الحقد والحسد ، فإذا تم ذلك والعياذ بالله عمت النكبات والمصادرات وضعفت الشوكة الخارجة ، وأصبح سهم القدرة لا يتعدى الأمة وأصبحت هى معرضة للهلاك والله أعلم .

---

(١) المكوس : الضرائب الباهظة .

سليمان بن عبد الملك

هو سليمان بن عبد الملك أبو أيوب من خيار خلفاء بني مروان . ولى الخلافة بعهد من أبيه بعد أخيه في جمادى الآخر سنة ست وتسعين . وتوفى فى سنة تسع وتسعين بدابق ، بين حلب وعَينتَاب فكانت مدة خلافته ثلاث سنين وثلاثة أشهر . كان طويلا جميلا فصيحا لسنا أديبا متورعا عن الدماء مؤثرا للعدل محبا للغزو . روى قليلا عن أبيه وعبد الرحمن بن هبيرة وروى عنه ابنه عبد الواحد والزهرى . كان حسن السيرة يرجع إلى دين وصحبة الحق واتباع للقرآن وإظهار للشرائع الإسلامية . وهو أسخى بنى أمية وبنى مروان بالدرهم والدينار .

استكتب يزيد بن المهلب والفضل بن المهلب وعبد العزيز بن الحارث بن الحكم . وكان خطيبا فمن خطبه الموجزة :

أيها الناس ، اتخذوا كتاب الله إماما ، وارضوا به حكما ، واجعلوه لكم قائدا ؛ فإنه ناسخ لما قبله ولن ينسخه كتاب بعده .

كان وزيره سيدنا عمر بن عبد العزيز صفوة أهل زمانه ، فكان يمتثل أوامره فى كل خير وكلها خير ، فأصبح جميع ما أسرف فيه الحجاج منسوخا ! عزل عماله وأخرج من كان فى سجن العراق ورد المنفيين وأحيا الصلاة لأول وقتها . ثم استخلف عنه سيدنا عمر ففتح أعماله بخير وختمها بخير فسموه مفتاح الخير.

لم يقصر فى مدته على قلتها من التوسعة على المسلمين ، بل كانت أيامه ذات فتوح متوالية وكان غيورا شديد الغيرة ، فامتدت الدولة فى مدته إلى آخر بلاد الأندلس واستتب له الأمر فيها وفتحت مدن الصقالية . وسردانية ، وجرجان ، وطبرستان ، وناهيك بهما هما مما أعيا سابور ذا الأكتاف وكسرى قباذ ، وكسرى بن هرمز ، بل مما أعيا عمر وعثمان ومن بعدهما من خلفاء الله تعالى رضى الله عنهم .

كانت الطرق قبل فتح جرجان مخوفة يتوسطها الأشقياء فيقطعون السابلة ويفسدون فى الأرض ، فكان بهذا الفتح إسبال ستر الأمان على كل قاصد لتلك الجهات للانتفاع من

خيراتها التى كانت محجوبة بيد هؤلاء الأشقياء .

حج بالناس سنة سبع وتسعين ومعه سيدنا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ففرض : أربعة آلاف لقريش خاصة ليس فيهم حليف ولا مولى ، فدخل جماعة من قريش عليه وقالوا له : إننا جعلنا ذلك لموالينا . ففرض سليمان أربعة آلاف أخرى .

ثم بعد قضاء الفريضة على أكمل أوجهها عاد إلى مقر خلافته وندب أخاه مسلمة وقطع معه البعوث على أجناد الشام والجزيزة وجمع آلات الحرب للصيف والشتاء والمجانيق والنفط وغير ذلك من أدوات زمانه ، وعقد له على الجيش برا وبحرا وخرج معهم بهيئة الخلافة وهيبتها ومعه جماعة من الفقهاء حتى نزل (دَابِق) وجاءته الأجناد من كل ناحية فأتم أمر الجيش .

رحل (مسلمة) أخوه بالجيش فسلك طريق مرعش وافتتح مدينة الصقالية كما ذكرنا وشتا حواليها ثم سار لطلب القسطنطينية حتى نزل عمورية وبطْريقها (ليون) بن قسطنطين المرعشى فوادعه مسلمة وأعطاه رهنا وأخذ منه مثله وتعاهدا على المناصحة والمظاهرة على أهل القسطنطينية وحلف (ليون) أن يكون عونا له . ثم أخذ ينتقل به الحال حتى دخل القسطنطينية و (تيدوس) حاكم عليها فما زال يلعب بكرة الأروام مرة وبصولجان المسلمين أخرى حتى دس لتيدوس من قتله وتفرد بالملك من غير منازع . ثم غدر بمسلمة ونقض عهده وأغراه بحرق ذخيرته فى كلام طويل يطلب فى مظانه من كتب التاريخ ، ولا فى المسلمون من الأذى والشدة ما لم يلقه أحد وأكلوا الدواب والجلود وأبلوا فى سبيل الله بلاء حسنا . وكل ذلك سببه سلامة النية وصدق الوعد والبقاء على العهد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله :

كل خليل كنت خاللته ... ما ترك الله لـه واضحـه

فكلهم أروغ من ثعلب ... ما أشبـه الليلة بالبارحـه

هذا وسليمان مقيم بدابق لا يقدر على إمدادهم بشئ من الأزواد الكثيرة البرد والثلج الذى قطع بينه وبين جيشه العظيم الذى يبلغ نحوا من مائة ألف مقاتل وقواده ابنه داود ومسلمة بن عبد الملك أخوه وجماعة من أهل بيته وعمر بن هبيرة .

مرض بالحمى فأقسم ألا يعود إلى مقر خلافته حتى يأتيه خبر فتح القسطنطينية أو يموت حيث هو ، فلما اشتد عليه المرض سأل (رجاء بن حيوة) — وكان وزير صدق لبنى

أمية ـ في أمر العهد فقال له : إن مما يحفظ به الخليفة في قبره أن يولي المسلمين من بعده الرجل الصالح قال : كيف ترى في عمر بن عبد العزيز ؟ فقال : أعلمه والله خيرا فاضلا مسلما فقال : هو والله على ذلك وأشار على (رجاء) أن يجعل يزيد بن عبد الملك أخاه ولي العهد بعد سيدنا عمر بن عبد العزيز ، فكتب كتابا وختم عليه ودعا الناس إلى بيعته مختوما وقال له : اخرج إلى الناس فيبايعوا على ما فيه فبايعوا ثم مات سليمان وفتح الكتاب فإذا فيه العهد لسيدنا عمر بن عبد العزيز : فتغيرت وجوه بني أمية ثم لما سمعوا بعده اسم يزيد بن عبد الملك أخيه تراجعوا فأتوا عمر فسلموا عليه بالخلافة .

اللهم لا زراية على السابق ولا تذرية للأحق . ولكنها فعلة فاتت الجميع حتى الولي والوصي . فلم يعهد في جاهلية ولا إسلام عهد رعاية للورع والصلاح والاهتمام بأمر المسلمين أجل من هذا .

لم يمت سليمان بن عبد الملك رضي الله عنه عن عقب بل عن أربعة عشر ولدا من الذكور منهم داود قائد جيشه في حرب القسطنطينية وغيرها ولا عن غير قرابة . فإخوته كثيرون ومنهم مسلمةالذي أبلى في حروبه وفي حصار القسطنطينية وغيرها في لعهده وعهد الوليد أخيه بلاء حسنا . ولكن رأى أن حقوق هؤلاء من جهة لُحْمَة نسبهم به وقرابتهم إليه أقل من حق جماعة المسلمين الذي جعله الله في عنقه فسلم الخلافة لخير أهل زمنه فخرج من عهدتها طاهر الذيل . وناهيك بكلمات وزيره (رجاء بن حيوة) معه في هذا الموقف الحرج .

يدلنا هذا الحال على أن العلماء في كل زمان هم بمنزلة العقل المدبر والروح المفكر من الأمة فصلاح حالها بصلاحهم وفساده بفسادهم . ولقد ابتلى الله المسلمين في أزمنتهم الأخيرة ببعض علماء لا يعرفون من دنياهم شيئا إلا نصب هياكل الإطراء ورفع تماثيل المدح لكل رئيس من الرؤساء وعظيم من العظماء فضلا عن خليفة من الخلفاء .

فسدت أخلاق العامة بالزور والرياء والنفاق والكذب والمحاباة والمصانعة والمداجاة (١) بل تزعزع اعتقادهم بسبب ذلك وأخذوا ينتصرون لهوى نفوسهم الخبيثة وأهوائهم الباطلة والعلماء لا يصدونهم عن هذا بشرح الحقائق والترجمة عن السجايا الجميلة والأخلاق المرضية .

سأل سليمان بن عبد الملك رضي الله عنه (أبا حازم) وكان زاهداً فقال له : كيف

(١) المداجاة : المخادعة .

القدوم على الله تعالى ؟ قال : أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله مسرورا وأما المسئ فكالعبد الآبق يعود إلى مولاه محزونا قال سليمان : فما بالنا نكره الموت ؟ قال : لأنكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم النقلة من العمارة للخراب .

يا غوثاه من هذه الكلمات ! كيف تقال فى وجه خليفة جمعت خلافته بين أوصال المشرق والمغرب وتحت رأيته الجيوش الجرارة وآلات الحرب والضرب وأمره نافذ فى قارتى آسيئ ومعظم أوروبة وما بينهما . فإن لم يكن هذا من خير علماء الآخرة إذ قالها وهذا الخليفة من خير خلفاء الدنيا إذ اتعظ بها فمن ؟

وما زالت الدول الأوربية المتمدينة توحى للمسلمين بتمدينها حتى اعتقدوا كما برهنت لهم أن الدين حائل دون الارتقاء وقيد ثقيل لا يمكن الإنسان من الوثوب إلى معالى الأمور ، ثم سلكت بهم سبيل الترقى والسيادة الذى هدتهم إليه وملكتهم مقاليد العز والسعادة التى مكنت يدهم منها ، ولم تمض الأيام وتنصرم الليالى حتى انكشف السر وظهر الصبح لذى عينين ، ورأوا أنفسهم يرسفون (1) فى قيود الذل وأن تلك الأمم المتمدينة كانت ترمى لغرض آخر تفننت فيه بحسب أطماعها ، وليس الغرض منه إلا ترك هذه الشعوب لآداب دينهم وعوائدهم وتقاليدهم وإدخالهم مضايق لا مخرج لهم منها حتى يمسوا ويصبحوا مضغة للأكل ، وكان كذلك .

ألا نظرة صادقة من هذه الأمة المسكينة إلى ما كانت فيه ونظرة إلى ما صارت إليه ؟ لتعلم أنها مخدوعة فيما يبهج الناس منظره ويسر القوم رؤيته فتنتبه لمصابها ، وتعلم علتها ، فلا تحيد عن الهدى الصحيح والطريق المستقيم ، حتى تخرج من درك الشقاء ولا تنتهى إلى شر المصير :

إنما المرء حديث بعده ... فكن حديثا حسنا لمن وعى

---

(1) يرسفون : يتحركون .

سيدنا عمر بن عبد العزيز

ماذا تسع هذه العجالة من وصف هذا الخليفة العالم الورع الزاهد الخاشع الديِّن الليِّن السهل القريب الذى ملأ الأرض عدلا وجاء مصداقا للخبر المأثور « إن الله يبعث لهذه الأمة على كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » .

ماذا تسع من وصف من أفرد أكابر المؤلفين المؤلفات فى أخلاقه وصفته وفضائله وخصائصه ، وضرب المثل بعدله ، وشاكل بفعله الجميل أفعال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى قيل : عدل العمرين .

هو أبو حفص عمر بن عبد العزيز مروان بن الحكم بن أبى العاصى بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الأموى . وأمه أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

هو التابعى الجليل الذى روى عن أنس بن مالك وسعيد بن المسيب والسائب بن زيد وخلائق كثيرين .

ولد بحلوان المعروفة من قرى مصر سنة إحدى وستين وكان يقال له أشج بنى مروان : ضربته دابة فى جبهته وهو غلام فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول : إن كنت أشج بنى مروان إنك لسعيد قال ذلك لأن سيدنا عمر بن الخطاب كان يقول : من ولدى رجل بوجهه شجة يملأ الأرض عدلا .

ولى الخلافة وبويع له يوم مات ابن عمه سليمان بن عبد الملك سنة تسع وتسعين عن عهد منه إليه (كما قدمنا فى ترجمته) من غير علم منه فظهرت عليه علامات الاستياء من ذلك . قام الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنه لا كتاب بعد القرآن ولا نبى بعد محمد ﷺ ألا وإنى لسنت بقاض ، ولكنى منفذ ولست بمبتدع ولكنى متبع ، ولست بخير من أحدكم ولكنى أثقلكم حملا . وإن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم . ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

بدت عليه مخايل الورع والدين والصيانة والزهد والنزاهة من أول حركة بدرت منه .

كان شديد التنعم والاختيال فى مشيته فخرج عن جميع ما كان فيه من ذلك النعيم والمأكل والملبس والمتاع حتى النساء . ورد ما كان لزوجته وهى بنت عمه عبد الملك بن مروان إلى بيت المال . وكان دخله أربعين ألف دينار فرد ذلك كله وخصص لنفقة يومه درهمين . ثم صار يلبس القميص الغليظ ولم يتعد الواحد فكان إذا غسلوه يمكث حتى يجف . ويأكل الغليظ من الطعام ، ورد جميع المظالم حتى أنه رد فص خاتم كان فى يده قال : أعطانيه الوليد من غير حق .

حدثت زوجته أنه يكون في الفراش فيذكر الشيء من أمر الآخرة فينتفض كما ينتفض العصفور فى الماء ويجلس ويبكى وهى تقول : ياليت بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين .

علم الناس أنه مؤثر دينه على دنياه فآثروا حبه على نفوسهم . أعرض عن ركوب خيل الخلافة والاجتراء بمركبه الخاص وهجر مكان حكومتها ولازم بيته .

وكانت خلافته سنتين ونصفا على الأكثر ازدان دست الخلافة فيهما به :

فإذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا

لم يكن هذا الزهد والتقشف من الجنس الذى رأيته أنا وأنت : عبارة عن لزوم الرجل كسر الحائط وهو غريق فى لعابه خارج عن بعض ثيابه جامد الفكر لا يتعدى إبصاره موضع قدميه فهو إلى منزلة البله والعته أقرب . كلا بل كانت الدنيا عنده فى كفه والآخرة فى كفة يزن من هذه لهذه ويزرع فى دنياه ما يجزى بخيره فى آخرته .

كان أول ما بادر إليه رضى الله عنه أن بعث إلى ابن عمه مسلمة بن عبد الملك بن مروان يأمره هو ومن معه من المسلمين بأرض الروم بترك حصار القسطنطينية والقفول إلى منازلهم لما يعلمه من اشتداد الحال عليهم كما تقدم البيان فى ترجمة (سليمان) وبعث لهم بالطعام الكثير والخيل العتاق .

ثم وجه حاتم بن النعمان الباهلى للقتال عن أذربيجان وقد أغير عليها ، فطرد عنها القوم ، وأزال عنها الخوف ، وألبسها لباس الأمن .

انظر لعلو رأيه وصائب فكره فى عمله وخبرته برجاله : ولى عدى بن أرطاة الفزارى على إمرة البصرة وناهيك به ، واستقضى عليها الحسن البصرى رضى الله عنه فاستعفاه

فأعفاه ، واستقضى مكانه إياس بن معاوية الذكى المشهور :

والألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا .

وبعث على إمرة الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، واستقضى عليها عامر الشعبى . وجعل على إمرة خراسان الجراح بن عبد الله الحكمى . وكان نائب مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خال بن أسيد . وعلى إمرة المدينة أبا بكر محمد بن عمرو ابن حزم .

وقد حج بالناس ، وأرسل الوليد بن هشام المعيصى وعمر بن قيس الكندى للغزو ، وولى عمر بن هبيرة نيابة الجزيزة ، ثم أخذ فى فحص الأعمال فناقش يزيد بن المهلب الحساب وحبسه لأنه طالبه بما قبله من الأموال التى كتب إلى سليمان بن عبد الملك أنها حاصلة عنده فقال : إنما كتبت بذلك لأرهب الأعداء ولم يكن بينى وبين سليمان شئ . فغضب عمر لضياع مال المسلمين ثم أمر بأن يلبس جبة من صوف وينفى إلى جزيرة دهلك التى كان ينفى إليها الفساق ثم شفع فيه فبقى فى سجنه . وعزل الجراح بن عبد الله الحكمى عن إمرة خراسان بعد ستة أشهر أو خمسة ؛ لأنه أخذ الجزية ممن أسلم من الكفار وكان يقول لهم : أنتم إنما تسلمون فرارا منها حبذا العدل والفضل .

ثم دخلت سنة إحدى ومائة وكانت بدأت الدعوة لبنى العباس فبقى فى مقر الخلافة وحج بالناس أبو بكر محمد بن محمد نائب المدينة ، واشتغل سيدنا عمر رضى الله عنه بتبريد البريد بين المدينة والشام .

وفى هذه السنة مات كثير من الصحابة والتابعين لاتحاد ساعات آجالهم وتقارب أعمارهم . اجتمع عنده مائة ألف أسير من الروم فساوم دولتهم على ردهم وأخذ (ملاطية) وما زال حتى أقنعها واشترى هـذه المدينة بهـؤلاء الأسارى وبناها وأصبحت مـن المدن المهمة .

وفضائل عمر كثيرة أعظم من أن تحصى وتستقصى . فمنها أنه أبطل الكلام فى على رضى الله عنه وقرأ على المنبر ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ (١) واستمر الخطباء على قراءة هذه الآية . ومنها أنه جمع القرآن وهو غلام صغير قال الزبير بن بكار : إن أول ما استبين من حرصه على العلم ورغبته فى الأدب أنه طلب من أبيه رحلته إلى المدينة وقعد إلى

(١) النحل : ١٧٨ .

مشايخ قريش وتجنب شبانهم فتأدب بأدبهم واشتهر ذكره فلما مات أبوه أخذه عمه عبد الملك بن مروان فخلطه بولده وقدمه على كثير منهم وزوجه بابنته فاطمة .

قال عمر بن ذر : لما رجع عمر من جنازة سليمان بن عبد الملك قال له مولاه : ما لى أراك مغتما ؟ قال : لمثل ما أنا فيه فليغتم ؛ ليس أحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أوصل إليه حقه غير كاتب إلى فيه ولا طالبه منى .

ولا عجب فى ذلك ؛ فإنه يتفكر فى الفقير الجائع . والمريض الضائع . والعارى المجهود . والمظلوم المقهور . والغريب الأسير . والشيخ الكبير . وذوى العيال الكثير والمال القليل . وهم فى أقطار الأرض وأطراف البلاد ويعلم أن الله سائله عنهم .

كان لا تأخذه فى الحق لومة لائم : دخلت عنده أشراف بنى أمية يسألون لهم عملا ، فقال لهم : أتحبون أن أولى كل رجل منكم جندا ، ترون بساطى هذا ؟ إنى لأعلم أنه صائر إلى فناء وبلاء وإنى أكره أن تدنسوه بأرجلكم فكيف أوليكم دينى !! أوليكم أعراض المسلمين !! هيهات !!! فقالوا : أما لنا قرابة ؟ أما لنا حق ؟ قال : ما أنتم وأقصى رجل من المسلمين عندى فى هذا الأمر إلا سواء !!

كان محبا للعدل والقسط يبغض الجور والعسف . لا يرى عنده شيئا أفضل من الحق . ومن كلامه : إن كانت الناس لا يصلحها الحق فلا أصلحهم الله وكان يقول : عاقبوا الناس على قدر ذنوبهم لا على قدر أجسادهم . بلغ بالناس أن يقولوا : إن الغنم والأسد والوحوش كانت ترعى بعضها مع بعض فى مرعى واحد فى عهده .

كتب إليه الجراح بن عبد الله : إن أهل خراسان قوم ساءت أخلاقهم وإنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن فى ذلك فعل ورأيه الموفق فكتب إليه عمر : أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر به أن أهل خراسان قد ساءت أخلاقهم وأنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط فقد كذبت بل يصلحهم العدل والحق فابسط ذلك فيهم والسلام .

كان أشد الناس حرصا على العمل بسنن من قبله من الأصحاب : قال الزهرى : كتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله يكتب له بسيرة عمر بن الخطاب فى الصدقات . فكتب إليه بالذى سأل ثم كتب إليه : إنك إن عملت بمثل عمر فى زمانه ورجاله فى مثل زمانك ورجالك كنت عند الله خيرا من عمر .

يزعم الأوربيون أن الشرقيين يعاملون من حكامهم معاملة الأنعام إليهم لا يقومون إلا بالسياط وأنهم هم الذين رفعوا عنهم سوط العذاب وأدنوهم من شرعة العدالة وكشفوا عن عقولهم غمة الوهم . ألا إنَّ هذه الدعوى مما تستخزى النفوس بعد أن اجتث الدين الإسلامى كل جذور الجهل وأخرج الآخذين به عن كل عقيدة باطلة ودعا الناس إلى أصول الفضائل التى أتى بها وأمهات المحامد التى أحياها وقواعد العدل التى أسسها وسد ينبوع الفساد وقطع ذرائع (١) كل محرم . فهذا عدل خليفة من خلفاء الإسلام على رأس القرن الثانى من الهجرة . كانت أوربة فيه فى قطع من الظلمات فى كل شئ فلو لم ينفرد المسلمون بسوى السابقية فى العدل لكفاهم فضلا .

وثبت من غير وجه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : ما صليت وراء إمام قط أشبه بصلاة رسول الله ﷺ من هذا الفتى حين كان على المدينة . قال : كان يتم الركوع والسجود ويخفف القيام والقراءة .

وكان سعيد بن المسيب رضى الله عنه من خيرة أصحاب رسول الله ﷺ (وهو أول من سمى حمامة المسجد) ـ لا يأتى أحدا من الخلفاء ، وكان يأتى إلى عمر بن عبد العزيز وهو بالمدينة . قال مجاهد : أتينا عمر نعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه . قال ميمون بن مهران : كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذة وهو معلم العلماء . قال سيدنا سفيان الثورى رضى الله عنه : الخلفاء خمسة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهم . وأجمع العلماء قاطبة على أنه من أئمة العدل وأحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين . وقال مالك بن زياد : يقولون مالك زاهد ! مالك زاهدا ! إنما الزاهد عمر ! أتته الدنيا فاغرة فاها فتركها ومن عجائبه ما يروى أنه وقف على راهب فقال له : عظنى فقال : عليك بقول الشاعر :

تجرد من الدنيا فإنك إنما ... خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد

ودخل يوما على امرأته يسألها أن تقرضه درهما يشترى به عنبا فلم يجد عندها .فقالت له : أنت أمير المؤمنين ولا تقدر على هذا ؟ قال : هذا الحرمان أيسر من معالجة الأغلال غدا فى جهنم .

أما موته فقد قيل فيه أقوال كثيرة وما آفة الأخبار إلا رواتها فمن ذلك أنهم قالوا : إن

(١) ذرائع : وسائل .

بنى أمية علموا أنه إذا امتدت أيامه أخرج الأمر عن أيديهم ؛ لأنه لا يعهد بعهده إلا لمن يصلح الأمر فعاجلوه .

قيل : إن مولاه دس له سما فى طعام أو شراب وأخذ ألف دينار فمرض فأخبر أنه مسموم ، ثم استدعى مولاه وقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : ألف دينار فقال : هاتها . فأحضرها ووضعها فى بيت المال وقال لمولاه : اذهب فلا يراك أحد .

قيل له هؤلاء بنوك (وكانوا اثنى عشر) : ألا توصى لهم بشئ فإنهم فقراء ؟ قال : إن ولى الله لا إله إلا هو وهو يتولى الصالحين والله لا أعطيهم حق أحد. وهم بين رجلين : إما صالح فالله يتولى الصالحين ، وإما غير صالح فما كنت لأعينه على فسقه . ثم استدعى بهم فودعهم وقال لهم هذا الكلام ، ثم قال : انصرفوا عصمكم الله وأحسن الخلافة عليكم .

قالوا : إنه لما احتضر صرف من حوله فخرجوا وجلس مسلمة بن عمه وفاطمة زوجه على الباب فسمعاه يقول : أهلا بهذه الوجوه ليست وجوه إنس ولا جان ثم قرأ : ﴿ **تلك الدار الاخرة** ﴾ (1) الآية ثم انخفض الصوت فدخلوا فإذا به قضى رضى الله عنه .

---

(1) القصص : ٨٣ .

هشام بن عبد الملك

هو هشام بن عبد الملك بن مروان ولى الخلافة سنة خمس ومائة لما مات أخوه يزيد بن عبد الملك بعهد منه . كان بالرصافة فجاءته بشرى الخلافة على البريد ، فركب من ساعته وسار إلى دمشق وبويع فيها بالخلافة وكان متنعما . قالوا : لم يكن فى بنى مروان أعطر ولا ألبس من هشام . يقال إنه خرج فحملوا ثيابه على ستمائة جمل .

كان محبا للعمران . مستجدا فى أدوات الزينة . متناهيا فى تربية الخيل متباهيا بها . وهو الذى أقام الحلبة وجمع فيها أربعة آلاف فرس . قال المسعودى : وذلك ما لم يتفق لأحد من الناس لا جاهلية ولا إسلاما .

ولع بجودة السلاح وعدد الحرب ولاماتها [1] . شغف باصطناع الرجال وتقوية الثغور ، وهو الذى شاد المعاقل صيانة للبلاد ، واتخذ القنى البرك بطريق مكة وغيرها رحمة بالعباد .

كان حازما سديد الرأى غزير العقل عالما بالسياسة : قال الهيثم بن عدى والمدائنى وغيرهما : إن السواس من بنى أمية ثلاث : معاوية رضى الله عنه وعبد الملك وهشام .

اشتدت فى أيامه الدعوة لبنى العباس وثارت روح العصيان فى الأحزاب المرشحة للخلافة حروب أخرى وقوى الله المسلمين عليها فانتصروا وغنموا أشياء كثيرة ، وفاز عسكر أسد بن عبد الله القسرى فى غزواته ، وقتل خاقان الترك ودخل بلاد غَرْغَانَة وخُوقَنْد بعد التعب والنصب والجهد الجهيد وقتل الكثير . وغزا عامله أيضا نصر بن سيار بلاد (ما وراء النهر) ففتح وغنم منها خيرا عظيما .

فتحت فى أيامه قيصرية الروم بالسيف وغيرها على يد البطل الشجاع المشهور ، وغزا مروان بن محمد بن مروان عامل الجزيرة وأرمينية ورتب عليه الجزية .

تولى الخلافة والفتن ببلاد المغرب على قدم وساق منتشرة فى أرجاء البلاد ، وكان البربر قتلوا عامله بشر بن صفوان فولى عليها بعده عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ، ثم

---

(١) لامات : ملابس الحرب .

رأى أنه ليس برجل زمنه فولى مكانه عبيد الله بن الحبحاب وكان رئيسا نبيلا وأميرا جليلا وخطيبا مصقعا ، فاستعمل على الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى .

كان عبد الرحمن هذا من أصحاب الهمم العالية فتقدم للغزو فى بلاد (الغالة) وانتصر فى غزوات كثيرة رجع منها منصورا غانما ، وتقدم حتى وصل إلى مدينة (بُرْدال) أو(بُردان) بفرنسا ودخل كثير من تلك البلاد فى الإسلام ، وعزم على فتح بقية بلاد (الغالة) فقطع جبال (البرانات) وفتح الحصون والمدن ، وامتدت عساكر الإسلام فى بلاد (أكيتانية) و (بورغونية) .

دهم (الغاليين) ما دهمهم من الجيوش الجرارة واشتد بهم ما حل بالبلاد من الخراب والدمار فانتخبوا فارسا منهم يقال له (كرلوس) من حاشية الملك كان مقداما ذا دهاء وفطنة محبوبا عند أصحابه وهو المسمى عند الفرنجة (شارل مارتيل) . جمع الأهالى وأمرهم ألا يعترضوا العرب ولا يعارضوهم ولا يخاطروا بأنفسهم ، وخطب فيهم خطبة لو وجدت لها من العرب والمسلمين فى ذلك الوقت أذنا مصغية لكانت ثمنا لكل ما خسرته الأمة الإسلامية للآن .

خطب فى قومه بما معناه : الرأى عندى ألا تعترضوا العرب فإنهم كالسيل المنحدر يجرف ما يصادره ، وإنهم فى إقبال أمرهم عقدوا نيتهم وجمعوا أمرهم فأصبح الرجل منهم يغنى عن كثرة العدد ، واتحدت قلوبهم فصارت أشد من حصانة الدروع . فأمهلوهم حتى تمتلئ الأيدى من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا فى الرياسة ويستعين بعضهم على بعض فإذا كان ذلك فإنكم تتمكنون منهم بأيسر ما يكون .

كأنما كان منطقه موكلا ببلاء الفتنة التى طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمضرية واليمانية واستعان على بعضهم ببعض بل على بعضهم بمن يجاورهم من الأعداء .

نظر هذا الرجل الحكيم فرأى أن الخصال التى ترمى الأمة بالكوارث (كالترف والإسراف والتبذير والانغماس فى النعيم الذى أباد الأمم والحضارة التى تؤدى إلى فقد العادات الشريفة وتعين على الاضطراب وتفريق القوى الجامعة وقطع الصلة وتجديد الخصومات والحسد) ـ جاثمة بين جيوش العرب وجموع المسلمين فقال : اصبرو حتى تتم ويتم له بالحيلة ما لم يتم بالحرب والقوة .

فلما لم يحترز المسلمون من تدرج خصال السوء بينهم وساروا بحسب أهوائهم ولم

يقتدروا على تقويم المعوج وإصلاح الخلل ومداواة العلل والظهور بمظهر الترقي الذى أتوا فيه بالعجب العجاب وثبت له أنهم فارقوا أدب الدين ــ فاجأهم هذا القائد بغتة وحاربهم : بتفرقهم ، باختلاف كلمتهم ، بسوء رأيهم ، بإضاعة حزمهم وحرمة دينهم .

جمع شارل مع ما انضم إليهم من جنود جرمانيا التى باتت مهددة بما وقع لجارتها (فرنسا) وتقابل بجيشه مع العرب بين مدينتى (طورو بواتييه) بغتة فتلاقى الجيشان بل اشتبك الشرق والغرب وتجاربا سبعة أيام انجلت فيها الحال عن هزيمة العرب ، وقتل عبد الرحمن ، وانتشر خبر هذا الانتصار فى كل أوربة ، فتهللت الوجوه واطمأنت القلوب وقطع هذا الانكسار على العرب فتح فرنسا الذى كانت تفكر فيه زمنا طويلا .

فعلت أوربة مع هذا القائد خلافا لما كان ينبغى أن يعمل مع أمثاله ؛ فإن انتصاراته كما قال صاحب (ألف ليلة) مما يكتب بالإبر على آماق [1] البصر ولكن حالة جهلها فى ذلك الوقت وبلوغها فى الظلم والجهل مبلغا لا يقدّر قدّر عليها أن كارلوس هذا صاحب الدهاء والسياسة لم ينل شكرا على عمله ، بل حكموا عليه بالهلاك ، وأهانوا أولاده من بعده ؛ لأنه استخدم فى هذه الحرب أموال الأساقفة والكهنة ؛ فتأمّل .

(عود) ومن فضائل هشام أنه كان لا يدخل بيت ماله مالا حتى يشهد أربعون أنه قد أخذ من حقه وأعطى منه كل ذى حق .

وبنى فى عهده جامع الزيتونة بتونس وهى دار العلم بها للآن (أدامها اللّه كذلك) وهو الذى أقام بها (دار صناعة) لإنشاء المراكب الحربية ، وتم ذلك وغزت المراكب جزيرة صقلية وضرب على أهلها الجزية .

ذهبت جنوده غازية إلى الجنوب حتى جاوزوا السوس الأقصى ودخلوا بلاد السودان ورجعوا منها بالغنائم الوافرة . وهو الذى بنى الرصافة وابتنى فيها قصرا وزاد فى عمرانها وحضارتها .

ظهرت فى عهده بدعة الخارجية فى البربر وتلقنها رءوسهم عن عرب العراق الساقطين إلى الغرب . نزعوا بها إلى الأطراف داعين أغمار الأمم إليها عسى أن تكون لهم دولة فاستحكمت صبغتها فى طغام البربر وشجت [2] فيهم عروقها فكان ذلك من أقوى البواعث والأسباب فى خرق حجاب الهيبة على الخلفاء وانتقاض البربر على العرب

---

(١) آماق : أعين .   (٢) وشجت : قويت .

ومزاحمته لهم فى سلطانهم . ولما بلغ الخبر بذلك إلى الخليفة هشام عزل عبيد اللّه عن المغرب وكتب إليه بالقدوم ، وعين كلثوم بن عياض ووجه معه جيشا كثيفا لقتال الخوارج يبلغ ٨٠ ألفا من المقاتلين ، وبعد قتال شديد من البربر هزم جيش الخليفة وتفرق أيدى سبا فقامت القيامة ووجه حنظلة بن صفوان الكلبى واليا على المغرب والتقى مع العصاة بظاهر القيروان بمكان يدعى الأصنام فهزمهم بعد قتال أبلى فيه بلاء حسنا ، وكتب إلى الخليفة بذلك ففرح فرحا شديدا ، ثم ولى حنظلة حسام بن ضرار الكلبى من قبله واليا على الأندلس ، فاستقام له بها الأمر حينا من الدهر ولم يزل حنظلة على المغرب فى أحين حال إلى أن تطرق الخلل إلى الخلافة بالمشرق وخفت صوتها لما حدث فى بنى أمية من فتنة الوليد وما كان من أمر الشيعة مع مروان آخر خلفائهم واللّه أعلم .

يرى القارئ أن بلية الأمة الإسلامية فى هذا العهد من أبناء جنسها وملته أشد من بليتها من أعدائها ؛ فمؤن الجيوش المقاتلة التى جهزها هشام لقتال رعاياه الخارجة عليه أكثر مما جهزه لفتح المناوئة له . ولا شك أن الاستظهار على الخليفة ومقاتلة جموعه وجيوشه لا يكون إلا من فساد القلوب والنيات ومفارقة أدب الدين من أمثال هذه العصائب الخارجة .

قلنا ولا نزال نقول : إن الصبغة الدينية تذهب بالتحاسد والتنافس وتفرد الوجهة إلى الحق والاستبصار بالأمور والتساوى فى الطلب والاستماتة على العهد . تفنى فى جانبها الأغراض المتباينة ويمحق الباطل ويخذل ، وذلك من شدة تقوى القلوب وسلامة الصدور وصفائها . ولذلك لم يقف للعرب فى أول أمرهم أحد ولم يغلبوا على ما بأيديهم ، لأن الاجتماع الدينى ضاعف قوة عصبيتهم .

لا تجد ضعفا فى دولة الإسلام إلا وسببه فساد العقيدة . يدخل هذا الفساد [١] بين العصابة [٢] وكان سعيها واحدا فى الذب عن الحوزة بأقصى مرامى العز والصولة ، فما تلبث إلا وقد ذهب ريحها ورئمت [٣] المذلة والاستعباد ، ثم يتمادى هذا الطغيان حتى تكثر ألوان الشر والسفسفة [٤] وتذهب خلال البر والخير .

إن الذى يريد الملة الإسلامية خيرا لا يدعوها لشئ من العمل قبل رجوعها إلى أدب الدين فإنه علاج لهذه الأمراض المزمنة ، وهو الذى يرد الشئ إلى جنسه وصنفه ويخلع عليه مقدار عظمته وقوته فمن لم يؤدبه الشرع لا أدبه اللّه .

(١) المهاب : الدفاع .
(٢) العصابة : جماعة خير أو شر .
(٣) رئمت : ألفت .
(٤) السفسفة : الشئ التافه .

الأمير موسى بن نصير
ومولاه الفاتح طارق بن زياد

الأمير موسى بن نصير هو مولى عبد العزيز عم الوليد بن عبد الملك . كان والده نصيراً على جيوش معاوية رضى الله عنه ويقال إنه بكرى من بكر بن وائل . ويقال إنه لخمى .

كانت ولادته فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ويقال إنه تجهز مع أم البنين حين ابتنى بها الوليد ، فأنمت مكانه عنده إلى أن بلغ ما بلغ برأيه وإقدام مولاه طارق ابن زياد .

كان موسى بن نصير رجلا عاقلا كريما شجاعا تقيا تولى إفريقية وغزا الغزوات العدة فلم ينهزم له جيش قط ، وكان كثير المغنم حتى قالوا : لم يسمع فى الإسلام بمثل سباياه قط ، وكان طارق مولاه هماما مدبرا مقداما يحمل على مناوئه برويته وتدبيره فيفل من عزمه ويبيد من قوته .

هما اللذان امتدت بعنايتهما سطوة الإسلام فى إفريقية وشهرته فى المغرب . وفيما فتح الله من بلاد الأندلس ما يكفي للدلالة على فضلهما .

إن الأمير موسى بن نصير ما ولى إفريقية فى سنة سبعة وثمانين حتى أخذ فى رتق الفتق [1] ولم الشعث ، وأصبح ما خلف مصر إلى البحر المحيط بين جليل فتح جميل . وماذا الذى يظن القائل بهذه الفرية أن يبلغه (جوليان) بالعرب من الخير أو الشر ؟ هب أنه بين لهم مداخل عدوهم وأرشدهم إلى مكامنه وأظهر لهم عورات جيشه فماذا يفيدهم والعرب عشرة آلاف نفس تقابل مائة ألف أو يزيدون وهم فى بلادهم يصدون عدوهم عنهم ؟

إن الذى بلغ بأمة العرب ما بلغ هو اليأس الذى يدفع الإنسان إلى كل عمل كما فى هذه الحادثة . أو شدة الاستمساك بالدين والتحقق مما ادخرة الله للمجاهدين كما وقع فى

(١) رتق الفتق : سد الثقب .

حرب فارس وملوك الهند وملوك الهند وخاقانات الترك وغيرهم من القياصرة والأكاسرة الذين هم أشد منها بأسا وأكثر عددا .

إن اليأس من أشد العوامل فى النفس حتى قال حكيم من حكماء اليونان : إذا كان عدو فلا تيئسه لأنه يفعل بك ما يشاء .

رأى طارق بن زياد جيوش (رودريك) وانتظامهم وحسن ملابسهم وكمال عدتهم ووفرة عددهم وجودة سلاحهم وما على رءوسهم من الخوذ وعلى أجسامهم من لامات الحديد السابغة فهاله الأمر وخاف على جيشه القليل ، فأراد أن ييئسه ويقطع عن قومه كل أمل فى العودة فأمر بالسفن فحرقت ثم قام بينهم خطيبا .

فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر .

واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام . وقد استقبلكم أهل البلاد بجيشهم وأسلحتهم وأقواتهم موفورة . وأنتم لا وزر [1] لكم إلا سيوفكم ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيديهم . وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا فشلتم وذهب ريحكم واستعاضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة بمناجزة هذا الطاغية ؛ فقد ألقت مدينته الحصينة . وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس ولم أبدأ فيها بنفس . واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه بأوفر من حظى . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا [2] ؛ ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة [3] الأبطال ؛ ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم والله تعالى ولىٌّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً فى الدارين .

واعلموا أنى أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على (لزريق) كبير القوم فقاتله إن شاء الله فاحملوا معى ، فإن هلكت بعده فقد كفيتم

---

(١) وزر : معين .   (٢) أختان : أقرباء الزوجة .   (٣) مجالدة : مقاتلة .

أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تكلون أموركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا القوم بقتله فإنهم بعده يخذلون .

ثم حمل وفتحت البلاد وكان فتحها من أعظم الفتوح الذاهبة بالصيت فى ظهور الملة الحنيفية وإعلاء الكلمة الإسلامية .

التقى مع جيوش (الغوط) ودارت رحى الحرب ساعة انقضّت فيها أبطال العرب وكانوا ثلثمائة مع صناديد البربر وكانوا عشرة آلاف ، فبددوا شمل جيش (الغوط) وترك (رودريك) مركبته وكانت من العاج الناصع ولم يُعْلم أين ذهب .

وجد طارق أن هذا النصر المبين فرق عسكر (رودريك) وأهلكه وبدده وأصبح الشعب فى وجل عظيم فبعث رجاله وافتتح (قرطبة) بعد حصارها ثلاثة أشهر (وطليطلة) بعد حصارها والتضييق عليها ، وعقد مع أهلها صلحا أباح فيه حرية الخروج لمن أراد من السكان وترك لأهل الكتاب كنائسهم وبيعهم [١] ومتعهم بحرية دينهم وشرائعهم وأبقى لهم قضاتهم . ثم تقدم نحو الشمال وفتح ما مر به من المدن بجهات (قَسطِيلِيَة) وما زال سائراً حتى وصل فى مسيره إلى جبال (أسطوريا) أى بعد مسافة سبعمائة ميل من الجبل المدعو باسمه ووقف عند مدينة (جيجون) قرب خليج باسكاليا ورجع من هناك إلى طوليد ليلتقى بالأمير موسى بن نصير .

جاء الأمير موسى وألقى العصا وسار بعسكره الضخم يكمل ما ابتدأه طارق ويوفق للناس ما عاهدوه عليه حتى صفى القطر وطمأن نفوس من أقام على سلمه ووطأ لأقدام المسلمين فى الحلول به .

أخذ الأمير موسى بناء على إشارة (جوليان) فى محاربة بعض الغوط الذين لم يخضعهم طارق فتقدم طارق وتبعه الأمير بعسكره وسار إلى (غديانة) وحصرها وأعجب بأعمال الرومان فيها كالجسر ومصانع المياه وأبنية الملاعب التى فى (لستيانه) ثم فتحت (سَرَقُسْطَة) واتصل الرعب بأهالى البلاد ، وأدى ما دهمتهم به جيوش المسلمين إلى أن هذين الفاتحين صارا لا يمران بموضع إلا فتحت لهما أبوابه حتى انتهوا إلى وادى (ردونه) ودوخ جيش طارق وسراياه البلاد التى لم تخضع لسلطانه .

كان الأمير موسى بن نصير مع تقدمه فى السن وما علاه من وخط [٢] الشيب مقداما

(١) بيعهم : معابد الأنصار .

(٢) وخط الشيب : اختلاط .

يعشق المجد ويصبو لافتتاح البلاد ، حازما عاقلا جليلا ذا سياسة . كان فى بيته أن يتقدم فيفتح بلاد فرنسة (المعروفة ببلاد الغالة) وإيطاليا المعروفة ببلاد (اللنباردو) ثم يمر بجانب (جرمانيا) إلى (هونكاريا) إلى الآستانة إلى آسيا الصغرى ويصل لمقر الخلافة .

لم يكن يبنى هذه الصروح على الهواء ؛ لأن سطوته فى هذا الوقت كانت امتدت إلى أعماق القلوب ، وعدوى الخوف والفزع من جيوش رسول العرب عمت جميع أولئك السكان وسرت من بلد إلى بلد ، ولكن أتاه رسول الوليد يأمره بالحضور وكان قد فتح جميع البلاد ، ولم يبق فى الأندلس بلد لم يدخله العرب إلا (جِلِّيقيَّة) .

أطاع هذا الفاتح أمر خليفته وترك ما بيده ولبى أمره بعد ما ملك بلدا مثل بلاد الأندلس ، وألقى بينه وبين مقر الخلافة البحر الزخار وأصبح فى ملك لا تناله الأقدام والحوافز إلا بشق الأنفس .

ترك بلادا هو مفترعها ورجالا هو مستملكهم لا يعرفون غير خيره ولا يخافون غير شره ، وفى يده من الذخائر والأعلاق [1] والأموال والمعاقل والرجال ما لو أظهر الامتناع به لنال المرام . فتأمل لمثل هذا الإخلاص ، وتحدث بمثل هذه الطاعة .

سار الأمير موسى إلى مقر الخلافة وولى ابنه عبد العزيز على بلاد الأندلس وهو أول من اتخذ له سرير فيها وكان بأشبيلية . لأن طارقا والأمير موسى لم يتخذ سريرا للسلطنة فيهـا .

عقد عبد العزيز لأربع خلت من شهر رجب من السنة الرابعة والتسعين من الهجرة بمحضر أربعة شهود من المسلمين عهدة صلح مع الأمير (طودميرس) على المدن السبع التى كانت له بأن يعطى (لطودميرس) الأمان ولا يعارضه فى عمله ولا يعتدى عليه فى ماله ونفسه وعرضه وأولاده وكنائسه على أن يسلم له المدن السبع ، وألا يقبل ولا يساعد أعداء الخليفة ، ولا يكتم من نيتهم شيئا ، وأن يدفع فى كل سنة عنه وعن كل رجل من (الغوط) دينارا واحدا وأربع كيلات حنطة ومثلها شعيرا وقدرا من الزيت والعسل وأتباعهم نصف ذلك .

ثم أخذت البلاد فى النمو ، وسمح الأمير موسى وطارق لإخوتهما العرب فى إفريقيه ومصر بالانتقال فانتقلوا إلى (لشبونة) و (موركة) وفى أقل من قرن واحد بلغت واردات

---

(١) الأعلاق : النفائس .

البلاد من الزراعة والتجارة والصناعة ما لا لبدا (١) فضلا عن الجبايات وأموال الفتوح .

قدَّر أهل العرفان أن ما كان يجبى من الأندلس فى ذلك الوقت يعدل مداخيل أوربة ، وهذا النمو إنما هو من نتائج الحرية وعدم التعرض لأحد فى ماله وعرضه ونفسه ، وقد أيقظ اجتهاد العرب بعد فتح تلك البلاد كثيرين إلى العلوم والصناعات وظهر فضل أولى النباهة والذكاء وأحب أهل أسبانيا العرب فآخوهم وارتفع الخلاف من بينهم حتى كانوا يختتنون مثل العرب ويمتنعون عن المحرمات المحرمة عندهم فدعاهم من شذ عنهم من المجوس (مازارابى) أى أنصاف عرب .

رزق الله بنى أمية بالفاتحين من الخلفاء وبالخيرة من القواد ؛ ففى تلك الأزمان امتد حكمهم مسافة مائتى يوم من المشرق إلى المغرب ، وكانت آى القرآن تقرأ فى سمرقند كما تتلى فى قرطبة ، ويتلاقى الهندى مع السودانى فى مكة للحج وكلاهما يدين لبنى أمية . وظهرت على كل الممالك قدرة وغنى . وكانت كلمة الدولة نافذة فى ثلاثة أقسام من الأرض . آسيا وإفريقية وأوروبة . ملكوا من برارى جبل الطور إلى قفار ما وراء النهر ومن وادى كشمير إلى منحدر جبل (طوروس) على البحر الأبيض وأطراف الأناضول وسائر مملكة الأكاسرة وما عجزت عنه الأكاسرة . ومن الجزر قبرص وإقريطش ورودس وجزائر بليارة وشمال إفريقية والبلاد الممتدة من بوغاز جبل طارق إلى برزخ السويس . وقسموا سواحل البحر الأبيض إلى حكومتين : إحداهما بالمغرب تشتمل على الأقاليم القديمة اليونانية ، والأخرى بالمشرق وهى عمالة مصر وبرقة البحرية . وأخذت الجزية التى قررها سيدنا عمرو بن العاص من بلاد النوبة . كما أخذت من الهند والصين كما قدرها مسلم بن قتيبة الباهلى . وكل ذلك على قواعد العدل وقسطاس (٢) الحق حتى صارت دمشق فى نظر المسلمين كأنما هى (رومة) فى نظر المسيحيين .

كانت دمشق ثانى مقر للخلافة الإسلامية بعد المدينة المنورة . وكما كانت تتيه على البلدان بمياهها وأشجارها ورياحينها كذلك كانت تعتز بمقام الخلافة فيها .

فيها بقية آثار الملوك الكنعانيين والروم من العز والعمارة فكانت زينة الدنيا . وأهلها أحسن الناس خلقا وخلقا جمعت بين العمال والمجان والزهاد وفيها لكل شىء من ذلك سبب .

---

(١) لبدا : كثيراً . (٢) قسطاس : ميزان

وجامع الوليد المعروف بالجامع الأموى قائم فيها وهو أفخر مأثرة لملوك بنى أمية . وبها غير ذلك من لطائف البلاد الطبيعة ومحاسنها الوهبية التى لا يحصيها لسان ولا يصفها بيان .

هذا وقد كدنا نخرج بهذه الأوصاف وغيرها عن معنى الترجمة التى قصدناها ، وإنما أردنا أن نبين للقارئ كيف كان مقام الخلافة فى الشام إلى عهد هشام ؟

نبذة تاريخية

قد أتينا فيما سبق على ذكر شئ يسير من سيرة بعض ساداتنا خلفاء بنى أمية وبنى مروان بعض قوادها ورأينا الآن أن ننتقل لسيرة بعض ساداتنا خلفاء بنى العباس وقوادهم أيضا وما ذلك عن قلة ولا سآمة وإنما رغبة فى الانتقال بالقارئ من عهد إلى عهد ومن مقصد إلى مقصد لتحصل البركة من كل جانب ونلم بأعمال حماة الإسلام فى كل صقع وناحية ليكون هذا العمل من جهة الدلالة على الخير الذى فعلوه فذلكة لهم .

إن الدولة الأموية أجل قدرًا من أن تنحصر أخبار خلفائها وساستها فى هذا العدد اليسير أو يسع أخبارها مثل هذه السوانح . فما هذا وأمثاله إلا غيض من فيض .

وقد حدثتنا النفس أن نجعل بين تراجم ساداتنا خلفاء بنى أمية وساداتنا خلفاء بنى العباس نبذة تاريخية (وهى هذه) نبين فيها انتقال الدولة ثم نلحقها بترجمة أبى مسلم الخراسانى صاحب الدعوة لبنى العباس فإن كنا أصبنا فيما فعلنا فللّه الحمد وإن كنا أخطأنا فبيت الخطأ ومعدته .

قال اللّه سبحانه وتعالى ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾ [1] وقال الحكيم وقد عزى بعض من خرجب عنه مملكته : « لو بقيت لغيرك لما وصلت اليك » .

دالت الدولة للعباسيين فإذا هى من كبار الدول وأعظمها فى الدهاء والتحيل . ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك فأطاعها الصلحاء تديناً والباقون رغبة أو رهبة واستمرت الخلافة والملك نحواً من ستة قرون استقبلت فيها عظائم الأمور وطرَّت عليها دول كدولة بنى بويه وفحلها عضد الدولة فناخسرو ودولة بنى سلجوق وكبشها طغرليك ودولة خوارزم شاه وفيها مثل علاء الدين الذى اشتملت جريدة عسكره على أربعمائة ألف مقاتل . ودولة الفاطميين بمصر وعسكرهم لم ير أكثف منه . فضلا عن الخوارج والجموع الذين لم تبلغ استطاعتهم مناصبة عزة الملك ومعاندته وجدع [2] أنفهم الشامخ عن متابعة الاستكبار بأقل الاذى وأقل السخط .

---

(١) آل عمران : ١٤٠ .

(٢) جدع : قطع .

كل هذا لم يقو على إزالة ملكهم ولا محو أثرهم بل كان الملك من هؤلاء يجمع ويحشر ويقبل بالعسكر الجرار والخميس [1] العظيم حتى يصل بغداد فإذا وصل التمس الحضور فإن أذن له قبل الأرض بين يدى الخليفة وقصارى متمناه أن يوليه عملا أو يعقد له لواء أو يخلع عليه خلعة .

كانت لهم فى نفوس الناس منزلة لا تدانيها منزلة أبداً حتى إن السلطان « هولاكو » لما فتح بغداد وأراد قتل الخليفة أبى أحمد المستعصم ألقوا فى سمعه أنه متى قتل الخليفة اختل النظام فى العالم فاحتجبت الشمس وامتنع القطر .

أتت لها هذه العظمة وأصبح لها ذلك الاعتبار فى النفوس بما روى عن رسول الله ﷺ من أنه كان يجرى على لفظه الشريف ما معناه (البشارة بدولة هاشمية) وزعم قوم أنه قال لعمه العباس رضى الله عنه (إنها تكون فى ولدك) .

كانت النفوس متطلعة لهذه الدولة ينتظرونها صباح مساء يظنون فيها الخير أكثر مما كانوا فيه . فكان فيهم عطف عليها وحنان لها .

دولة كثيرة المحاسن جمة المكارم قامت فيها أسواق العلوم ونفقت [2] فيها بضائع الأدب وعظمت فيها شعائر الدين ودرت عليها الدنيا بخيرها وروعيت فيها الحرمات وحصنت الثغور . كانت الدولة مستمسكة بالدين كما كان على عهد الخلفاء يحاسبون أنفسهم وينكر بعضهم على بعض إذا أخل بالعدل والمساواة ويحكمون بالشريعة ويتأدبون بآدابها .

بلغت حضارة الإسلام فى دار السلام [3] مبلغاً ينذر مثله فأين التفت وجدت جمالا وأنى نظرت رأيت مهابة وجلالا . أبهة ملوك ودعة زهاد ورخاء بال وارتقاء حال وانغماسا فى طيبات العيش والتصرف الواسع فى التجارة وجمع ظرائف الدنيا وتحرى العدل فى كل ذلك بأحكامه وأخذ الرعية بالحلم الواسع والسياسة بالكياسة [4] .

اجتمعت العلماء والأدباء والأمراء والندماء [5] بأبواب الخلفاء وعلى الأخص الرشيد الذى ألبس الدنيا جمالا وخلع عليها جلالا بملكه الذى لم يسمع عن أحد من الملوك .

تسامت فيها الدور والقصور بالبهاء والرفعة وبنيت فيها المنازل الرحبة المزخرفة

---

(١) الخميس : الجيش . (٢) نفقت : راج . (٣) دار السلام : بغداد .
(٤) الكياسة : الفطنة . (٥) الندماء : صفة الأصحاب .

والأسواق والمرافق والمكاتب واتصل تعداد النفوس ببغداد لمقدار لم يكن نصفه فى مدينة من العالم .

قصدتهم الناس وطمعت فى انفجار مكارمهم الخلق حتى صار يضرب بهم المثل فى سعة العطاء وكان مع ذلك بيت المال فى عمران تشتمل خزائنه على العين (١) والوَرِق (٢) والامتعة والكساوى والغلات وغير ذلك . والامة بالغة مبلغها فى العلم والادب والصناعة .

انتهى العز والرفاه (٣) بأهل الأمر والجاه إلى أقصى غايته حتى اتخذت الإبر للجوارى من الذهب وصاغوا المسامير التى تدق فى مجالسهم لتعليق المناديل من الذهب وكسيت حيطان منازلهم بالوشى وتأنقوا (٤) فى جميع أدوات الزينة والمباهاة بها كالخيل والسلاح والأوانى والجواهر والغلمان والقيان (٥) وجميع طيبات الزمان حتى ضرب المثل بهم فى الآفاق وجلبوا إلى بساتينهم طيبات الزهور من الهند والرياحين من الصين واتخذوا مقاعدهم على حالات غربية فتراها فى الشتاء كنا كمينا (٦) وفى الحر ما بين الماء المتدفق غزارة من السقوف والحيطان والنابع من الأرض والمتفجر من جوانب المكان وكل ذلك فى أفواه صور كصور السباع والثعابين وما شابه ذلك وقد علقت المراوح فى سقوف المكان ووضعت الحبال التى تجر بها من الخارج فإذا حركت هب النسيم فترطبت الأجسام ولذ المنام .

لما أراد اللّه قيام هذه الدولة نما الشر وخلقت أسبابه وكثر الهرج والمرج وفتح بابه وثارت الفتن واضطرب الحبل واختلفت الكلمة فظهر أبو مسلم بدعوة بنى العباس واجتمع عليه كل من له فى ذلك رأى من أهل خراسان .

انظر للبلاد وما كانت عليه . كان أهل الحجاز قليلين وأهل البصرة والكوفة وتلك الخوالى (٧) منحرفين عن الوحدة فى نظر الناس لخذلانهم وغدرهم فى سوابق ما جرى منهم ولم يبق إلا مصر والشام مع دولة بنى أمية .

ظهر أبو مسلم الخراسانى ومعه أصحابه أصحاب الرايات السود وحارب عسكر مروان تحت قيادة نصر بن سيار وهزمه .

---

(١) العين : الذهب .
(٢) الوَرِق : الفضة .
(٣) الرفاه : سعة العيش .
(٤) تأنقوا : تفننوا .
(٥) القيان : الجوارى الحسان .
(٦) كنا كمينا : بيتًا متواريًا .
(٧) الخوالى : النواحى .

يعجب الإنسان لهذه القلوب كيف سخرها اللّه لتنفيذ قضائه العادل وإبراز مكنون حكمته فى خلقه . يقوم أبو مسلم بهذه الجيوش يبذلون المهج وينفقون الأموال ويجبون [1] الخراج وينادون باسم الإمام ابن محمد بن على بن عبد اللّه بن العباس وهو فى المسجد لا يفارقه وأهل خراسان لا يفرقون بين اسمه وشخصه وهو لا يدخل أيضاً فى شئ من هذا فلا ينفق عليهم ولا يعطى أحدهم سلاحا وهم يحملون إليه الخراج .

ثم قدر اللّه أن يقتل هذا الامام الذى قامت باسمه هذه الدعو كأنما فرغ من عمله وكأنما هو لا يصح أن يكون الا مقدمة لغيره .

خاف أخواه السفاح والمنصور وجماعة من أقاربهم فهربوا وقصدوا الكوفة ونزلوا داراً أخلاها لهم أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال من كبار الشيعة فدخلوها مع أتباعهم وكتموا سرهم واجتمعت الشيعة بهم وقويت شوكتهم .

قصد أبو مسلم دار الخلال وفيها السفاح والمنصور فقال أيكم ابن الحارثية ؟ قال المنصور هذا وأشار إلى السفاح وكانت أمه حارثية فسلم عليه بالخلافة ثم خرج السفاح ومعه إخوته وعمومته وأقاربه وأكابر الشيعة وأبو مسلم بين يديه إلى الجامع فصلى وصعد المنبر وأظهر الدعوة وخطب الناس وبويع له بالخلافة سنة ١٣٢هـ .

ثم سلب اللّه ماكان لمروان آخر خلفاء بنى أمية من الصولة [2] والقدرة حتى عصته العسكر ونابذته قواده وكان جيشه فوق المائة ألف فلم يغن عنه شيئًا وتولى أمره الخذلان حتى انهزم وهرب وقتل فى قرية أبى صير من قرى الغربية على الشاطئ الغربى للنيل الشرقى وهو آخر الخلفاء فى هذه الدولة .

ولابد لنا قبل ختم هذه السطور من ذكر شئ حفظه التاريخ لهذه الخلافة . وهو أن بنى أمية وإن كانوا أعطوا الملك حقه من الفتوح والتغلب والعدل فى القضاء وحفظ الأمن والراحة (وأنى لنا بمثل تلك الأيام) فإن الفوضى العلمية التى ظهرت فى أواخر دولتهم والاحاديث التى وضعت مختلقة على الرسول ﷺ فرقت الأمة إلى مذاهب مختلفة كالخوارج والمعتزلة والجبرية وأخرجت الخلافة عن رتبتها العلمية الدينية وأبعدتها عن حدها وعهدها وقام الملك على العصبية فانحرفت عن العدالة العامة والعلم الدينى وهما أقوى أركان الخلافة وانتشر التفرق فى البلاد الإسلامية ولم يجمع القادة أمر الناس على عقيدة

---

(١) يجبون : يجمعون .　　(٢) الصولة : السلطان .

واحدة بل تركوهم مع هذا السيل الجارف .

لذلك تقوضت [1] دعائم هذه الدولة وانقسمت إلى خلافتين : خلافة عباسية فى دار السلام وخلافة أموية فى الأندلس قام بالأولى الإمام السفاح ، وبالثانية الإمام عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام الاموى الذى فر من السفاح ولجأ إلى قبيلة زناته أعظم أفريقيا ونحن ذاكرون شيئا من تاريخ خلفائها الذين هم خير خلفاء وناقلون سيرتهم الحسنة بعد الفراغ من تراجم من يعين عليه الله سبحانه وتعالى من الخلفاء العباسيين . والله أعلم .

(١) تقضت : نقض .

ترجمة أبى موسى الخراسانى

هو عبد الرحمن بن سالم وتسميه جماعة المؤرخين بصاحب دولة . أو صاحب دعوة بنى العباس . أو صاحب الدولة العباسية أو بأمير آل بيت رسول الله ﷺ .

اختلفوا فى نسبه فمن قائل إنه عربى . ومن قائل إنه عجمى . ومن قائل إنه كردى . وقد قال هو عن نفسه « كفاك خبرى عن نسبى »

ترعرع أديبًا . ونشز لبيباً . وكان يشار إليه فى صغره لفرط ذكائه ووفور عقله .

ولد فى سنة مائة بأصبهان وكان أبوه قد أوصى به إلى عيسى بن موسى السراج فحمله إلى الكوفة وهو ابن سبع سنين ثم جمع بينه وبين إبراهيم الإمام فأقام معه حتى بلغ أشده ثم قال له غير اسمك وكنيتك (وكان يسمى أبا إسحاق) فتسمى (بعبد الرحمن وتكنى بأبى مسلم) . زعموا أن الإمام وجد لذلك شيئاً فى الجفر [1] وتحقق أن الأمر لا يتم على يده إلا بعد تغيير اسمه لعلامات رآها هو بها أعلم وأخبر .

ولعله إذ قدم على الإمام شاهد فيه عقلا وذكاء ودهاء فأعجب به فعقله عنده حتى كان ما كان من قيامه بالدعوة له فى خراسان .

يشترك أبو مسلم مع جماعة من الذين طالت أعمالهم وقصرت أعمارهم فإنه ولد سنة مائة والخليفة يومئذ سيدنا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وكانت ولا يته سبع سنين وعشرة أشهر دوخ فيها الأرض . وكان له يوم قتله المنصور ثلاث وثلاثون سنة فهو كالإسكندر الرومى صاحب الفتوحات أو كابن المقفع حكيم الفرس والعرب . أو سيبويه شيخ العربية . أو أبى تمام أبى الشعراء . أو ابراهيم النظام أمير علم الكلام وغيرهم ممن لا يقطع العقل بجواز أن تكون أعمارهم القصيرة ظروفاً لأعمالهم الخطيرة التى دونت عنهم .

---

(١) الجفر : كتاب عند الشيعة . تزعم فيه أنه علم الغيب .

كان أبو مسلم جميلا قصيراً أسمر (١) حلوا نقى البشرة أحور العين عريض الجبهة حسن اللحية وافرها طويل الشعر طويل الظهر قصير الساق خافض الصوت فصيحاً بالعربية والفارسية حلو المنطق راوية للشعر عالما بالأمور لم يُر ضاحكا ولا مازحًا إلا فى وقته ولزومه ولا يكاد يغضب فى شئ من أحواله . تأتيه الفتوحات العظام فلا يظهر عليه أثر السرور وتنزل به الحوادث الجسام فلم ير مكتئباً وإذا غضب لم يستفزه الغضب كثير الغيرة شديد البطش شجاعاً فاتكا ذا عقل ورأى وحزم وتدبير . كل هذه الخصال الجميلة والنعوت الشريفة هيأت هذا المقدام الهمام لأن تتعلق به دعوة بنى العباس ويكون به إقامة دولتهم وإبادة دولة بنى أمية .

سئل أبو مسلم فقيل له بم نلت ما أنت فيه من القهر للأعداء فقال : « ارتديت الصبر وآثرت الكتمان وحالفت الأحزان والأشجان وسامحت المقادير والاحكام حتى بلغت همتى وأدركت نهاية بغيتى » .

ومما يدل على علو همته أنه ورد حال الدعوى « نيسابور » ليلا على حمار وليس معه ادمى فقصد دار (الدهقان) (٢) فدق عليه الباب ففزع أصحابه وخرجوا إليه فقال لهم قولوا للدهقان أن أبا مسلم بالباب يطلب ألف درهم ودابة فقالوا للدهقان فسألهم فى أى زى وأى عدة هو ؟ فقالوا وحده فى أدون زى فسكت ساعة ثم أمر له بما طلب . فلما ملك وفتحت نيسابور قيل له خذ ما تريد من مال (الدهقان) المجوسى فقال (إنه له عند أبى مسلم يدا) ثم أتته هداياه فردها ولم يتعرض بشئ له ولا لأتباعه .

ومن نوادره أنه كان يشتغل عند خراز بالكوفة فبينما يخرز شيئاً رأى الناس يتعادون فقال ما الذى بهم قالوا فيل دخل الكوفة فقال وأنى فى دخل فيل الكوفة من العجب ؟ العجب فىَّ أقلب دولة وأقيم أخرى .

بدأت الدعوة العباسية سنة اثنتين ومائة على ما استقصيناه وكان أول ظهورها بخراسان (بلدة أبى مسلم) وكأنما قارنها فى المولد ليشبا معاً وينشآ سويه .

اختلفوا فى أول من قدم خراسان . فمن قائل أن ميسرة وجه رسله بالدعوة من العراق إليها . ثم وشى بهم عمرو بن بجير بن ورقاء السعدى . إلى سعيد حذينة عاملها . فقال إن هاهنا قوماً ظهر منهم كلام فى الخلافة وأعلن بهم فسألوهم فقالوا نحن من التجار وإن لنا

(١) أسمر : أسود . (٢) الدهقان : زعيم المجوس .

فى أنفسنا وتجارتنا شغلا عن هذا وجاء أناس فكفلوهم فخلى سبيلهم .

ومن قائل أن أول من دخل خراسان الدعاة الذين وجههم (بكير بن ماهان) وفيهم أبو عكرمة . وأبو محمد الصادق وغيرهم سنة سبعة ومائة . ومن قائل أنهم دعاة (محمد ابن على بن عبد الله بن عباس) . وفيهم زياد أبو محمد مولى همدان . وقد اتفق أصحاب الروايتين أن ذلك وقع فى هذه السنة وفى ولاية أسد على خراسان .

أساء هؤلاء الدعاة سيرة بنى أمية وأطعموا الطعام على حب بنى العباس وصارت المناظرة فى تفضيل آل على وآل عباس حتى بلغ أمرهم أسداً فأحضر زياداً وقال له ما الذى بلغنى عنك قال الباطل . إنما قدمت إلى تجارة وفرقت مالى على الناس . فإذا اجتمع خرجت . فأمره بالخروج فلم يخرج . وعاد إلى أمره فخاف منه أسد . وأحضره وقتله بالسيف مع عشرة من أصحابه . قالوا ولما بلغ الخبر محمد بن على بن عبد الله بن عباس قال (الحمد لله الذى صدق دعوتهم ومقالتهم وقد بقيت منهم قتلى ستقتل) ثم وجه (بكير بن ماهان) سنة ثمان عشرة ومائة عماربن يزيد والياً على شيعة بنى العباس فنزل مرو وغير اسمه وتسمى (بخداش) ودعا إلى (محمد بن عبد الله بن عباس) فسارع إليه القوم وأطاعوه ثم أباح لهم عدم الصلاة والصوم ودعاهم للفجور بنساء بعض وقال إن ذلك بأمر محمد بن على فظفر به أسد والى خراسان وسمل عينيه وقطع لسانه فبلغ ذلك محمد بن على فترك مكاتبتهم ومراسلتهم فبعثوا إليه سليمان بن كثير يعلمه أمرهم فصرفه إلى خراسان وأرسل معه كتاباً مختوما ففضوه فلم ير فيه إلا (بسم الله الرحمن الرحيم) فعظم عليهم ذلك وعلموا أنهم خالفوه . وبعث للنقباء أيضا بعصى مضببة بعضها بحديد وبعضها بالنحاس وأخذ كل واحد من النقباء عصا وهى إشارة لما كانوا عليه من مخالفته ورجوعهم لطاعته .

ثم جمعوا أمرهم وقاموا بالدعوة وابتدأ اضطراب حبل بنى أمية وهاجت عليهم الفتنة وخرج سليمان بن هشام بن عبد الملك من الحبس وأخذ ما كان بعمان من الأموال وأقبل إلى دمشق يلعن الوليد ويرميه بالكفر .

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائة وهى أول سنة الأعمال الجسيمة توجه فيها سليمان ابن كثير ومعه أبو مسلم وجماعة من الشيعة إلى مكة والتقوا بإبراهيم الإمام ودفعوا إليه ما كانوا يحملون من المال والمتاع فكتب كتابا لأبى مسلم يأمره فيها بالعمل ووجهه الخراسانى وعمره إذ ذاك نحوا من أربع وعشرين سنة . قال فى كتابه للأصحاب والشيعة .

أما بعد فإنى قد أمرت عليكم أبا مسلم فاسمعوا له وأطيعوا .

أمره على خراسان وما غلب عليه بعد ذلك . فكبر على شيوخ الشيعة قبول إمرته لصغر سنه وخرج بعضهم إلى مكة ليلاقوا الإمام فإذا به . مجمع على رأيه على أبى مسلم وألزمهم طاعته فأطاعوه ثم كتب إلى أبى مسلم أنك رجل منا آل البيت احفظ وصيتى انظر هذا الحى من اليمن فالزمهم واسكن بين ظهرانيهم فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم واتهم ربيعة فى أمرهم وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت فيه وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ولا تخالف هذا الشيخ (يعنى سليمان بن كثير) ولا تعص عليه وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به منى) .

قام أبو مسلم بالدعوة حق قيام ولم يبق قلب إلا قلبه على بنى أمية ولابلد إلا أوحشه منهم فغير النوايا وبدل الضمائر والأفكار بما بثه وأظهره من حجج الهاشمية وما كشف من معايب الأمور فلم تلبث إلا وقد لزمت الطاعة وتنادت بالدعوة لبنى العباس وجاءت من كل الأرجاء والمواقع ليقع فى ملكه ما يريد .

قام أبو مسلم مع النقباء والنجباء وبث الدعاة وبرز للمغالبة والمباراة فأزال ملك أعدائه عن مستقره وثبت ملك أوليائه فى نصابه فشفى اللّه صدوراً وأدرك بسيفه ثاراً . فتح البلاد وأقام أصل الدولة وفلح مغرس هذه الشجرة وغرسها وثبتها وأقام مقام أصحاب الدعوة بوتيرة واحدة ومنهاج غير مشترك ودان بالطاعة مع أصحابه يقتلون فيها ويموتون عليها .

أصحابه الخراسانية أصحاب الرايات السود يروون حديثاً مأثورا معناه (صفة الذين يفتحون عمورية ويظهرون عليها ويقتلون مقاتلتها شعورهم النساء وثيابهم ثياب الرهبان) وهم كذلك كانوا أصحاب صدور سليمة وقلوب باسلة لم تفسدها الأهواء ولم تخامرها الأدواء ولم تعتقبها البدع وهم خير جند لخير قائد فكأنما لم يخلقوا إلا لقلب الدول وتأييد السلطان .

ثم كانت سنة تسع وعشرين ومائة فكتب إليه إبراهيم الإمام يستدعيه ليسأله عن أخبار الناس فسار نحوه فى النصف من جمادى الآخرة مع النقباء فلما وصلوا قومس وافاه كتاب الإمام يقول له فيه إنى قد بعثت إليك براية النصر فارجع من حيث لقيك كتابى ووجه إلىَّ قحطبة بما معك يوافينى فانصرف أبو مسلم إلى خراسان وذهب قحطبة إلى الإمام بما معه من الأموال والعروض ونزل أبو مسلم قرية من قرى مرو يقال لها مفنون

(بلدة بمرو) ولبس السواد وبعث النقباء والنجباء يدعون لطاعة بنى العباس ودارت رحى الحرب والقتال وانتقل أمرهم من القوة إلى الفعل وأخذت البيعة إلى الإمام علانية ثم عقد اللواء الذى بعثه الإمام إليه الذى يدعى (الظل) والراية التى تدعى (السحاب) وأمر بإشعال النيران للشيعة وهى علامة اجتماعهم فاجتمعوا وتأولوا لذلك كلاما فقالوا (الظل والسحاب) يعنى أن السحاب يطبق الأرض وأن الأرض كما لا تخلو من الظلم كذلك لا تخلو من خليفة عباس إلى آخر الدهر .

ثم قدمت الدعاة على أبى مسلم من كل فج وناحية واتته الرجال راجلين وركباناً يكبرون من ناحيتهم فيجيبهم غيرهم من ناحية أخرى فتربص بهم مكانه وكان عيد الفطر فنصبوا منبراً بالعسكر وأمر سليمان بن كثير أن يصلى به وبالشيعة ويبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة وكانت بنو أمية تبتدئ بالخطبة قبل الصلاة وبالأذان والإقامة مع تغيير كثير فى عدد التكبيرات واختلاف فى كونها تباعا ففعل ثم انصرفوا بعد الصلاة إلى طعام فأكلوه وكتب أبو مسلم إلى نصر بن سيار قائد جيوش بنى أمية كتاباً قال فيه.

إلى نصر

أما بعد فإن اللّه تبارك أسماؤه عير أقواما فى القرآن فقال ﴿ **وأقسموا باللّه جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً استكباراً فى الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة اللّه تبديلا ولن تجد لسنة اللّه تحويلا** ﴾ (١).

فتعاظم نصر الكتاب وكسر له إحدى عينيه وقال هذا كتاب ماله جواب .

ثم وجه أبو مسلم أشياعه مثل مالك بن الهيثم الخزاعى وحازم بن خزيمة والتقوا بعسكر بنى أمية وجيوشها وذهب غير أولئك إلى جهة أخرى فشردوهم عن المواقع والأماكن وقتل من قتل منهم كشيبان الخارجى من أكابر القواد والكرمانى وأبنيه ودخل أبو مسلم « مرو » وصفت له على يد أبى منصور طلحة بن رزيق أحد النقباء وكان عالما بالحال ملحنا(٢) وهو أحد الاثنى عشر نقيبًا المنتخبين من السبعين الذين استجابوا للرسول محمد بن على فى أول الأمر .

ثم دخلت سنة اثنين وثلاثين ومائة بويع فيها أبوالعباس عبد اللّه بن محمد بن عبد اللّه

---

(١) فاطر : ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) ملحناً : فصيحًا .

الملقب بالسفاح بسبب قبض مروان الحمار على إبراهيم بن محمد الإمام وحبسه وقتله (كما هو مبسوط فى أماكنه من كتب التاريخ) وكان الإمام قد نعى نفسه إلى أهل بيته قبل ذلك وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبى العباس عبد الله بن محمد وبالسمع والطاعة له وأوصى إلى أبى العباس الملقب بالسفاح بالخلافة فلما وقع ذلك ساروا فقدموا الكوفة مع شيعتهم فأنزلهم أبو سلمة الخلال دار الوليد بن سعد مولى بنى هاشم (كما تقدم الكلام فى النبذة التايخية) وجاءت القواد وسلمت عليه بالخلافة ثم لبسوا السلاح وطلبوا خروجه واصطفوا له وأتوا بالدواب فركب برذونا [1] أبلق [2] ودخلوا دار الإمارة ثم خرج إلى المسجد فخطب وصلى بالناس ثم وافت الأخبار بهزيمة مروان (بالزاب) ثم التقى به عبد الله بن على عم السفاح فهزمه الهزيمة الكبرى وفر إلى مصر وقتل .

قامت الدولة العباسية مبتدئة بأول خلفائها أبى العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس وهو الملقب بالسفاح فأقر أبا مسلم على خراسان ولا زال بها لا يفارقها إلى سنة ست وثلاثين ثم كتب إليه أبو مسلم يستأذنه فى القدوم عليه والحج فأذن له ووافق ذلك طلبا من أبى جعفر المنصور أيضا بالحج فأذن له فلما كانا فى الطريق حمل معه ذكر أبى جعفر لأن أبا مسلم كان يكسو الأعراب ويصلح الآبار والطريق وكانت الذكرى له . ولما صدر عن الموسم تقدم فى الطريق ثم أتاه خبر موت السفاح فكتب إليه يعزيه ولم يهنئه بالخلافة . كل هذا وأمثاله جعل أبا مسلم فى نظر المنصور ممن أحسن مبتدأ وأساء معقباً وقد غلب عليه سوء الظن حتى رجح فيه قبح ألباطن على حسن الظاهر وخبث السريرة وفساد النية على حسن الخدمة والبلاء الحسن فأمضى فيه حكمه وقتله بعد أن استدعاه وأدناه وجالسه مجلساً كثر فيه الأخذ والرد كما سيأتى ذلك فى ترجمته إن شاء الله .

موعظة

(قال الإمام الفخرى) لما قدر الله انتقال الملك إلى بنى العباس هيأ لهم جميع الأسباب فكان إبراهيم الإمام ابن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بالحجاز جالسا عل مصلاه مشغولا بنفسه وعبادته ومصالح عياله ليس عنده من الدنيا طائل وأهل خراسان يقاتلون عنه ويبذلون نفوسهم وأموالهم دونه وأكثرهم لا يعرفه ولا يفرق بين اسمه وشخصه . وانظر إلى إبراهيم الإمام هو بتلك الحالة من الانقطاع بداره واعتزال الدنيا وهو بالحجاز وله مثل هذا العسكر العظيم فى خراسان يبذلون نفوسهم دونه لا ينفق عليهم ما لا ولا يعطى

---

(٢) برذونًا : فرسًا .　　(٣) أبلق : فيه سواد أو بياض .

أحدهم دابة ولا سلاحا بل هم يجبون إليه الأموال ويحملون إليه الخراج فى كل سنة .

ولما قدر الله تعالى خذلان بنى مروان وانقراض ملك بنى أمية كان مروان خليفة مبايعا ومعه الجنود والأموال والسلاح والدنيا بأجمعها عنده والناس يتفرقون عنه وأمره يضعف وحبله يضطرب فما زال يضمحل حتى هزم وقتل وأكلت لسانه هرة .

فتعالى اللّه عما يشركون اهـ .

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شئ قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحيّ من الميت . وتخرج الميت من الحيّ وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ (1) .

(1) آل عمران : ٢٦ ، ٢٧ .

أبو جعفر المنصور

نستفتح الخلافة العباسية باسم هذا الخليفة العظيم ثانى الخلفاء العباسيين لأسباب منها أن جماعة المؤرخين قالوا إن فى بنى العباس فاتحة . وواسطة . وخاتم . والفاتحة عندهم المنصور . والواسطة المأمون . والخاتمة . المعتضد ومنها أن مدة السفاح لم تطل . ومنها أن هذا الخليفة أحق بالتقديم لأنه جمع أشتات الفضائل بما أعطاه الله من القوتين العلمية والحربية .

هو أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس . ولد فى شهر ذى الحجة سنة خمس وتسعين وأدرك جده ولم يرو عنه وروى عن أبيه وعن عطاء بن يسار . وبويع له بالخلافة فى شهر الحجة سنة ست وثلاثين ومائة . وتوفى لست خلون من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة ببئر ميمون مع السحر وهو محرم ودفن بمقبرة المعلاة والمسافة بينهما ثلاثة أميال . فمدة خلافته اثنان وعشرون سنة ومدة عمره ثلاث وستون سنة .

كان أسمر نحيفاً خفيف العارضين وقوراً كامل العقل جيد المشاركة فى العلم والأدب فقيه النفس فصيحاً بليغاً مفوّهاً خليقاً بالإمارة وجبروتها مدبراً لأمور المملكة .

قسم زمانه وساعاته قسمة حكمة صدر نهاره للأمر والنهى والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وتأمين السبل والنظر فى الخارج والنفقات ومصلحة معاش الرعية والتلطف بسكونهم وهدايتهم فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته فإذا صلى العشاء الآخرة جلس للنظر فى كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سماره فاذا مضى ثلث الليل قام الى فراشه فاذا مضى الثلث قام فتوضأ وصلى حتى يطلع الفجر فيخرج للناس فيصلى ثم يدخل إيواءه .

وكان لحبه العدل واستقامة أمور المملكة يستقل ذلك وقد سمع منه أنه قال « ما أحوجنى أن يكون على بابى أربعة نفر : قاض لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وصاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، وصاحب خراج لا يظلم الرعية ثم عض على أصبعه وتأوه فقيل ما هو يا أمير المؤمنين قا ل صاحب بريد يكتب إلى هؤلاء على الصحة » .

نمت فى عصره القوة العلمية . فقد عاصر كثيراً من الأئمة الأجلاء منهم الإمام أبو

حنيفة والإمام مالك بن أنس وكثر تدوين علماء المسلمين فيه العلوم . كالحديث والتفسير فصنف ابن جريج بمكة . ومالك الموطأ بالمدينة والأوزاعي بالشام . وابن أبي عروبة وحماد ابن سلمة وغيرهما بالبصرة ومعمر باليمن . وسفيان الثوري بمكة وصنف ابن إسحاق المغازي وابتدأ تدوين العلم وتبويبه ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس . وكان الأئمة في هذا العصر يعلمون العلوم إملاءً من حفظهم .

هو أول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والأعجمية بالعربية كإقليدس وكليلة ودمنة وكان هو أعلم الناس بالحديث والأنساب مشهوراً بطلبه . كان بليغاً لسنًا فصيحًا أخرج الأصمعي وغيره أنه صعد المنبر فقال « الحمد لله أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له فقام إليه رجل فقال يا أمير المؤمنين اذكر من أنت في ذكره فقال مرحبا مرحبا لقد ذكرت جليلا وخوفت عظيما وأعوذ بالله أن أكون ممن إذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم والموعظة منا بدت ومن عندنا خرجت وأنت يا قائلها فأحلف بالله ما الله أردت وإنما أردت أن يقال قام فقال فعوقب فصبر فأهون بها من قائلها واهتبلها [1] من الله فاني قد غفرتها وإياكم معشر الناس من أمثالها وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فعاد إلى خطبته كأنما يقرؤها من قرطاس .

كان المنصور من أعظم الخلفاء ذوي الآراء التامة وأعلمهم وأعقلهم وأحزمهم وأشجعهم وله من التدبيرات السديدة ما يستحق أن يدون ليحتذى به ويؤخذ منه ويقاس عليه .

ومن أغرب ما يؤثر عنه مما يدل على تفطنه ودقته أنه لما أدركته الوفاة قال لابن المهدي يا بني إن في بيت المال مالا أخذته العمال من أصحاب الجنايات على وجه المصادرة تأديباً لهم وزجراً ولقد أفردت كل شئ منه وكتبت عليه أسماء أصحابه فربما كان منهم ما يوجب رده إليهم .

كان أعلم الناس بضبط أحوال الممالك وترتيب القواعد وإقامة ناموس كل شئ . غالب الدهر والأيام حتى كف عاديهما عنه وتوطدت أركان الممالك له وعظمت هيبته في النفوس ولولا بأسه وشدته ما دانت الأمصار إليه بعيدها وقريبها وأصبحت خلافته موطدة الأركان قويمة البنيان فإن آل مروان لم تبل رممهم [2] . وآل أبي طالب لم تغمد سيوفهم

---

(١) اهتبلها : اغتنمها .   (١) رممهم : جثثهم .

والناس قد رأتهم أمس على حال واليوم أصبحوا عليهم خلفاء .

كان حازماً لا يعرف اللهو ولا ما يشبه اللهو ولم ير في داره ذلك . قال سلام الإبرش كنت أخدم المنصور داخلا وكان من أحسن الناس خلقاً فى الخلوة بل من أشد الناس احتمالا لما يكون فيها فإذا من المجلس العام اربدّ[1] لونه وكان مع ما وهبه الله من السؤدد والمجد فقير النفس فكان يرقع ثوبه ويلبس القميص الخشن (ونعم المبتلى) .

كان شجاعا صارما مقداما لا يرهب الموت يقظا لا يفلت عدوه قال يزيد بن عمر بن هبيرة : ما رأيت رجلا فى حرب أو سلم أمكر ولا أنكر ولا أشد تيقظا من المنصور حاصرنى تسعة شهور ومعى فرسان العرب فجهدنا الجهد الجهيد فلم ننل من عسكره شيئاً وحصرت وما فى رأسى شعرة بيضاء وانقضى الحصار وليس فيها سوداء .

يعد مخاطراً من فرط شجاعته حتى قيل إنه أخطأ فى ثلاث : قتل أبى مسلم وهو فى جماعة قليلة وحين خرج إلى الشام . ولو اختلف سفيان بالعراق لذهبت الخلافة . ويوم الراوندية ولو أصابه سهم لدكت المملكة وغدا الكل أثراً بعد عين . فأما قتله لأبى مسلم وخروجه إلى الشام فقد يتفق ذلك لبعض الأنام المعجز يوم الروراندية .

وصفوة الخبر أن جماعة من أهل خراسان يبلغ عددهم ستمائة نفس يقولون بالتناسخ على رأى أبى مسلم أحاطوا بقصره وقالوا أنت إلهنا فغضب وقال يدخلهم الله النار فى طاعتنا ولا يدخلهم الجنة فى معصيتنا وحبس رؤساءهم فعمدوا إلى نعش فارغ وحملوه كان به جنازة وقصدوا السجن فألقوه أمامه وكسروه وأخرجوا من فيه وقصدوا القصر فخرج بنفسه ماشيا وصاحت الناس وغلقت أبواب المدينة وما زال حتى جئ له بدابة فركبها ثم جاء معن بن زائدة وأخذ بلجامها وصار يقاتل قتالا ما رؤى قبله ويقتل بين يديه ويحميه حتى طفئت الفتنة .

فعن أى ملك أو سلطان يؤثر ذلك ؟ لا ندرى على أن هذه الأمور طالما كانت سببا لضياع البلاد . تقوم الثورة المدبرة فتنعقد يد الأمير عن التصرف فيها فتتسع « ومعظم النار من مستصغر الشرر » فضلا عن أن تلم بطرف أجنبى فلا تلبث المدينة أو المملكة إلا وقد أصبحت مغنما للعدو كما رأينا ذلك .

وقد كانت هذه الواقعة سببا لبنائه بغداد لأنه كره الإقامة بالهاشمية فبناها بعد ما

---

(١) اربدّ : اسود .

أجمعت جماعة الحكماء على فضل مكانها دجلة والفرات محيطان بها والميرة تأتى إليها فى دجلة من ديار بكر ومن البحر والهند والصين . وفى الفرات من الرقة والشام وخراسان وبلاد العجم متوسطة بين البصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد والساكن فيها قريب من البحر والبر والجبل وهى مدينة مباركة قالوا إنه لم يمت فيها خليفة .

ابتدأ فيها سنة خمس وأربعين ومائة وأتمها سنة ست وأربعين وجعلها شبه دائرة وقصره فى مركزها قالوا ليكون قربه من جميع الناس واحد . فصرف عليها أربعة ملايين وثمانمائة ألف درهم وبلغ من دقة أمره فى حسابها أنه تقاضى البواقى لغاية خمسة عشر درهما (وهكذا من أخذ حقه أعطى حق غيره) .

ثم بنى الرصافة وشيدها

أحلت بخلافته الفتوق والحوادث من كثرة الخارجين عليه فأفنت الفرسان وقتلت الأنصار وغلت يد الخلافة وأذاقت الأمة بأس بعضها وأتلفت الحصون والملاجئ وبددت المعاقل .

وكفى بالجيوش الخراسانية التى كانت مع الأمير (إسنادسز) أى الخارج بلا سند ولا دليل) فقد عظم خطرها واستفحل شرها واشتد الأمر على المنصور فإن ضريبة جيشه كانت ثلاثمائة ألف مقاتل ما بين فارس وراجل ولم يهزم اسنادسز حتى قتل فى موقعة واحدة من رجاله سبعون ألفا فى واقعة مشهورة .

أدته حالة الملك ورغبته فى استقامته باستئصال جراثيم الفساد أن هجم بالعقوبة وتناسى العفو فكان جبروت خلافته شديدا ولم تفتح خلافته إلا « طبرستان » لأن الحروب مع الخوارج غلبت عليه .

دخل فى طاعته ممالك الإسلام التى افتتحها الصحابة رضى الله عنهم وبنو أمية إلا الأندلس بقيت بيد أهلها يتقاتلون على الإمارةحتى قدم عليهم فأصبح للإسلام رئيسين يتنازعان السلطة العباسية فى الشرق ببغداد والأموية فى الغرب بالأندلس .

ومن فضائل هذا الخليفة أنه وسع المسجد الحرام مما يلى دار الندوة وحصل بينه وبين ملك الروم الفداء واستنقذ أسرى المسلمين وحج حجة أغدق فيها على الناس حتى سميت عام الخصب . ووقع فيها بينه وبين رجل من الحديث ما فيه مزدجر ومن العظة ما لا يتصور وقوعه والعجب أن مثل أبى جعفر يتقبله منه . . حـ . ته ولا تأخذه أنفة الملك . وإنا ذاكروه

ولو طال . فإنه مما يطرز بالدرر واللآل :

قالوا حج أبو جعفر وكان يخرج إلى الطواف فى آخر الليل يطوف ويصلى ولا يعلم به أحد فخرج ذات ليلة سحرا وبينا هو يطوف سمع من يقول اللهم إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الارض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم فأسرع المنصور حتى ملأ مسامعه منه ثم خرج ودعاه وسأله عن الذى سمعه فقال له : إن أمنتنى على نفسى أنبئك . فأمنه وأدناه وسأله فقال :

« يا أمير المؤمنين إن الذى دخله الطمع حتى حال بين الحق وأهله وما ظهر من البغى والفساد فى الارض انما هو أنت . قال ويحك كيف يدخلنى الطمع وكل ما أريده فى قبضتى ؟ – قال : وهل دخل على أحد من الطمع ما دخل عليك يا أمير المؤمنين . إن الله عز وجل استرعاك أمور المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر وأبوابا من الحديد وصحبة معهم السلاح واتخذت وزراء وأعوانا فجرة إن نسيت لم يذكروك وإن أحسنت لم يعينوك وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والرجال والسلاح وأمرت أن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان ولم تأمر بإيصال المظلوم والملهوف والجائع والعارى وما أحد إلا وله فى الأموال حق فلما رآك الذين استخلصتهم وأشرفتهم على رعيتك وأمرت أن لا يغيبوا عنك تجبى المال ولا تقسمه قالوا قد خان الله فما بالنا لا نخونه وائتمروا على كتم أخبار الناس عنك إلا ما أرادوا ولا يخالف أمرهم عامل إلا أقصوه حتى تسقط منزلته فلما انتشر ذلك عظمهم الناس فهابوهم وصانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليقووا بها على الظلم ثم فعل ذوو الثروة والقوة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم وامتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل وإن جاء متكلم حيل بينه وبين الدخول إليك وإن أرادوا رفع قصة إليك وجدوك قد نهيت عن ذلك وأوقفت رجلا ينظر فى مظالمهم فإن جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك سألوا المظالم أن لا يرفع مظلمته إليك فإن صرخ ضرب وأنت تنظر ولا تنكر ولا تغير فما بقاء الإسلام وأهله على هذا .

كانت بنو أمية لا ينتهى إليهم مظلوم إلا رفعت مظلمته ولقد كان الرجل يأتى من أقصى الأرض حتى يبلغ باب سلطانهم فينادى ياأهل الإسلام فيبتدرونه فيرفعون مظلمته إلى سلطانهم فينتصف له وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى أرض الصين وبها ملك فقدمتها مرة وقد ذهب سمع ملكهم فجعل يبكى فقال له وزيره مالك تبكى لا بكت

عيناك . فقال أما إنى لست أبكى على المصيبة إذ نزلت بى ولكن على عدم سمع صراخ المظلوم بالباب ابكى . ولئن ذهب سمعى فإن بصرى لم يذهب . نادوا فى الناس أن لا يلبس ثوبا أحمر إلا المظلوم .فكان يركب الفيل فى طرفى النهار هل يرى مظلوما فينصفه .

هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله تعالى قد غلبت عليه رأفته بالمشركين ورقته على شح نفسه فى ملكه وأنت مؤمن بالله عز وجل وابن عم نبيه ألا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك فإنك لا تجمع الأموال إلا لواحدة من ثلاثة . إن قلت أجمعها لولدى فقد آتاك الله تعالى هذا الطفل الصغير وما له على الأرض مال . وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه ولا يزال الله عز وجل يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه . ولست الذى يعطى ولكن الله تعالى يعطى ، وإن قلت أجمع المال لتشييد سلطانى فقد أراك الله عز وجل عبراً فيمن كان قبلك ولم يغن عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة وما أعدوا من الصراع والكراع [1] وما ضرك وولد أبيك عبد الله بن عباس ما كنت فيه من الضعف حين أراد الله عز وجل بكم ما أراد . وإن قلت أجمع المال لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى أنا فيها فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك إلا بالعمل الصالح يا أمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك من رعيتك بأشد من القتل قال لا . فكيف تصنع بالمالك الذى خولك [2] ما أنت فيه من ملك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن يعاقب من عصاه بالخلود فى العذاب الأليم وهو الذى يرى منك ما خفى فيك فما تقول إذا انتزع ملك الموت الدنيا من يدك ودعاك إلى الحساب هل يغنى عنك ما كنت فيه شيئاً فبكى المنصور حتى ارتفع صوته ثم قال « ليتنى لم أخلق ولم أك شيئاً . كيف احتيالى فيما خولت ولم أر من الناس إلا خائناً » فقال يا أمير المؤمنين عليك بالأئمة الأعلام المرشدين ؟ قال ومن هم . قال العلماء قال فروا منى . قال هربوا مخافة أن تحملهم على ما ظهر من طريقك ولكن افتح الأبواب وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم وامنع وخذ الشئ مما حل وطاب واقسمه بالعدل وأنا ضامن لك أن يأتيك من هرب منك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك . فقال المنصور اللهم وفقنى أن أعمل بما قال هذا الرجل .

ولا عجب من سكوت أبى جعفر وإصغائه لمقال الرجل وطلبه التوفيق فى العمل بما قال لأنه يتحرى الحق من الباطل ويعلم صحة ما يقال له وينزل إليه وهو متسنم المعالى ويتضاءل أمامه كما سمعت .

---

(١) الكراع : الخيل .　　(٢) خولك : ملكك .

أكبر فخر للغربي على الشرقي الآن أن يفخر عليه بأن في أهل الغرب من الرجال من يبادر ملوكهم بكلمة الحق وقوله الصدق وإن هؤلاء الملوك لا يصدفون [1] عن النصيحة ولا يأنفون منها ما دامت عونا لهم على طرق الحق واكتساب الخير ولكن كل الذى سمعناه عنهم دون هذا الموقف الذى ذهبت فيه معانى الخلافة من القهر والقوة والقدرة واستمعت فيه النصيحة بما يجب لها من الخضوع والخشوع .

وأعجب من هذا ما أخرجه عبد الله بن صالح قال كتب المنصور إلى سوار بن عبد الله قاضى البصرة بأن ينظر فى الأرض التى تخاصم فيها فلان القائد وفلان التاجر وأن يدفعها إلى القائد فامتنع القاضى وقال إنها من حق التاجر وكتب للمنصور بذلك . فكتب إليه والله الذى لا إله إلا هو لتدفعنها إلى القائد . فكتب إليه سوار يقول والله الذى لا إله إلا هو لا أخرجها من يده إلا بحق . فلما جاءه الكتاب قال ملأتها والله عدلا وصارت قضاتى تردنى إلى الحق .

لو كان أبو جعفر غير مغلول اليدين وكانت الحروب التى باشرها مع الخوارج عليه فتوحا فى بلاد الغير كان زمنه يعد من أكبر الأزمان فى الفتوح والأعمال الحربية كما عد أكبر زمن فى الفتوح العلمى والتقدم فى المعارف ولكن قدر الله أن يكون سهمنا بيننا فى تلك المدة كما قدمنا وذلك من المنازعة على الملك وسمو الآمال إليه وعدم دفع الخارجين عليه إلا بالقوة الغالبة أو ينقرضوا .

كانت خزائن أبى جعفر ملآى بأنواع الأموال وجيوشه على قدم الاستعداد ولولا ذلك ما تمت له الخلافة وناهيك بوصيته للمهدى وقوله فيها « إنى قد جمعت لك من الأموال ما يكفيك لأرزاق الجند والنفقات على اختلافها عشر سنين فاحتفظ بها فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً وأوصيك باهل بيتك خيرا فان عزك عزهم وانظر مواليك فإنهم مادتك لشدتك وإياك والتبذير فإن النوائب غير مأمونة . ولا تتجاوز ما أمر الله به وأعد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل وخذ نفسك بالتيقظ وتفقد من تثبت على بابك وسهل إذنك للناس ووكل بهم عينا غير نائمة ونفسا غير لاهية ولا تنم وإياك فإن أباك لم ينم منذ ولى الخلافة ولا دخل عينه الغمض إلا وقلبه مستيقظ » .

فالمتأمل فى هذه الوصية يدرك أن الأمم الفقيرة لابد أن تسترقها أخصامها بعلة الدين

(١) يصدفون : يعرضون .

كما هوالواقع وهو أقرب سبب لأن تتملكها أو تستعبدها عداها وليس بين الأمة وبين محوها إلا أن تقصرها يدها فى عدة حرب وقد وقفت إليها خصومها وعلمت منها ذلك وأن الانقسام والافتراق من شر الأوبئة على عائلة الملك لأنها تبيدها بيدها من غير حاجة لقوة الأعداء .

فنسأل الله أن يلم شعثنا [1] ويوفقنا لما يريده من خير الدنيا وخير الآخرة ويرينا هذه المواقع التى ذكرناها من جهات بغداد وأنهارها عامرة غامرة بالعمارة والترقى والحضارة والمدنية التى انبثت هناك أسبابها فى هذه الأيام فى ظل مولانا وسيدنا أمير المؤمنين الظليل أدام الله سلطانه وملكه وجعله للأمة الإسلامية ذخراً وسياجا يحوطها من آفات الزمان ونوائب الحدثان [2] ويد العدوان آمين .

---

(١) لم شعثه : جمع أمره المتفرق .

(٢) الحدثان : الليل والنهار .

المهدى أبو عبد الله محمد بن المنصور

هو المهدى أبو عبيد الله محمد بن المنصور ولد سنة سبع وعشرين ومائة وبويع له بالخلافة فى سنة ثمان وخمسين بعهد من أبيه المنصور بعد موته (ببئر ميمون كما تقدم فى ترجمته فلما وصل الخبر إليه ببغداد خطب الناس فقال :

« إن أمير المؤمنين عبد دعى فأجاب وأمر فأطاع (واغرورقت عيناه فقال) قد بكى رسول الله ﷺ عند فراق الأحبة ولقد فارقت عظيما وقلدت جسيما فعند الله احتسب أمير المؤمنين وأستعين على خلافة المسلمين) . أيها الناس أسروا مثل ما تعلنون من طاعتنا نهبكم العافية واخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم وطوى الإصر [1] عنكم وأهال عليكم السلامة من حيث رآه الله مقدماً ذلك . والله لأفنين عمرى بين عقوبتكم والإحسان عليكم » .

يرى الممعن فى معانى هذه الخطبة شيئاً كثيراً من المنافع والمقاصد الخيرية أظهرت تأثره بالفجيعة وأبانت أن خلاله خلال حنو وانعطاف وأن ملكوت الخلافة لم ينسه حق الابوة ورأينا غير ذلك فى غيره ممن لا تذكر نعمتهم فى جانبه ولا أسوأ من العقوق والعياذ بالله .

نقب على أحسن ما توصف به الرعية وطلب تحقيقه من الأمة والملة فقال : « وأسروا كما تعلنون » لأن أقبح ما تكون الأمة وفى صدرها داخل سواء كانت تصره لبعضها أو لأولياء أمورها .

طلب منهم خفض الجناح [2] واقترنه بنشر المعدلة فيهم وطىٍّ الاصر عنهم ولا أجل من ذلك فى معانى الحكم بالعدل والملك بالحق .

حكم على نفسه بأن يفنى عمره بين الإحسان والعقوبة وكذلك النفوس الكاملة تتقلب رعاياها بين رحموتها وجبروتها لكيلا تكون « سكراً فتؤكل وحنظلا فترمى »

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلى مضر كوضع السيف فى موضع الندى

كأنما المنصور كان ينعى نفسه فقد أوصاه عند وداعه وصية من لا يؤمل اللقاء فلم يدع

---

(١) الإصر : الثقل . (٢) خفض الجناح : لين الجانب .

فيها شيئاً من الخير يمكن الإحاطة به إلا تقدم فيه إليه ، وأوصاه بخصال جمّله بها واستخلف الله عليه .

تولى الخلافة مستأنسا بوصية والده هذه متدرباً خليقاً بالإمارة لأن الخليفة المنصور ريضه بما ولاه قبلها من الأعمال منذ شب وتأدب وجالس العلماء وبلغ مبلغ الكمال .

أمره على طبرستان وما والاها فباشر أعمالها حتى برهن عل أهليته . ثم عهد إليه بالخلافة بعد ذلك فكان العهد إليه عن خبرة وحقيقة نظر فى مصالح الأمة وكأنّ المنصور بترييضه ولده وولى عهده على أمورها وأعمالها نظر لمصالح هذه الأمة فى مماته نظره لها فى حياته وحبذا الخلفاء .

روى المهدى الحديث عن أبيه وعن مبارك بن فضالة وحدث عنه يحيى بن حمزة وجعفر بن سليمان الضبعى وغيرهما . قال الذهبى وما علمت فيه جرحا ولا تعديلا .

كان المهدى جواداً ممدوحاً محبباً إلى الرعية حسن الاعتقاد قال له يوما يعقوب وزيره فى أمر أراده : « هذا والله السرف » فقال المهدى : ويحك يا يعقوب إنما يحسن السرف بأهل الشرف ليعلم المكثر من المقل .

كان من أوائل فعله فى خلافته تتبع الزنادقة والقائلين بالتناسخ من أهل خراسان الملتفين حول راية المقنع ولوائه . فحاربهم ثم أراد أن يكون دليله فى إذلالهم دليل بحث وتنقيب وحجته فى إفحامهم حجة برهان واستنباط لا حجة غلبة وصولة فأمر بتصنيف كتب الجدل فى الرد على مسائلهم فى الزندقة والإلحاد وما زال بهم حتى أفناهم وطهر الأرض منهم .

وفى سنة تسع وخمسين ومائة بايع المهدى بولاية العهد لموسى الهادى ثم من بعده لهارون الرشيد ولديه .

وفى سنة ٦٠ حج بالناس وقسم مالا عظيما فى مصارف الخير ونقل خمسمائة من الأنصار إلى العراق جعلهم فى حرسه وأقطع لهم الأرزاق .

حمل إليه الثلج وهو فى مكة وهذا مما لم يتهيأ لخليفة قبله قط . وما ذلك إلا من انتظام البريد وأمان الطريق وسلامة الوارد والمتردد وعدم وجود عائق أبداً .

نعم عمر الطريق إلى مكة وبنى به قصورا أوسع من قصور المنصور (من القادسية إلى زبالة) وجدد الأميال وحفر الآبار وأصبحت الطريق آمنة صالحة إلى بيت الله الحرام ومقام نبيه عليه السلام وأمر باتخاذ المصانع فى كل منها منهل . وسير البريد من العراق للحجاز ومن اليمن إلى مكة إلى الحضرة وخصص له إبلا وبغالا لا تحصى وهو مما لم يتفق لغيره أيضا .

أمر بترك المقاصر التى فى جوامع الإسلام وقصر المنابر وصيرها على مقدار منبر رسول الله ﷺ . ووسع المسجد الحرام وأمر بالزيادة الكبرى فيه وأدخل فى ذلك دوراً كثيرة ولم يزل البناء فيه إلى وفاته .

ثم بدأ فى الفتوح ببلاد الروم فكثرت الفتوحات على يديه ونصره الله وزاد فى غنيمته فمنها أنه فى سنة ثلاث وستين ومائة تجهز لغزو الروم وجمع الأجناد من خراسان وما يليها من الآفاق وصار مستصحبا ولده هارون وبعد أن عبر الفرات بعثه للغزو فحاصرها البلاد وافتتحها وأثخن [1] فى الزنادقة .

ثم سير ابنه هارون فى سنة خمس وستين ومائة لغزو الروم فأوغل فى بلادهم وهزمهم وجمع إليه أموالاً كثيرة وسار حتى بلغ القسطنطينية وكان على الروم يومئذ (غسطه) زوجة (أليوك) كافلة لا بنها منه صغيراً . فجرى الصلح على الفدية وأن تقام له الإدلاء والأسواق فى الطريق ونال قصده من ذلك .

كان عادلا محباً للعدل فإذا جلس للمظالم قال أدخلوا على القضاة فلو لم يكن ردى للمظالم إلا للحياء منهم لكفى .

بلغ من تقواه ما حدث به (الحسن الوصيف) قال : أصابتنا ريح شديدة فى أيام المهدى حتى ظننا أنها تسوقنا إلى المحشر فخرجت أطلب المهدى فوجدته واضعا خده على الأرض وهو يقول « اللهم احفظ محمداً فى أمته اللهم لا تشمت بنا أعداءنا من الأمم . اللهم إن كنت آخذت هذا العالم بذنبى فهذه ناصيتى بين يديك » قال فما لبثنا إلا يسيراً حتى انكشفت الريح وزال عنا ما كنا فيه .

كان سمحا جميلا قال الربيع : رأيته يصلى فى بهو له فى ليلة مقمرة فما أدرى أهو أحسن أم البهو أم القمر أم ثيابه فقرأ : ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم** ﴾ [2] قال فأتم صلاته ثم التفت إلى وقال : يا ربيع . قلت لبيك . قال

(١) أثخن : قتل وجرح .　(٢) محمد : ٢٢ .

موسى . فقلت فى نفسى من هو موسى أموسى ابنه . أم موسى بن جعفر ؟ وكان محبوسا عندى . فجعلت أفكر ثم غلب علىّ أنه موسى بن جعفر فأحضرته فقطع صلاته ثم قال له يا موسى إنى قرأت هذه الآية (وقرأها) فخفت أن أكون قد قطعت رحمك فوثق لى أنك لا تخرج علىّ وتؤذى بخروجك جماعة المسلمين حتى أخليك فوثق له فخلاه .

ويحق للقارئ لهذا الخبر أن يحاكى الربيع فى مقاله ويجاريه فيقول لا أدرى قراءته كلام الله بهذا الإمعان والتدبر أحسن أم العلم به فى صلة الرحم أم العفو عن المسئ أم مخافة الله !!!

كان عصره عصر خير وبركة . من الزهاد ابراهيم بن أدهم وداود الطائى ومن الأعلام : الخليل بن أحمد الفرهودى صاحب العروض وسفيان الثورى وبشار بن برد أول شعراء المحدثين .

كان مثالا للسماحة وقدوة فى مكارم الأخلاق . قالوا كان يصلى بالناس الصلوات الخمس بالمسجد الجامع بالبصرة لما قدمها . فأقيمت الصلاة يوما فقال أعرابى لست على طهر وقد رغبت فى الصلاة خلفك . فأمر الناس بانتظاره ودخل المحراب ووقف إلى أن قيل جاء الرجل فكبر وصلى .

ومن الخبر المأثور عنه فى حب النبى ﷺ أنه أول من قرأ فى الخطبة . ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبى** ﴾ [1] الآية . قال الأصمعى سمعت المهدى على منبر البصرة يقول إن الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه وثنى بملائكته . وقرأ الآية .

كان يتعسس بنفسه حال الأمة والملة فاتفق له ليلة أنه سمع أعرابية تقول : قومى مقترون [2] نبت[3] عنهم العيون فدحتهم [4] الديون . غصتهم [5] السنون . بادت [6] رحالهم وذهبت أموالهم . وكثرت عيالهم . أبناء سبيل وإمضاء طريق [7] وصية الله ووصية الرسول فهل من آمر لى بخير كلأه [8] الله فى سفره وخلفه فى أهله » فوصلها وأمر من يوصلها لحينها .

وأسند عن مهدى بن سابق قال : صاح رجل بالمهدى وهو فى موكبه وقال :

---

(١) الأحزاب : ٥٦ .
(٢) مقترون : مفتقرون .
(٣) نبت : بعدت .
(٤) فدحتهم : أثقلتهم .
(٥) غصتهم : أتعبتهم . والغصة شىء يسد الحلق .
(٦) بادت : فنيت .
(٧) إمضاء طريق : مهزولون من كثرة السير .
(٨) كلأه : حفظه .

قل للخليفة حاتم لك خـــائن	فخف الإله وأعفنا من حاتم
إن العفيف إذا استعان بخائن	كان العفيف شريكه فى المأثم

فاستوقف كل عامل يدعى حاتما حتى عرف له صاحب الخيانة وتقاضاه .

واعترضته امرأة فقالت : يا عصبة رسول الله انظروا فى حاجتى فقال : اقضوا حاجتها وصلوها بعشرة آلاف درهم فإنى ما سمعت أحدا خاطبنى بهذا .

ومن غرر أقواله قوله : « ما توسل إلى أحد بوسيلة هى أقرب من تذكرى يداً سلفت منى إليه اتبعها أختها وأحسن ربها فإن منع الأواخر يقطع شكر الأوائل » .

هذه الترجمة مثال تقاس عليه نتيجة حسن تربية أولياء العهد وترييضهم على العمل فى أيام سلفائهم ليمكن لهم أن يثقفوا بنظرهم لهم ويتحقق منهم النظر فى مصالح الأمة لدينهم ودنياهم متى أصبحوا أئمة عليها ووجب على جميع الرعية طاعتهم .

إن ولى العهد إذا أصبح ليس بينه وبين تحقيق أمنيته إلا موت العاهد له كان ذلك شؤما عليه وعلى الامة وأى شؤم فإنه يبطئ بنفسه عن كثير من خصال الخير ولا يوجد له إحساس يدفعه لحب التعليم ولا يكلفه الوصول لما فيه مرضاة الأمة بخلاف ما إذا سلم له النظر فى أمر نفسه وأمور المسلمين على نظر من الخليفة والناس ودفع على الأمور ورأى المنشط منها والمكره وسلك فيها بالاستيعاب حتى يفهم المعنى الذى أصبح من أجله أمير المؤمنين كان ذلك من أجل دواعى ترقى نفسه فى مراقى الكمال ووقعت المصلحة فى اجتماع الناس عليه واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد الذى شأنه أهم عند الشارع من كل شأن لما فيه من انتفاء الريب .

اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه ويسر لنا ارتباط القلوب واتفاق الأهواء واتحاد النفوس واجعل أشد ما نتواجد عليه إيثار مصلحة المسلمين على كل شئ فى كل شئ من أمر دنياهم وآخرتهم .

الرشيد

هو هارون الرشيد وكنيته أبو جعفر (وكان يكنى أبا موسى) بن المهدى محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس

تولى الخلافة بعهد من أبيه عند موت أخيه الهادى ليلة السبت لأربع عشرة بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة . هذه الليلة من أعجب الليالى . تولى فيها الرشيد الخلافة . وولد فيها له عبد الله المأمون ومات فيها أخوه الهادى . وليس فى ليالى الزمن المعروفة ليلة تمخضت عن موت خليفة وقيام خليفة وولادة خليفة غيرها . فإن كان ثم تفسير طابق معنى قول القائل

الليالى من الزمان حبالى ... مثقلات يلدن كل عجيبة

فهذه الليلة من تلك الليالى

أسند الصولى عن يعقوب بن جعفر . قال رأى الرشيد فى نومه النبى ﷺ فى سنة تسع وستين فقال له إن هذا الأمر صائر إليك فاغز . وحج ووسع على أهل الحرمين . فقام غازياً أطراف الروم وغنم وانصرف فى شعبان فحج بالناس فى الموسم وفرق على أهل الحرمين مالا كثيرا وصدق الله الرؤيا وتولى الخلافة فى السنة التى بعدها وفيها ولد له الأمين .

كانت ولادة الرشيد بالرى فى أواخر ذى الحجة سنة خمس وأربعين ومائة وكان مولد الفضل بن يحيى البرمكى قبله بسبعة أيام فأرضعت أم ابن يحيى الرشيد وأرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد . وكان أبوه المهدى فى تلك الأيام وما بعدها أميرا على الرى وخراسان من قبل المنصور كما قدمنا فى ترجمتيهما .

هذا هو الخليفة الذى مثل معنى الخلافة ومقامها فى عدلها وحلمها وإنصافها وإقامة عماد دولتها وإظهار شأنها وحماية ناموسها [1] وحاطها بأنواع الأسباب التى تدفع عنها المكاره . هوالذى مثل البذخ والترف والمجد والشرف والأبهة والعز والعظمة والسودد والنعيم المقيم الذى جمع دواعى اللذائذ الدنيوية والفوائد الأخروية وهو الذى اجتمع له

---

(١) ناموس : نظام .

فى خلافته ما لم يجتمع لغيره وزراؤه البرامكة وقاضيه أبو يوسف وشاعره مروان بن أبى حفصة ونديمه العباس بن محمد عم أبيه وحاجبه الفضل أنبه الناس وأفطنهم وأعظمهم فهو كما قيل :

إن المكارم والمعروف أودية   أحله الله منها حيث تجتمع

كان أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا وكان كثير الغزو والحج يغزو سنة ويحج سنة فإذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الطاهرة . قال الشاعر :

فمـن يطلـب لقاءك أو يـرده   ففى الحرمين أو أقصى الثغـور

ففى أرض العدو على طمرّ (١)   وفى البـلد المحـرم فوق كـور

كان مفرداً فى تعظيم حرمات الإسلام والمبالغة فى احترام العلماء والوعاظ محباً للعلم واهله مبغضا الرياء فى الدين والمعارضة فى النص .

كان الرشيد ابيض طويلا مليحا فصيحاً له النظر النافذ فى العلم والأدب كثير الصلاة يصلى كل يوم مائة ركعة لا يتركها إلا لعلة وله صدقات من صلب ماله تزيد عن ألف درهم فى كل يوم . وكان له تواضع فى شرفه أشرف من الشرف . فمن أحسنه (وما أحسن شئ كله حسن) ما حدث به أبو معاوية الضرير . قال أكلت مع الرشيد ثم صب على يدى الماء رجل لا أعرفه . فقال الرشيد : تدرى من صب عليك ؟ قلت : لا . قال . أنا إجلالا للعلم ورعاية لأهله . وقال القاضى الفاضل فى بعض رسائله عند الكلام على رحلة السلطان صلاح الدين لطلب العلم (ما أعلم إن لملك رحلة قط فى طلب العلم الا الرشيد فإنه رحل الأمين والمأمون لسماع الموطأ على سيدنا مالك رحمه الله ثم رحل لسماعه أيضا مقتديا به هذا السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الإسكندرية فسمعه على ابن طاهر بن عوف ولا يعلم غيرهما أحد) وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد فى (خزانة المصريين) .

كان مولعاً باحترام العلماء فمن فضائله فيه أنه لما بلغه موت ابن المبارك جلس للعزاء فيه عن أهله وأمر الأعيان والأمراء أن يعزوه .

كان بكاء على نفسه يشفق من إسرافه وذنوبه فيما إذا وعظ . ولم ير أغزر دمعا منه

(١) طمرّ : ثوب خَلِق ورديْ .

عند الذكر . ولم يذكر له النبى إلا قال : صلى الله على سيدى .

دخل عليه ابن السماك يوما وكان يعظه فاستسقى الرشيد فأتى له بماء فقال له ابن السماك على رسلك يا أمير المؤمنين لو منعت هذه الشربة بكم تشتريها ! قال بنصف ملكى قال اشرب هنأك الله بها . فلما شربها قال أسالك لو منعت خروجها بماذا كنت تشترى خروجها قال بملكى قال إن ملكا قيمته (كذا) و (كذا) لجدير أن لا ينافس فيه فبكى الرشيد . وقال يوما لشيبان عظنى : قال لئن تصحب من يخوفك حتى يدركك الأمن خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتى يدركك الخوف . فقال الرشيد : فسر لى هذا قال : من يقول لك انك مسؤل عن الرعية فاتق الله أنصح لك ممن يقول أنتم أهل بيت مغفور لكم وأنتم قرابة نبيكم ﷺ .

كان كأنه جده المنصور هيبة وصلابة فى الملك وجبروتاً وشدة مع الحق كثير الكراهة للباطل متتبعاً للذنادقة طالباً لهم وكان القول بخلق القرآن شائعا فى عهده فما يظفر بأحد من أهل هذه الآراء حتى يقتص منه أشد القصاص .

كان شديد الاقتفاء لأعمال جده متطلباً للعمل بآثاره ومحاكاته فى أعماله وصيانة سرير ملكه وحفظ أبهته وزيه فلم يختلف عنه فى شئ إلا فى البذل والنوال لانه لم ير خليفة بذل ما بذله الرشيد فى العطايا من مال وخلع فكانت صلته تصل ما بين الإنسان وبين الغنى وتقطع ما بينه وبين الفقر والاحتياج .

ولى الخلافة بعد ما تنقل فى مهام أمورها فقد استعمله أبوه المهدى فى الأعمال وريضه عليها فجهزه مراراً للغزو بالصائفة (١) والايغال فى بلاد الروم وفى سنة ثلاث وستين ومائة ولاه المغرب كله وأزربيجان وأرمينية وجعل كاتبه ثابت بن موسى وعلى رسائله يحيى بن خالد فنشأ خير نشء وظهر بخير مظهر .

كان فى غرضه أن يوصل ما بين بحر الروم وبحر القلزم مما يلى الفرما (أى أن يفتح ترعة السويس) فشاوره وزيره يحيى وفكر طويلا فانكشف لهما تغول الروم فخافا من دخولهم بمراكبهم فى القلزم وقربهم من الأراضى المقدسة فنزعا عن هذا الفكر .

هذه نتائج خواطر وزراء الخير الذين يدركون قوة حكومتهم فلا يتورطون فى أمور لا قبل لهم بها ولا يغررون بأنفسهم لأنهم يعلمون معنى المسؤلية التى تحيط بمركزهم فلا

---

(١) الصائفة : الغزو صيفا .

يقدمون على شئ إلا ولهم منه مخرج ولو كان للناس وزير كيحيى لخفف من هذا البلاء النازل أو حده أو تلطف فلطف من قضائه المبرم وعاق امتداد الأيدى الأجنبية عن العبث فى هذه النواحى بدعوى الاستعمار الذى جاز حده البحار والقفار .

ازدهى عصره بين الأعصار بوجود كثير من العلماء الأعلام فيه كالإمام سيدنا مالك ابن أنس . والليث بن سعد . والكسائى وأسد الكوفى ومحمد بن الحسن من كبار أصحاب أبى حنيفة وصعصعة بن سلام عالم الأندلس وغيرهم ، وهذا أيضا من سعة رزق خلافته وإرادة الله سبحانه وتعالى له الخير ببطانة الخير والفلاح والنجاح الذين يتأسى بهم فى كل صلاح .

نقل شيئا كثيرا من عوائد الفرس منها الكرة والصولجان ورمى النشاب فى البرجاس والشطرنج ، وجعل لكل شئ قاعدة ومرتبة حتى المغنين فإنه أول من جعل لهم مراتب وطبقات يعرفون بها .

كانت بغداد فى عصره نادرة الدنيا ونكتة المدائن ، فريدة فى حضارتها وعمارتها ترقت فيها أسباب المدنية لدرجة لم ير مثلها كما قدمنا ذلك (فى النبذة التاريخية) فأيامها أعياد ، ولياليها أعراس ، وسلطانه الممتد سياجه عليها قد عظم من قدرها ونبه من ذكرها وهو بما أسبغه عليها من ظله الظليل وما منحها من العد والمساواة دعا الناس بلسان الأمن والأمان إلى المبادرة إليها بالمتاجر والعروض فتناهوا فى الطلب والإقدام على العمل بعلو الهمة وجلس للناس فى منصة عدله وعمهم برحمته فشمل القوى والضعيف والعاجز والعليل وذوى الحاجات ومن لا وسيلة لهم فأزاح عن جميعهم العلل وأبطل الأهواء وحجز بتدبيره عنهم كل آفة تؤدى للتقاعس والتقاعد والدمار والخراب .

أما غزوه وفتحه ، وحجه ، وفديته ، فكثير ، منه أنه فى سنة واحد وسبعين ومائة حارب الصحصح الخارجى بالجزيرة وقتله ؛ وفى سنة ثلاث وسبعين ومائة غزا الصائفة وحج بالناس وأحرم من بغداد . وفى سنة أربع وسبعين ومائة حج بالناس وقسم مالاً كثيراً ، وفى سنة ست وسبعين ومائة عقد لابنه محمد ولاية العهد ولقبه (الأمين) وأخذ له البيعة وعمره خمس سنين ثم فتح فى سنة ست وسبعين ومائة (مدينة دلسه) على يد الأمير عبد الرحمن ابن عبد الملك بن صالح العباسى وفى سنة واحد وثمانين ومائة غزا الرشيد أرض الروم فافتتح حصن الصفصاف وغزا عبد الملك بن صالح أرض الروم وبلغ أنقره .

ثم دخلت سنة اثنين وثمانين ومائة وفيها زلقت قدم الرشيد بيد القضاء والقدر وبايع لعبد الله ولده بولاية العهد بعد الأمين وولاه خراسان وما يتصل بها ولقبه (المأمون) وسلمه إلى جعفر بن يحيى (وهذا العمل منه يعد من أعجب العجب بعد ما جرب عواقبه فى نفسه ورأى ما صنعه أبوه وجده بعيسى بن موسى حتى خلع نفسه من ولاية العهد وبعد ما صنعه أخوه الهادى معه لخلعه من العهد وتولية ابنه جعفر ولو لم يعاجله الموت لفعل) ولكن نفذ قدر وضاع حذر .

ثم حج الرشيد بالناس بعدها فى سنة خمس وثمانين ومائة وسار إلى مكة من الأنبار وبدأ بالمدينة فأعطى فيها ثلاث أعطية . عطاؤه وعطاء الأمين وعطاء المأمون . ثم سار إلى مكة فأعطى أهلها أيضا . وولى الأمين العراق والشام إلى آخر المغرب . والمأمون همذان إلى آخر المشرق . وبايع ابنه (القاسم) بولاية العهد بعد المأمون ولقبه (المؤتمن) وضم إليه الجزيرة والثغور والعواصم وكتب كتابين بالأشهاد وعلقهما فى الكعبة فقال الناس قد القى بينهم شراً وحربا وخاقوا العاقبة وكان ما خافوه .

وفى سنة سبع وثمانين ومائة نقض ملك الروم الهدنة التى كانت بين المسلمين وبين الملكة (زينى) ملكة الروم فكتب للرشيد كتابا يقول فيه : « أما بعد فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ [1] وأقامت نفسها مقام البيدق [2] فحملت إليك من أموالها أحمالا لضعف النساء وحمقهن فإذا قرأت كتابى فاردد ما حصل قبلك من أموالها وإلا فالسيف بينى وبينك » فلما قرأ الرشيد كتابه كتب إليه : « قد قرأت كتابك والجواب ما ترى لا ما تسمع » وسار ليومه ولم يزل حتى نازله وفتح مدينة هرقل بالغزوة المشهورة ولم يتزحزح حتى بلغ مراده منه .

وفى هذه السنة كانت تمت للبرامكة مشاركتهم للرشيد فى سلطانه وعظم فى نظر الناس ما لهم من الآثار وبعد الصيت وكثر ما اختصوا به وعمروه من مراتب الدولة وخططها وما احتازوه عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة . وسيف وقلم . واقتصر عليهم الآمال وتخطت إليهم من أقصى التخوم ؟[3] والممالك هدايا الملوك وتحف الأمراء واستجار بهم العانى [4] والمعدم والمذنب فأجاروه فأهاجوا بذلك كامن الغيرة وسلطوا عليهم بأس الانتقام ومكنوا منهم جماعة الحساد (والدهر حرب « للمقام » العالى)

(١) الرخ : طائر ضخم خيالى .
(٢) البيدق : طائر صغير .
(٣) التخوم : الحدود .
(٤) العانى : الأسير .

ونعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال .

وقعت لهم النكبة المشهورة التى لهم فيها بمن قبلهم أسوة ولمن بعدهم عبرة . كانت دليلا جديدا على أن الدنيا دول والمال عارية نكبة أمسكت لسان المادح وقطعتْ لسان الحاسد . وبكاها الولى والمولى والعدو والجاحد . نكبة استراحت بعدها الوراد من قطع الفدافد [1] سعياً . وأقسم الجود أن لا يحى بعد يحيى ، ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ [2] .

ثم فادى الرشيد فى سنة تسع وثمانين ومائة ملك الروم حتى لم يبق فى الأسر مسلم وهو أول فداء كان لبنى العباس وفى سنة تسعين ومائة فتح « هرقلة » وبث جيوشه بأرض الروم وافتتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة . وافتتح يزيد بن مخلد (قلفونية) وفى سنة ثلاث وتسعين ومائة سار الرشيد نحو خراسان للغزو فوصل طوس فتمرض بها ومات فى « ثالث جمادى الآخر سنة ثلاث وتسعين ومائة (رحمه الله) وصلى عليه ابن صالح . مات على أشرف حال يرتجيه القائم على أمة شهيد الغربة شهيد الجهاد فارتفعت روحه الشريفة فى مراتب الشهداء تسبح فى ملكوت الله فى أعلى عليين . ثم أخذ رجاء الخادم والقضيب والخاتم وسار علي البريد فى اثنى عشر يوما من « مرو » حتى قدم بغداد فى نصف جمادى الآخرة ودفع ذلك للأمين .

وقد انقضت تلك السنون وأهلها   فكأنها وكأنهم أحلام

هذه سيرة الخليفة الخامس من بنى العباس طالت ولم نستوف شطراً من فضائله . والقصاص ومن لا بصيرة لهم من الكتاب ينسبون إليه أشياء فى اللهو واللذات المحظورة الله يعلم أنه برئ منها . وأنى ذلك وهو من العلم والسذاجة واجتناب المذمومات فى دينه ودنياه والتخلق بالمحامد وأوصاف الكمال ونزعات العرب بمرتبة تشبه مراتب السلف وحاله فى اجتناب الخمر معلومه لجميع بطانته وأهل مائدته وكفى بتغيره على طبيبه بختيشوع دليلا على ذلك .

وكيف يعقل أن الرشيد يواقع محرماً وقرناؤه وجلساؤه مثل الفضيل بن عياض وابن السماك والعمرى . ومكاتبته سفيان الثورى وبكاؤه من مواعظهم ودعاؤه بمكة فى طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأول وقتها .

---

(١) الفدافد : المسافات أو الأصوات .   (٢) ق : ٣٧ .

إن الرشيد رحمه اللّه أجل من أن يرتكب السرف والترف فى ملبسه وزينته وسائر متناولاته لقربه من خشونة البداوة وسذاجة الدين فاللّه يقتص له وللمكذوب عليهم من أمثاله من القصاص الذين دونوا ما دونوا عنهم فرية وكذبا وزوراً وبهتانا إرضاء لجماعة العجزة الذين لا شغل لهم إلا أحاديث النميمة وأكل لحم إخوانهم كأنما هم أعداء للعلم والدين والسلطان .

ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم

المأمــون

هو عبد الله أبو العباس ابن الرشيد بويع له وهو ابن ثمان وعشرين سنة ومات سنة ثماني عشرة ومائتين وعمره ٤٩ سنة واستقل بالأمر بعد قتل أخيه الأمين سنة ١٩٨هـ وهو بخراسان واكتنى بأبي جعفر . قال الصولي وكانوا يحبون هذه الكنية لأنها كنية المنصور وكان لها في نفوسهم جلالة وتفاؤل بطول عمر من كني بها كالمنصور والرشيد .

ولما تأتي الملك للمأمون قال : هذا جسيم . لولا أنه عديم . وملك . لولا أنه هلك . وسرور لولا أنه غرور . ويوم . ولو كان يوثق بما بعده سمع الحديث من أبيه وعباد بن العوام وأبي معاوية الضرير وغيرهم وأدبه اليزيدي وجمع من الفقهاء والأدباء حتى برع في الفقه والعربية وأيام الناس وعني بالفلسفة وعلوم الأوائل وهو الذي استخرج كتاب إقليدس وأمر بترجمته وتفصيله وهو الذي عقدت في زمانه مجالس المناظرة . خصص لها يوم الثلاثاء من كل أسبوع وترقت العلوم في عهده وتفشت بين العرب . وهو أول من قاس الدرجة الأرضية وعرف مقدارها وأخذ من كل العلوم بقسط وضرب فيها بهم .

وأخرج محمد بن عباد أنه لم يحفظ القرآن أحد من الخلفاء إلا عثمان بن عفان والمأمون (ولكن في هذا نظر) .

اشتغل بالحديث حتى قالوا أن الرشيد لما حج معه طلب المحدثين فبعث إليهم بالأمين والمأمون فحدثوهما مائة حديث ثم قال المأمون أيؤذن لي أن أعيدها من حفظي ؟ قيل نعم فأعادها . وهو أول من استخرج كتب الفلاسفة واليونان من جزيزة قبرص وهو الذي قال « لانزهة في الدنيا ألذ في عقول الرجال » .

كان المأمون أفضل رجال بني العباس حزما . وعزما وحلما . وعلما ورأيا . ودهاء وهيبة وشجاعة . وسوددا . وسماحة وله فضائل وسيرة طويلة كلها محاسن .

كان أمارا بالعدل فقيه النفس معدوداً من كبار العلماء اجتهد في رأب الصدوع وسد الفتوق وإصلاح ما تشعث من بنيان الدولة ولكن الخلاف بينه وبين الأمين أخيه اشتعلت نيرانه وأذكيت تنوره بأيدي بطانة السوء بالسعي والإغراء وزيادة الوحشة إبقاء على

أنفسهم وحياتهم الشخصية كالفضل بن الربيع وعيسى بن ماهان والسندى وغيرهم . أفسدوا دم الأخوة حتى رضى الأمين بخلع أخيه المأمون وتغيظ المأمون حتى استحل قتل أخيه الأمين وكل هذا سببه هذه البطانة التى ما زالت تصغر للأمين من أمر أخيه وتزين له خلعه حتى رجع إلى رأيهم وهم يكذبونه ويغشونه ولا يصدقونه وهكذا بطانة السوء فى كل وقت وزمان ليس لها شغل إلا فساد ذات البين وتغير قلب التابع والمتبوع خدمة لمصالحهم الشخصية .

استدعت هذه المبادئ التى زرعت بدورها بيد الأعداء أن لا تصفو الأيام للمأمون كما يحب ويختار لكثرة الخارجين عليه كابن طباطبا العلوى بالكوفة الذى سالت الدماء فى فتنته أنهارا . وإبراهيم بن موسى باليمن . وثوار بغداد الذين أذى فساقهم على الناس حتى قطعوا الطريق وأخذوا النساء والصبيان علانية كأن الأمين فتح للناس باب الخلاف ونقض العهد وكأن المأمون جرأ الناس على خلعه بخلع أخيه وقتله وعلمهم نكث العهد والبيعة فكان ذلك سببا لكثرة خروج الثوار عليه . كان لله فى ذلك حكمة عجيبة وسراً فى خليقته من يظلم يظلم . حتى لا ينتقض متبوع على تابع ولا تابع على متبوع حفظاً للعهد ورعاية للبيعة واستكمالا لأسلوب نظام الحكومة التى منزلة القائم بها (خليفة الله فى أرضه) .

رأى المأمون كثرة الثوار عليه وخروج الكثير بدعوى الخلافة وهم من آل البيت فعمد إلى على الرضا بن موسى الكاظم جعفر وجعل فيه ولاية عن المسلمين فكان كما قال الشاعر (كلما داويت جرحا سال جرح) . نبض فى بنى العباس عرق الخلاف فصعب عليهم الأمر وخلعوا المأمون ولولا اتفاق الموت على بن موسى الرضي لازدادت هذه الفتن واشتد أمرها وكل هذا نتيجة وجود الدخلاء من غير الملة والأمة الذين لا يعنيهم إلا شؤونهم الشخصية فى كل وقت .

يعجب الإنسان من شأن الخلافة العباسية وبدأ انحطاطها فى عهد أعظم خلفائها (المأمون) الذى كان فى طاقته وقدرته لعلمه وسعة اطلاعه أن يجمع كلمة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ويمنع حبلهم من الاضطراب وأطرافهم من الانتقاض وان يتغلب بحزمه وعزمه على كل هرج وفتنة وتنازع ولكنها آية من آيات الله سبحانه وتعالى ينذر الناس بها ليعلموا قوة الدخلاء فى الفساد وفى تفويض أمر المسلمين ومنع الساسة من تأييد سلطانهم من شدة الفتنة التى يدخلونها عليهم .

كان المأمون لعلو همته يحب الوقوف على أحوال رعاياه بنفسه فكان كثير التنقل من إقليم إلى آخر فجال فى بلاد الشام وتفرج على آثارها ودخل مصر ورأى عجائب مبانيها (وهو الذى فتح الفتحة الموجودة الآن بالهرم الأكبر) .

انتقل المأمون إلى بغداد فانقطعت بقدومه الفتن وفر أصحاب الفساد وشرع المأمون فى فعل ما يؤثر عنه من جميل الفعال والعناية بالعلوم والمعارف ومعاشرة العلماء والأدباء ثم أخذ فى غزو بلاد الروم والثغور وغنم فيها وفتحها سار سنة اثنتى عشرة ومائتين أسد بن الفرات قاضى القروان وهو من أصحاب مالك وهو مصنف (الأسدية) فى مذهبه بجيش فى البحر قاصدا جزيرة (صقلية) فلما وصلوها ملكوا كثيرا من سواحلها واستولوا على مدينة (سرقوسه) وافتتحوا عمرانا كثيرة حولها وفى هذه الحادثة ظهرت شدة المسلمين وقوتهم . فإنه فى أثناء ذلك وصل أسطول من القسطنطينية فيه جمع كثير وقد حل بالمسلمين وباء شديد ومات أميرهم فرأوا أن يسيروا بمراكبهم فوقف لهم الروم على باب المرسى فلما تضايقوا جمعوا أمرهم وأحرقوا المراكب وعادوا للبلاد فحاصروها واستلموا حصنها وحصنا آخر اسمه (جرجنت) ومدينة (قصريانه) ثم استمرت الغزوات ووصلت مراكب كثيرة من إفريقيا فيها المدد للمسلمين وساروا إلى ثغر (بالبرم) ثم ساروا إلى جبل النار والحصون التى فى تلك الناحية وهم فى كل ذلك غانمون .

وحج المأمون بالناس سنين عديدة

ثم دخلت سنة عشر ومائتين فسار المأمون إلى بلاد الروم من طريق انطاكيا وافتتح حصن (قرة) عنوة ونحوا من ثلاثين حصنا أخرى .

وكان المأمون كريما ينفق إنفاق من لا يخاف الفقر وحسبك أنه لما ابتنى (بوران) كانت عطياته رقاعا فيها أسماء ضياع فكل من سقطت فى يده ورقة أخذ الضيعة المكتوب اسمها فيها .

كان غاية فى كل علم : أخرج محمد بن أبى حفص الأنماطى قال تغدينا مع المأمون مرة فوضع على المائدة أكثر من ثلاثمائة لون وكلما وضع لون قال هذا نافع لكذا ضار لكذا من كان منكم صاحب دم فليجتنب هذا ومن كان منكم صاحب صفراء فليأكل من هذا وهكذا حتى أتى على فوائد جميع أنواع الطعام ومضارها بالنسبة لأصحاب الأمزجة على اختلاف أنواعها .

ومن أغرب ما يؤثر عنه فى الذكاء المفرط أن امرأة شكت إليه فقالت يا أمير المؤمنين مات أخى فخلف ستمائة دينار فحكم لى القاضى بدينار واحد . فقال لها المأمون هذا نصيبك . قالت وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال الرجل خلف ابنتين ووالدة وزوجة واثنى عشر أخا قالت نعم قال فللبنتين الثلثان أربعمائة . وللوالدة السدس وللزوجة الثمن . خمسة وسبعون ولكل أخ ديناران ولك دينار .

كان مع جالينوس فى معرفة النجوم ومع هرمز فى الحساب . ومع على بن أبى طالب فى الفقه . فكان يفضل الناس بعقله وكماله ويسود عليهم تأدبه وحسن مجاملته . أخرج الخطيب عن يحيى بن أكثم قال بت عند المأمون ليلة فأخذه سعال فأخذ يسد فاه بكم قميصه حتى لا أنتبه . وكان فيه رفق بخدمه وخاصته . قال عبد السلام بن صالح بت عند المأمون ليلة فنام القيم الذى يصلح السراج فطفئ فقام المأمون وأصلحه . وقال الصولى كنا فى السفر مع المأمون فكان يتفقدنا فى الليل ويغطينا .

ومن كلامه : ما أقبح اللجاجة والضجر من القضاة : والسخافة بالفقهاء والبخل بالأغنياء . والمزاح بالشيوخ . والكسل بالشباب . والجبن بالمقاتل .

وكان يحب لعب الشطرنج ويقول إنه يشحذ الذهن

وكان يقول ما فتق على فى الخلافة فتق إلا وجدت سببه جور العمال (ولقد صدق المأمون فإن العمال أيدى الملك وآذانه الذين بهم تدار الأمور في الجهات القاصية البعيدة وتسمع بهم الشكوى فإن لم يكونوا متفقين على تقوى اللّه عاملين بأحسن السير غير غافلين عن أمر الرعية شيئاً نزلت بساحتهم المفاسد وتجردت عليهم الأعداء وذهبوا وذهبت الجهات العاملين عليها من قبضته الحكومة وتولى أمرها وفى السودان المصرى عبرة لمعتبر فضلا عن الجزر والأماكن والنواحى والبلاد التى كانت للإسلام وضاعت بهذا السبب) .

ومن حكمه قوله : الناس ثلاثة : غذاء لابد منه ، ودواء يحتاج إليه فى حال المرض ، وداء مكروه علي كل حال .

وله الخطب البليغة والفقر الغريبة ومن ذلك : أعيت الحيلة فى الأمر إذا أقبل أن يدبر وإذا أدبر أن يقبل . وكان يقول : معاوية بعمره وعبد الملك بن مروان بجحجاحه وأنا بنفسى . وكان كما قال عنه الرشيد : فيه جزم المنصور ونسك المهدى وعزة الهادى .

ثم دخلت سنة ثمانية عشر ومائتين فمرض فيها المأمون لثلاث عشرة خلت من

جمادى الآخرة بعلة الحمى فأمر أن يكتب إلى البلاد بالوصية والبيعة لأخيه المعتصم ثم أوصاه وصية لم يفلت منها شيئاً من وجوه الخير فمن بعض ما جاء فيها : « يا أبا إسحق « كنية المعتصم » ادن منى واتعظ بما ترى وخذ بسيرة أخيك واعمل فى الخلافة إذ طوقكها الله عمل المريد له الخائف من عقابه وعذابه » ومنها « خذ من أقويائهم لضعفائهم ولا تحمل عليهم فى شئ وانصف بعضهم من بعض وتأن بهم ولا تعجل » ومنها » يا أبا إسحاق عهد الله وميثاقه وذمة رسوله لتقومن بحق الله فى عباده ولتؤثرن طاعته على معصيته : ﴿ **اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾[1] وهى طويلة ثم مات بالبذندون من أرض الروم ونقل الى طرسوس فدفن بها .

قال الثعالبى ولا يعرف أب وابن من الخلفاء أبعد قبراً من الرشيد والمأمون ذاك (بطوس) وهذا (بطرسوس) .

راعى المأمون مصلحة السلطان مراعاة من يريد أن يستقيم له الملك مع الاستطالة ونظر للمصالح العامة نظر السائس الذى يريد أن يحمل كل رعيته على الاجتماع على الرضى بأحكامه من مسلم وكافر حسبما تقتضيه الشريعة الإسلامية . ويجعل المعاند لها مقراً ومعترفا بأن قوانينها مجتمعة من الأحكام الشرعية والآداب الخلقية والقوانين الاجتماعية الطبيعية بمراعاة ما يلزم من أصول الشوكة والسلطان الملازمين لأحكام الشرع الشريف فهى أرقى من حكم الحكماء وأدب الأدباء ووصفيات من فاق ممن فات من أصحاب القوانين والدساتير ولذلك كان من أكبر همه انتقاء الرجال الذين استنابهم عنه فى أعماله كلها .

حاشا لله أن نترك خبر هذ الخصلة الشريفة يمر على الأسماع من غير حكاية مفيدة . وشاردة مثبوتة . تنبئ عن فضيلة الوالى والموالى عليه بعد أن يسر الله لنا الكتاب الذى كتبه طاهر بن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصرفاته كتاب جمع الوصية بجميع ما يحتاج إليه العامل بل السلطان فى دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية وحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة . وهذا نص الكتاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

« أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته عز وجل ومزايلة

(١) آل عمران : ١٠٢ .

سخطه واحفظ رعيتك في الليل والنهار والزم ما ألبسك اللّه من العافية بالذكر لمعادك وما أنت صائر إليه وموقوف عليه ومسئول عنه والعمل في ذلك كله بما يعصمك اللّه عز وجل وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه .

فإن اللّه سبحانه قد أحسن إليك وأوجب الرأفة عليك بمن استرعاك أمرهم من عباده وألزمك العدل فيهم بحقه وحدوده عليهم والذب عنهم والدفع عن حريمهم ومنصبهم والحقن لدمائهم والأمن لسربهم وإدخال الراحة عليهم ومؤاخذك بما فرض عليك وموقفك عليه وسائلك عنه ومثيبك عليه بما قدمت وأجرت ففرغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك ولا يشغلك عنه شاغل وأنه رأس أمرك وملاك شأنك .

وأول ما يوقفك اللّه عليه وليكن أول ما تلزم به نفسك . وتنسب إليه فعلك . المواظبة على ما فرض اللّه عز وجل عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك وتوابعها على سننها من اسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر اللّه عز وجل ورتل فى قراءتك وتمكن فى ركوعك وسجودك وتشهدك ولتصرف فيه رأيك ونيتك واحضض عليه جماعة ممن معك وتحت يدك وادأب عليها فإنها كما قال اللّه عز وجل تنهى عن الفحشاء والمنكر .

ثم أتبع بالأخذ بسنن رسول اللّه ﷺ والمثابرة على خلائقه واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده .

وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة اللّه عز وجل وتقواه وبلزوم ما أنزل اللّه عز وجل فى كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه وائتمام ما جاءت به الآثار عن رسول اللّه ﷺ ثم قم فيه بالحق للّه عز وجل ولا تميلن عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو لبعيد .

وآثر الفقه وأهله والدين وحملته وكتاب اللّه عز وجل والعاملين به فإن أفضل ما يتزين به المرء الفقه فى الدين والطلب له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به إلى اللّه عز وجل فإنه الدليل على الخير كله والقائد إليه والآمر به والناهى عن المعاصى والموبقات كلها ومع توفيق اللّه عز وجل يزداد المرء معرفة وإجلالا له ودركا لدرجات العلى في المعاد مع ما فى ظهوره للناس من التوقير لأمرك والهيبة لسلطانك والأنسة بك والثقة بعد لك .

وعليك بالاقتصاد فى الأمور كلها فليس شئ أبين نفعا ولا أخص أمناً ولا أجمع فضلا منه والقصد داعية إلى الرشد والرشد دليل على التوفيق والتوفيق قائد إلى السعادة وقوام

الدين والسنن الهادية بالاقتصاد وكذا فى دنياك كلها .

ولا تقصر فى طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد والإعانة والاستكثار من البر والسعى له إذا كان يطلب به وجه اللّه تعالى ومرضاته ومرافقة أولياء اللّه فى دار كرامته . أما تعلم أن القصد فى شأن الدنيا يورث العز ويمحص من الذنوب وإنك لن تحوط نفسك من قائل ولا تنصلح أمورك بأفضل منه فأته واهتد به تتم أمورك وتزيد مقدرتك ويصلح عامتك وخاصتك وأحسن ظنك باللّه عز وجل تستقيم لك رعيتك والتمس الوسيلة إليه فى الأمور كلها تستدم به النعمة عليك .

ولا تتهمن أحدا من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره فإن إيقاع التهم بالبرآء والظنون السيئة بهم آثم آثم . فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم يعينك ذلك على استطاعتهم ورياضتهم ولا تتخطن عدو اللّه الشيطان فى أمرك معمداً فإنه إنما يكتفى بالقليل من وهنك ويدخل عليك من الغم بسوء الظن بهم ما ينغص لذاذة عيشك واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة وتكتفى به ما أحببت كفايته من أمورك وتدعو به الناس إلى محبتك والاستقامة فى الأمور كلها ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك والمباشرة لأمور الأولياء وحياطة الرعية والنظر فى حوائجهم وحمل مؤوناتهم أيسر عندك مما سوى ذلك فإنه أقوم للدين وأحيا للسنة .

وأخلص نيتك في جميع هذا وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسئول عما صنع ومجزى بما أساء فان اللّه عز وجل جعل الدنيا حرزاً وعزاً ورفع من اتبعه وعززه .

واسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقه الأهدى وأقم حدود اللّه تعالى فى أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ولا تعطل ذلك ولا تتهاون به ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة فإن فى تفريطك في ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك واعتزم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتتم لك مروءتك .

وإذا عاهدت عهداً فأوف به وإذا وعدت الخير فأنجزه وأقبل الحسنة وادفع بها واغمض عن عيب كل ذى عيب من رعيتك واشدد لسانك عن قول الكذب والزور وابغض أهل النميمة فإن أول فساد أمورك فى عاجلها وآجلها تقريب الكذوب والجرأة على الكذب لأن الكذب رأس المآثم والزور والنميمة خاتمها لأن النميمة لا يسلم صاحبها

وقائلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم له أمر .

واحبب أهل الصلاح والصدق وأعن الأشراف بالحق وأعن الضعفاء وصل الرحم وابتغ بذلك وجه اللّه تعالى وإعزازه أمره والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة .

واجتنب سوء الاهواء والجور واصرف عنهما رأيك واظهر براءتك من ذلك لرعيتك وانعم بالعدل سياستهم وقم بالحق فيهم وبالمعرفة التى تنتهى بك إلى سبيل الهدى .

واملك نفسك عند الغضب وآثر الحلم والوقار وإياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله .

وإياك أن تقول أنا مسلم أفعل ما أشاء فإن ذلك سريع إلى نقص الرأى وقلة اليقين للّه عز وجل واخلص للّه وحده النية فيه واليقين .

واعلم أن الملك للّه سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ولن تجد تغير النعمة وحلول النقمة إلى أحد أسرع منه إلى جهلة النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط لهم في الدولة إذا كفروا نعم اللّه وإحسانه واستطالوا بما أعطاهم اللّه عز وجل من فضله .

ودع عنك شره نفسك ولتكن ذخائرك وكنوزك التى تدخر وتكنز البر والتقوى واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والتفقد لأمورهم والحفظ لدمائهم والإغاثة لملهوفهم .

واعلم أن الأموال إذا اكتنزت وادخرت فى الخزائن لا تنمو وإذا كانت فى صلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف الأذية عنهم نمت وزكت وصلحت به العامة وترتبت به الولاية وطاب به الزمان واعتقد فيه العز والمنفعة فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال فى عمارة الإسلام وأهله ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم وأوف من ذلك حصصهم وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم فإنك إذا فعلت قرت النعمة لك واستوجبت المزيد من اللّه تعالى وكنت بذلك على جباية أموال رعيتك وخراجك أقدر وكان الجمع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك .

وطب نفسا بكل ما أردت واجهد نفسك فيما حددت لك فى هذا الباب وليعظم حقك فيه وإنما يبقى من المال ما أنفق فى سبيل اللّه وفى سبيل حقه واعرف للشاكرين حقهم وأثبهم عليه وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتهاون بما يحق عليك فإن التهاون يورث التفريط والتفريط يورث البوار .

وليكن عملك لله عز وجل وفيه وارج الثواب فإن الله سبحانه قد أسبغ عليك فضله .

واعتصم بالشكر وعليه فاعتمد يزدك الله خيراً وإحسانا فإن الله عز وجل يكتب بقدر شكر الشاكرين وإحسان المحسنين . ولا تحقرن ذنباً ولا تمالئن حاسداً ولا ترحمن فاجراً ولا تصلن كفوراً ولا تداهنن عدواً ولا تصدقن نماما ولا تأمنن عدواً ولا توالين فاسقاً ولا تتبعن غاوياً ولا تحمدن مرائيا ولا تحقرن إنسانا ولا تردن سائلا فقيراً ولا تحسنن باطلا ولا تلاحظن مضحكا ولا تخالفن وعداً ولا تذهبن فخراً ولا تظهرن غضبا ولا تباينن رجاء ولا تمشين مرحا ولا تذكين سفيها ولا تفرطن فى طلب الآخرة ولا ترفع للنمام عينا ولا تغمض عن ظالم رهبة منه أو محاباة ولا تطلبن ثواب الآخرة فى الدنيا .

وأكثر مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك بالحلم وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ولا تدخلن فى مشورتك أهل الرفه والبخل ولا تسمعن لهم قولا فان ضررهم أكثر من نفعهم .

وليس شئ أسرع فسادا لما استقبلت فيه أمر رعيتك من الشح واعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ قليل العطية وإذا كنت كذلك لم يستقم أمرك إلا قليلا فإن رعيتك إنما تعتقد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عليهم.

ووال من صفا لك من أوليائك بالاتصال إليهم وحسن العطية لهم واجتنب الشح واعلم أنه أول ما عصى به الإنسان ربه وأن العاصى بمنزلة الحرى وهو قول الله عز وجل ﴿ **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ [1] فسهل طريق الجود بالحق .

واجعل للمسلمين فى بيتك حظا ونصيبا وأيقن أن الجود أفضل أعمال العباد فأعده لنفسك خلقاً وارض به عملا ومذهبا وتفقد الجند فى دواوينهم ومكاتيبهم وادر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم فى معايشهم يذهب الله عز وجل بذلك فاقتهم فيقوى لك أمرهم وتزيد قلوبهم فى طاعتك وأمرك خلوصا وانشراحا .

وحسب ذى السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة فى عدله وعطيته وانصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته فذلك مكروه أحد البابين باستشعار فضله الباب الآخر ولزوم العمل به تلق إن شاء الله تعالى به نجاحا وصلاحا وفلاحا .

---

(١) الحشر : ٩ .

واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذى ليس له به شئ من الأمور لأنه ميزان الله الذى يعدل عليه أحوال الناس فى الأرض وبإقامة العدل فى القضاء والعمل تصلح أحوال الرعية وتأمن السبل وينتصف المظلوم وتأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ويؤدى حق الطاعة ويرزق من الله العافية والسلامة ويقيم الدين ويجرى السنن والشرائع فى مجاريها .

واشتد في أمر الله عز وجل وتورع عن النطق وامض لإقامة الحدود واقلل العجلة وابعد عن الضجر والقلق واقنع بالقسم وانتفع بتجربتك وانتبه فى صحتك واسدد فى منطقك وانصف الخصم وقف عند الشبهة وابلغ فى الحجة ولا يأخذك فى أحد من رعيتك محاباة ولا مجاملة ولا لومة لائم وتثبت وتأن وراقب وانظر وتفكر وتدبر واعتبر وتواضع لربك وارفق بجميع الرعية وسلط الحق على نفسك ولا تسرعن إلى سفك الدماء فإن الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم انتهاكا لها بغير حقها .

وانظر هذا الخراج الذى استقامت عليه الرعية وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة ولأهله توسعة ومنعة ولعدوه كبتا وغيظاً ولأهل الكفر من معاديهم ذلا وصغارا فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم ولا تدفعن شيئا منه عن شريف لشرفه ولا عن غنى لغناه ولا عن كاتب لك ولا لأحد من خاصتك ولا حاشيتك ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ولا تكلف أمرا فيه شطط واحمل الناس كلهم على أمر الحق فإن ذلك أجمع لألفتهم والزم إرضاء العامة .

واعلم أنك جعلت بولايتك خازنا وحافظًا وراعيًا وإنما سمى أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيمهم فخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ونفذه فى قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم (١) واستعمل عليهم أولى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم والعدل بالسياسة والعفاف ووسع عليهم فى الرزق فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند اليك فلا يشغلك عنه شاغل ولا تصرفك عنه صارف فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن الأحدوثة فى عملك واستجررت به المحبة من رعيتك وأعنت على الصلاح فدرت الخيرات ببلدك وفشت العمارة بناحيتك وظهر الخصب فى « كورك (٢) وكثر خراجك وتوفرت أموالك وقويت بذلك على ارتباط جندك وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك وكنت محمود السياسة مرضى العدل فى ذلك عند عدوك وكنت فى أمورك كلها ذا عدل وآلة وقوة وعدة فتنافس فيها ولا تقدم

(١) أودهم : أعوجهم .

(٢) كورك : مدنك .

عليها شيئاً تحمد عاقبة أمرك إن شاء الله تعالى .

واجعل فى كل كورة من عملك أميناً يخبرك خبر عمالك ويكتب إليك بسيرهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل فى عمله معايناً لأموره كلها وإذا أردت أن تأمرهم بأمر فانظر فى عواقب ما أردت من ذلك فإن رأيت السلامة فيه والعافية ورجوت فيه حسن الدفاع والصنع فامضه وإلا فتوقف عنه وراجع أهل البصر والعلم به ثم خذ فيه عدته فانه ربما نظر الرجل فى أمره وقد أتاه على ما يهوى فاغواه ذلك وأعجبه فإن لم ينظر فى عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره فاستعمل الحزم فى كل ما أردت وباشره بعد عون الله عز وجل بالقوة وأكثر من استخارة ربك فى جميع أمورك وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره وأكثر مباشرته بنفسك فإن لغد أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت .

واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه فإذا أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيشغلك ذلك حتى ترضى منه وإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت بدنك ونفسك وتستيقن أمر سلطانك وانظر أحرار الناس وذوى الفضل منهم ممن بلوت صفاء طويتهم وشهدت مودتهم لك ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك فاستخلصهم وأحسن إليهم وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة واحتمل مؤنتهم واصلح حالهم حتى لا يجدوا لخلتهم مسافرا وافرد نفسك بالنظر فى أمور الفقراء والمساكين ومن لايقدر على رفع مظلمته إليك والمحتقر الذى لا علم له بطلب حقه فسل عنه أخفى مسئلة وكل بأمثاله أهل الصلاح فى رعيتك ومرهم برفع حوائجهم وخلالهم لتنظر فيما يصلح الله به أمرهم وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم واجعل لهم أرزاقا من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين أعزه الله تعالى فى العطف عليهم والصلة لهم ليصلح الله بذلك عيشهم ويرزقك به بركة وزيادة وأجر للأمراء من بيت المال وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لاكثره فى الجرائد على غيرهم وانصب لمرضى المسلمين دوراً تأويهم وقواما يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم واسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك إلى سرف فى بيت المال .

واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وفضل أمانتهم لم تبرمهم وربما تبرم المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه ويشغل ذكره وفكره منها ما ينال به مؤونة ومشقة وليس من يرغب فى العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب الآجل كالذى يستقرى ما يقربه إلى الله تعالى ويلتمس رحمته . وأكثر الآذان للناس عليك وأرهم وجهك وسكن حراسك واخفض لهم جناحك واظهر لهم بشرك ولن لهم فى المسئلة والنطق واعطف

عليهم بجودك وفضلك واذا اعطيت فاعط بسماحة وطيب نفس والتماس للثواب والأجر من غير تكدير ولا امتنان فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء اللّه تعالى .

واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى قبلك من أهل السلطان والرياسة فى القرون الخالية والأمم البائدة . ثم اعتصم فى أحوالك كلها باللّه سبحانه وتعالى والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته وبإقامة دينه وكتابه واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط اللّه عز وجل واعرف ما تجمع عمالك من الأموال ما ينفقون منها ولا تجمع حراما ولا تنفق إسرافًا وأكثر مجالسة العلماء ومشورتهم ومخالطتهم وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها وإيثار مكارم الأخلاق ومقالتها وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيباً لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك فى ستر وإعلامك بما فيه من النقص فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك لك وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك فوقت لكل رجل منهم فى كل يوم وقتا يدخل فيه بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عمالك وأمور الدولة ورعيتك ثم فرغ لما يورد عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك وكرر النظر فيه والتدبير له فما كان موافقا للحق والحزم فامضه واستخر اللّه عز وجل فيه ، وما كان مخالفا لذلك فاصرفه إلى المسئلة عنه والتثبت ولا تمنن على رعيتك ولا غيرهم بمعروف تؤتيه إليهم ولا تقبل من أحد إلا الوفاء والاستقامة والعون فى أمور المسلمين ولا تضعن المعروف إلا على ذلك . وتفهم كتابى إليك . وامعن النظر فيه والعمل به واستعن باللّه على جميع أمورك واستخره فإن اللّه عز وجل مع الصلاح وأهله وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان للّه عز وجل رضا ولدينه نظاما ولأهله عزاً وتمكينا وللملة والذمة عدلا وصلاحا وأنا أسئل اللّه عز وجل أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك والسلام » .

إذا افتخرت بالأبناء الآباء وازدهت المنابر بالخلفاء فالمأمون سيد النجباء ورئيس الحكماء وزين العلم والعلماء ولكن انشقت العائلة الحاكمة على نفسها وتولت هذا الشقاق يد الأعداء فما لبثت هذه الحالة أن استعصى علاجها على الحكماء والأمراء والقادة وفتح باب للشر كان مغلقاً وكل هذه الحوادث ضربها اللّه مثلاً للعظة والاعتبار ليأخذ كل قائم منها بنصيب ويضرب فيها بسهم ويتقى اللّه فى نفسه وفى رعيته ويجعل هذه الحوادث بمنزلة المدارس والواعظ له ليقول الإنسان عنها على سبيل التعزية : « إن كانت أساءت قوما فلقد انتفع بها قوم آخرون » فحال الكثير من هذه الحال قريب والعاقل من اعتبر بغيره وقاس يومه على ماضيه . ونظر إلى الدنيا وقرأ عظات الدهر فى صفحات

أيامه فإنها الجريدة الباقية على ممر الأزمان التى لا تمحو سطورها يد الحدثان ولا يبليها مر الجديدين[1] .

(١) الجديدين : الليل والنهار .

المعتصم بالله

هو أبو إسحق محمد بن الرشيد ولد سنة ثمان وسبعين . كان ذا شجاعة وقوة وهمة وكان يقال له (المثمن) لأنه ثامن الخلفاء من بنى العباس . ثامن ولد للعباس . ثامن أولاد الرشيد . وملك سنة ثمان عشرة . واستمر فى ملكه ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام وعاش ثمانياً وأربعين سنة . وفتح ثمانية فتوح . وأسر ثمانية ملوك وخلف ثمانية أولاد وثمانية إناث .

كانت قلوب الجنود أشربت الخلاف بما شهدوه من الوقائع بين الأمين والمأمون أزمان كانوا يساقون للعصيان لقضاء وطر النفوس الشريرة الخارجة على القائم بالخلافة فتأصلت فى النفوس حاجات وفى الطباع خصال لا ينبغى أن تلامس قلب الجنود المطلوب منهم الطاعة والانقياد لأميرهم .

بويع للمعتصم فتشعب الجند عليه ونادوا باسم العباس بن المأمون وأخذوا يطرقون الباب الذى دلهم عليه أمراؤهم من قبل فأرسل المعتصم إلى العباس وأحضره فبايعه ثم خرج العباس إلى الجند وقال لهم قد بايعت عمى فسكتوا وانصرف المعتصم إلى بغداد ومعه العباس بن المأمون .

قال ابن المقفع : « إن الذى يصول على أعدائه بجيش لا يعلم دواخل صدورهم يكون مثله كمثل راكب الأسد : الناس تراه فتوجل منه وراكب الأسد أشد وجلا » لذلك اضطر المعتصم أن يستخدم نحواً من خمسين ألفا من التركمان مخافة أن توقع به الجنود واتخذ منهم لنفسه حراسا وولاهم محافظة الثغور والحدود فكانوا يزدادون يوما عن يوم حتى كانت القوة بأيديهم في عهد الخلفاء من بعده كما ستقف عليه إن شاء الله .

من أجل هذا حكم جماعة من المؤرخين بأن الخلافة العباسية انتهت بالمعتصم .

إذا كان حكمُ المؤرخين على الدولة العباسية بالانتهاء كان لمجرد استخدامها جنداً غير العرب فبماذا تحكم على أمة من المسلمين رضخت لغيرهم وتمثلت بهم وهم يخالفونها فى كل مذهب وزادت بها السماجة حتى أصبحت تعتقد أن التشبه بهم فلاح ﴿ **إن فى ذلك**

لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ [1] .

كان المعتصم طيب الأخلاق سديد الرأى قويا ذا نجدة وهمة . يروى عنه أنه بلغه أن نيوفيل ملك الروم خرج وأغار على بلاد الإسلام وأن امرأة هاشمية صاحت وهى فى أيدى جنده : « وامعتصماه ! » فأجابها وهو جاس على سرير ملكه « لبيك لبيك !! » وقام من ساعته ناهضاً وجمع من وقته جيشاً لم يماثله فيه أحد عددا وعدةً .

وأوقف ما يملكه من الضياع ثلثاً لولده وثلثاً لله تعالى وثلثا لمواليه وقصد مدينة (عموريه) وهى أشرف لدى الروم من القسطنطينية ولم يتعرض لها أحد منذ كان الإسلام فوصلها وجرى بين المسلمين والروم عليها قتال شديد .

استولى المسلمون على المدينة المذكورة ومنحهم الله النصر العظيم وأراد المعتصم المسير بعد هذا النصر إلى القسطنطينية والنزول على خليجها والحيلة فى فتحها براً وبحراً فأتاه ما أزعجه وأزاله عما كان عزم عليه وذلك أن العباس بن المأمون اجتمع عليه بعض أناس وأغروه وبايعوه وأنه كاتب طاغية الروم فأعجل المعتصم فى مسيره حتى يدفع عنه هذه الفتنة الداخلية . وهكذا أهل السوء تنتهز مثل هذه الأوقات التى يتفرغ فيها القائم لعمل عظيم وتقف أمامه بالفتن والمفاسد وتسد طريق سعادتها الدنيوية والخروية فتتخالف فى موضع الاتفاق وتتقاتل فى ساعة التناصر وتتناهب فى أوقات المناصفة وتدعوها خلال السوء لأن تستعد للوثبة عند عدم الحاجة إليها . وهذه الطائفة حائل مانع دون كل الفوائد والرغبات تجنى على نفسها ودينها وملتها جناية لا يغفرها لها رب الدين وخالق العالمين .

استكثر من الجند حتى ضاقت بهم بغداد فجدد بناء مدينة (سر من رأى) وتحول إليها وخرجت فى زمنه جماعة من الثوار وأصحاب الأقوال والمدعيات فمكنه الله من رقابهم ولم يجتمع لخليفة ما اجتمع للمعتصم من الظفر والنصر .

أسر ملك أذربيجان وملك طبارستان . وملك استسيان وملك اشباصح . وملك فرغان . وملك تخارستان . وملك الصفة . وملك كابل . وبلغ ما أراد وزاد عليه بحيث لو كانت هذه الهمة صادفت صفاء من الوقت وحفاظا من النظام وروحا من الطاعة وولعا وعشقا من الأمة فى تأييد الخلافة ولم تكن الأمور معرضة للخطر واستنباط ضروب الخروج على القائم لقضاء حاجة فى النفس لكانت هذه المدة من أكبر وسائل السعادة للأمة الإسلامية .

---

(1) ق : ٣٧ .

وقد أسهب جماعة المؤرخين فى وصفه وسعة أخلاقه وكريم عشيرته وأنه لم يكن أسمح منه بالنفقة فى وقت الحرب . وروى عنه أنه تصدق بمائة مليون درهم . ومن مكارم أخلاقه أن انقطعت عنه أصحابه فى يوم مطير فبينما هو يسير إذ رأى شيخا معه حمار عليه حمل شوك وقد زلق الحمار وسقط والشيخ قائم ينتظر من يمر به فيعينه فنزل المعتصم عن دابته وخلص الحمار عن الوحل ورفع عليه حمله وانتظر أصحابه ووكل منهم به من يسير معه .

قال إسحق ان إبراهيم : سألنى المعتصم فقال نظرت إلى أخى المأمون وقد اصد أربعة فأفلحوا واصطنعت أربعة فلم يفلح أحد منهم فقلت أجيب على أمان من غضبك . قال نعم . قلت له يا أمير المؤمنين نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت واستعمل أمير المؤمنين فروعا فلم تنجب إذ لا أصول لها فقال يا إسحق : لمقاساة ما مر بى طول هذه المدة أيسر على من هذا الجواب .

(إن عدم التخير فى انتقاء حاشية الخلافة التى تشرف على عموم الأمة يتقلب بها الحال فى كل وقت إلى أشأم ما يكون لأنهم لقربهم من الملك يحلون بجهلهم القطيعة محل التراحم والتخاصم مكان التعاون والحرب موضع السلام ويصبح الاجتماع البشرى بسببهم معرضاً للهلكة لأن هذه الطائفة أقرب الناس إلى الملك وهى التى تمثل طباعه وأغراضه ولا ينبغى أن يكون فى طباعهم تقصير عن الكمال الواجب لهم) .

كان المعتصم يحب العمارة ويقول إن فيها أموراً محمودة . فأولها عمران الأرض التى تحيا بها العلم وعليها يزكو الخراج وتكثر الأموال وتعيش الأنعام وترخص الأسعار ويكثر الكسب ويتسع المعاش . ولذلك كان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك اذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاء بعد سنة بأحد عشر درهما فلا تؤامرنى فيه . ولذلك كثر فى أيامه العمران واختطت الخطط واقتطعت القطائع والشوارع والدروب وأفرد أهل كل صنعة بسوق وبنى الناس وارتفع البنيان وشيدت القصور وسائر ما ينتفع به الناس .

ثم اختاره اللّه سبحانه وتعالى للدار الآخرة فقضى فى قصر المعروف بالخاقانى يوم الخميس لثمان بقين من شهور ربيع الأول، سنة ست وعشرين ومائتين . وقال عند ما احتضر . « ذهبت الحيلة فليس لى حيلة »

وكان للمعتصم كلمات فصيحة وشعر لا بأس به وسيرته هذه إذا لوحظ فيها ما طرأ علي مصالح البشر من الفساد وما قذفت به الأمة الإسلامية نفسها فى مهاوى الشر من الطيش والنقص تكون خير نذير لما فيها من المنفعة وإشعار القلوب بلزوم الارتباط والاتحاد والتغلب على الشهوات التى تذهب حرمتها وتهدم بناءها وتفقد ما قصد بوضعها .

اللهم قنا شر نزغات الأهواء وانزع من نفوسنا حب الغلبة على ما حولنا وصرف إرادتنا فيما فيه نجاح البلاد والعباد وألهمنا معرفة العارفين وإرادة المختارين لتستشعر نفوسنا بالخير الذى هى مسوقة إليه آمين .

المتوكل على الله جعفر

هو المتوكل على الله جعفر أبو الفضل بن المعتصم بن الرشيد بويع له فى ذى الحجة [illegible] وثلاثين ومائتين .

كان المتوكل ذكى الفكرة ذكى الفطرة ظهيراً للسنة يميل لعمل أهلها ونصرتهم والمدافعة [illegible] قاد الأمر فى رفع المحنة التى وقعت والبلية التى عظمت وهى [illegible] التى [illegible] من عهد المأمون إلى عهد المتوكل . وانقضت السنين الطويلة والأمة لا تعان على صرف بليتها عنها مع أنها على غير طائل وقد أصاب جماعة المسلمين منها ضرر وأى ضرر . وأمر بترك النظر والمباحثه والجدال والترك لما كان عليه الناس أيام المعتصم والواثق وأمر بالتسليم والت[illegible]

كتب المتوكل إلى الآفاق فى سنة أربع وثلاثين بترك [illegible]عة واستقدم المحدثين إلى سامراً (سرى من رأى) للتحديث وإظهار السنة والجماعة [illegible] جزل عطاياهم وأكرمهم وأمرهم بأن يحدثوا بأحاديث الصفات والرؤية وأجلس [illegible] بكر شيبة فى جامع الرصافة فاجتمع إليه نحو من ثلاثين ألف نفس . وأجلس أخاه [illegible]سان فى جامع المنصور فاجتمع إليه أيضا نحو من ثلاثين ألف نفس وتهلل الناس فرحا وانطلقت الألسنة بالدعاء للمتوكل وبالغوا فى الثناء عليه ووافق ذلك إ[illegible] ابن أبى دؤاد (محدث هذه البدعة ومبتدعها) بفالج صيره حجرا ملقى فأزاح الله هذه البلية ورفعها عن أمة نبيه ﷺ واستراح الناس .

أخذت جماعة المؤمنين فى الثناء على المتوكل وتعظيمه حتى قال « الخلفاء ثلاثة » (أبو بكر) رضى الله عنه فى قتل أهل الردة (وعمر بن عبد العزيز) فى رد المظالم (والمتوكل) فى أحياء السنة وإماتة التجهم .

اللهم لا سيطرة على خلفاء الإسلام ولكن الإنسان يستخذى من نفسه إذا وجد أن عهداً طويلا وزمناً مديداً استوعب خلافة أربعة من الخلفاء ينقضى فى أمر بدعة كان يسع فيها جماعة المسلمين ما وسع النبى ﷺ وأصحابه الكرام والانصراف إلى فتح الفتوح والتوجه لما فيه المنفعة استجلابا لحسن السيرة والنظر فى الضوابط السلطانية والأمور الحربية بالجمع والتفريق والتبعيد والتقريب والتشتيت والتأليف واستعمال المجرمين الذين أمنت

خيانتهم وتحققت أمانتهم حتى ينقلوا طبع الأمة من الميل إلى الاعتدال ويعرفوها صفات الخير والصلاح .

ينبغى للأمة الإسلامية أن تتعظ بمثل هذه الحوادث فتتجنب كل ما يؤديها للتفرقة ويجرها للتباغض ويجعل سهمها بينها فإن شر الافتراق قد جر عليها ما جره من الويل والثبور وأصبحت وقد ضرب بينها بسور من التخاصم والتباغض ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وفى سنة ثمان وثلاثين حدثت حوادث جوية عظيمة منها خروج رياح بالعراق شديدة السموم أحرقت الزرع ومنعت الناس المعاش وزلازل فى جهة إنطاكية خرت منها الجبال وتقطعت . ووقع من السماء برد فى حجم الحجارة ، وغارت عيون الماء بمكة فأرسل المتوكل لأهل البلاد التى دهمتها هذه الحوادث بما تعطف به من الإحسان .

وبعث إلى بلد الله الحرام بمائة ألف دينار لإجراء الماء من عرفات إليها .

انتهب المتوكل من أيام الخلافة التى كانت ممنوة بالمشاكل أيام اشتغل فيها بالفتوحات ففى خلافته فتح العباس بن الفضل أمير صقلية بها الفتوحات العظيمة واستولى على قصريانة .

ولما استولى المسلمون على جزيزة صقلية وافتتح جالية الأندلس اقريطش اغتاظ الروم وجهزوا نحو ثلاثمائة مركب عليها ثلاثة أمراء فأخذت بالجولان فى عرض البحر الأبيض المتوسط تنتهز الفرص للإيقاع بالمسلمين .

من ذلك أنهم انتهو إلى مدينة دمياط بمائة مركب وخرجوا على غرة من أهلها وكانت فارغة من الجند فأحرقوا وسبوا وتقدموا حتى وصلوا مصر ثم رجعوا ويقال إنه لم يتعرض لهم أحد فى طريقهم .

وفى خلافته افتتح (بغا) قائد جنوده مدينة (تفليس) وغزا المسلمون الروم عدة مرات فغنموا وفتحوا وغزا الفضل بن خاقان بالاساطيل فافتتح حصن إنطاكية وفى خلافته أغار (البجاة) وامتنعوا من أداء الخمس على مصر حتى ولى محمد بن عبد الله القمى أسوان وقفط والأقصر وإسنا وأرمنت وأمر بحربهم فزحف عليهم فانهزموا واستأمنوا على أداء الخراج كما كان .

كانت أيام المتوكل أحسن الأيام وأنضرها لحبه فى استقامة الملك وشمول الناس بالأمن

ورخص السعر وبث العدل وكونه وسطا فى كل شئ : فى جوده وإمساكه ومضاحكه وهزله ومجونه وطربه . وكان ولعا بالأدب محبا للشعر والشعراء وهو الذى يقول فيه بعضهم

فامسك ندى كفيك عنى و لا تزد　　فقد خفت أن أطغى وأن أتجبرا

وظهرت فى مدته ثياب لباس الملحم وهى فى نهاية الحسن والصبغ وجودة الصنع وعرفت بالثياب المتوكلية . وحدث فى أيامه بناء لم يكن الناس يعرفونه وهو المعروف بالحيرى والكمين والأروقة نسبة إلى ملوك الحيرة وهو عبارة عن رواق فيه صدر وميمنة وميسرة وخزنة للكسوة وبيت لما يحتاجة إليه من شراب وغيره .

ولم يعلم بأحد متقدم في صناعته فى جد أو هزل إلا وقد حظى فى دولته بنصيب وسعد فى أيامه فكانت أيامه مزهرة بكل جميل

كان ولعا بحب أهل الخير والصلاح عاشقا للعلماء حتى إنه لما ظهر فى عهده فى مصر (ذو النون) وتكلم فى ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية وأنكر عليه ذلك عبد الله بن عبد الحكم رئيس مصر وأجل أصحاب ابن أنس رضى الله عنه فى زمانه وقال بأنه أحدث علما لم يتكلم فيه السلف ورماه بالزندقة وبلغ الامر المتوكل أمر بإحضاره فاستدناه وسمع كلامه فولع به وأحبه وأدرك منزلته وأكرمه وكان يقول : « إذا ذكر الصالحون فحيهلا [1] بذى النون » . وكان متمذهبا بمذهب الشافعى رضى الله عنه . وهو أول خليفة اتخذ مذهبا وكان يقول : « أيها الناس إن محمد بن إدريس المطلبى قد صار إلى رحمة الله وخلف فيكم عملا حسنا تهتدوا « اللهم ارحم محمد بن إدريس رحمة واسعة وسهل علىَّ حفظ مذهبه وانفعنى به » .

وكان لا يأنف من الموعظة : من ذلك أنه جمع فى داره مجلسا من العلماء وكان فيهم أحمد بن المعدل وغيره فخرج عليهم فقام الناس غير أحمد بن المعدل فقال المتوكل لعبيد الله : « ما باله ؟ » قال: إن فى بصره سوء . فسمعها أحمد بن المعدل فقال : يا أمير المؤمنين ما فى بصرى سوء . فسمعها أحمد ابن المعدل فقال : يا أمير المؤمنين ما فى بصرى سوء ولكن نزهتك من عذاب الله . قال النبى ﷺ : « من أحب أن تتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار » فسر به المتوكل وجلس إلى جانبه ومن كلامه مع يزيد المهلبى :

---

(1) حيهلا : كلمة للمدح .

« إن الخلفاء كانت تتصعب على الرعية لتطيعها وأنا ألين لهم ليحبوني ويطيعوني » .

كان مدركا خطارة مركز الخلافة والمسئولية التي تحيط به فكان يذوق منها مرارة العاقب كما يسيغ حلاوة المآرب وكان في أغلب أوقاته مطرقا مفكرا .

دخل عليه مرة وزيره الفتح بن خاقان وهو على هذه الحالة فقال له : ما هذا الفكر فوالله ما على ظهر الأرض أطيب منك عيشاً . قال : « يا فتح أطيب مني عيشاً رجل له دار واسعة وزوجة صالحة ومعيشة حاضرة لا يعرفنا فنؤذيه ولا يحتاج إلينا فنزدريه » .

كان المتوكل يروى الحديث عن أبيه وجده ومات في عهد خلافته الكثير من خيار الناس والعدد العديد من شرارهم فمن خيار الأمة الأعلام ذو النون المصرى وأبو ثور والإمام أحمد بن حنبل ودفن بباب حرب في الجانب الغربي بمدينة السلام . وعبد الملك بن حبيب إمام المالكية وسحنون صاحب التآليف . وإسحق بن راهويه . ومن أصحاب الفتن ابن دؤاد صاحب فتنة القول بخلق القرآن وأبو بكر الهذلي العلاف شيخ الاعتزال . وجعفر بن حرب من كبار المعتزلة فأزال الله بموتهم عن الأمة ما كان محيطا بها من الخبال وما اكتنفها من سوء الحال .

وأخرج أحمد بن حنبل قال : سهرت في ليلة ثم نمت فرأيت في نومي كأن رجلا يعرج به إلى السماء وقائلا يقول :

ملك يقاد إلى مليك عادل | متفضل بالعفو ليس بجائر

ثم أصبح الصباح فجاء نعي المتوكل من « سر من رأى » إلى بغداد .

وكان له تعلق شديد بالفتح بن خاقان وزيره . ومن أغرب ما وقع أن المتوكل قال للبحترى « قل في وفي الفتح شعراً فإني أحب أن يحيا معي ولا أفقده فيذهب عيشى » فقال في هذا المعنى :

كيف أخلفت يا حبيبي وعدى | وتثاقلت عن وفاء بعهدى
لا أرتني الأيام فقدك يا « فتـ | ـح » ولا عرفتك ما عشت فقدى
أعظم الرزء أن تقدم قبلي | ومن الرزء أن تؤخر بعدى
حذراً أن تكون إلفا لغيرى | إذ تفردت بالهوى فيك وحدى

فقتلا معاً

وأغرب من ذلك ما حدث به البحترى قال : اجتمعنا ذات يوم فى مجلس المتوكل فتذاكرنا السيوف . فقال بعض من حضر : وقع لرجل من أهل البصرة سيف من الهند ليس له نظير فأمر المتوكل بكتابة كتاب إلى عامل البصرة بشرائه مهما بلغ . فنفذت الكتب . قال البحترى وبينا نحن عند المتوكل فى ليلة أخرى إذ دخل عليه عبيد الله والسيف معه فسر المتوكل به وانتضاه واستحسنه وجعله تحت ثنى فراشه فلما كان الغداة طلب من الفتح بن خاقان غلاما يثق بنجدته وشجاعته فجاءه بباغر التركى فدفع إليه السيف وزاد له الرزق ولم تمض الأيام حتى قتل المتوكل بذلك السيف من يد باغر المذكور قياماً بغرض المنتصر .

كان السبب فى قتل المتوكل ذلك الخطأ الشديد وسوء التصرف في أمر ولاية العهد ولم يعتبر بما كان من أمر الرشيد فى الأمين والمأمون فبايع المتوكل بولاية العهد لابنه المنتصر ثم المعتز ثم المؤيد وولى كل واحد منهم قسما من المملكة .

ثم بدا له أن يقدم المعتز لمحبته لأمه فسأل المنتصر أن ينزل عن ولاية العهد فأبى فكان يحضره مجلس العلم ويحط من منزلته ويتهدده ويشتمه ويوعده فما زال المنتصر يرتقب الفرص حتى تحقق أن الجيش التركى الذى اتخذه المتوكل انحرف عنه لأمور فاتفق معهم على قتل أبيه فدخلوا عليه خمسة وهو فى جوف الليل فى مجلس أنسه وقتلوه هو ووزيره الفتح بن خاقان وذلك فى خامس شوال سنة سبع وأربعين ومائتين .

وفى ذلك يقول البحترى من قصيدة له :

أكـان ولى العهـد أضمـر غـدره	فمن عجب أن ولي العهد غادره
فلا ملك الباقى تراث الذى مضى	ولا حملت ذاك الدعـــاء منـابره .

ألا إنما المطمئن للدنيا مغرور والساكن للدهر جاهل فهى دار لا يدوم نعيمها ولا يتم سرورها ولا يؤمن محذورها قرنت السراء بالضراء والشدة بالرخاء والنعيم بالبلوى وجعلت خاتمة كل نعيم فيها زواله . عزيزها ذليل وقويها مهين وغنيها محروب وعظيمها مسلوب وليس أبقى على صفحات أيامها من عمل مقصود به الخير والبر والإحسان فهى التى تعجز عن أن تأكله بأنياب فنائها ولايزال يذكر به فاعله وهو على جدة لا يبلى فالله سبحانه وتعالى يوفقنا للعمل النافع الدائم الذى لا تبليه الأيام ولا تفنيه الأعوان آمين .

نبذة تاريخية

قد أتينا فيما سبق من رسائل (حماة الإسلام) بما شاء اللّه أن نكتب من تراجم خلفاء الدولة العباسية واتصل بنا الكلام لحد ترجمة (الخليفة المتوكل) فخالفنا بذلك أكثر فلاسفة المؤرخين لاعتبارهم تلاشى واضمحال الدولة العباسية من قبل ذلك أى (بخلافة المعتصم) لأنه انحرف عما يوجبه عليه حق الجماعة فجعل كبار قواده وعمال جبايته وحاشية خلافته وجنديته من غير اللب الخالص من صميم العنصر العربى .

ولكن لما كان من العدل إظهار الفضل وكان (للمتوكل) رحمه اللّه حسنات كثيرة من أجلها وقوفه أمام فتنة القول بخلق القرآن التى هدت الخلافة العباسية وصرفتها عن كثير من وجوه الخير حتى أبطلها . ثم تصدية لإحياء السنن الشريفة المعطلة وإماتة البدع السيئة المنتشرة حتى سمى « أبا بكر الثانى » ختمنا به تراجم تلك الخلافة ليكون خاتمة خير لها ولكى لا تغيب عن الذكر أفعاله وفضائله هذه .

اضمحلت الخلافة العباسية بالأسباب التى اضمحلت بها الخلافة الأموية من جهة الخروج عن جادة العلم والعدل وزادت عليها عوارض أخرى أصابتها متتالية فكانت أشد بلاء من تلك الأسباب المتقدمة : منها كثرة المذاهب واضطهاد الأئمة والتفرق فى الاعتقاد وظهور أصحاب الدعوات الباطلة والفاطمية والشيعة والمعتزلة والرواندية . وغيرهم ومنها كثرة وجود خلاء الأعاجم الذين فعلوا فى الدولة العباسية ما لا يفعله العدو الفاتك بعدوه .

إن المستقرئ للحوادث المتتبع لمجريات الأحوال يحكم بأن دخول طائفة الديلم والأعاجم فى خدمة الخلفاء مقصود منه اضمحلال هذه الخلافة بأيديهم .

أدخلت هذه الطائفة نفسها فى خدمة الخلافة بقصد الانتقام والأخذ بثأر الفتوحات الإسلامية التى قامت بها العرب فى بلادها من أول فتح المدائن إلى عهد الفتوحات العباسية « والخلفاء غفلت عن ذلك » وهو ما تؤيده الأعمال الوحشية التى وقعت من عامة الجند والأقوال الصريحة التى سمعت من كبار قواده .

أظهر هذا أن فى النفوس حزازات قديمة وفى الصدور ضغائن كامنة وأن كل أعمالهم

أعمال المنتقم لنفسه المضمر التشفى بالعدوان اماتوا المنتصر مسموماً والمستعين بالله مذبوحا . والمعتز بالله معذبا عطشان . والمقتدى بالله مقتولا . والمتقى بالله مسمولا .[1] وهكذا لكل خليفة عندهم قود [2] ودام هذا التجرؤ والعدوان متواصلا منهم على مقام الخلافة وهم يتفننون في إيصاله المكروه إليه وإيقاع الأدنى به كالخلع والتمثيل والتقتير والتعطيش حتى نمت فيهم القوة وخافتهم الناس إتقاء شرهم وظهر كامن الغيظ من رؤسائهم (والظلم كمين فى النفس القدرة تظهره والضعف يخفيه) فسمع من (مرداويج) مقدم بأصفهان الذى مات في خلافة الراضى سنة عشرين ومائتين يقول « سأرد دولة العجم وأمحق دولة العرب » (رواه السيوطى فى تاريخه المعروف بتاريخ الخلفاء) وقد أعينوا على ذلك بقدر من الله وقضاء سابق فجلوها عن بغداد وفعلوا بأثارها ما لا يفعله السوس بالصوف .

الدخلاء فى كل ملة ودولة موضع تنازع مستمر وظلم من الإحن حالكة وكثيرا ماهدموا قصور السلاطين والأمراء من كل أمة . وشر هذه الطبقة لا يقف عند حد . وأقرب مذكور منهم من استخدمتهم الدولة العلية . صانها الله » فى خاصة خداماتها من الأرمن والبلغاريين وغيرهم من أهل البوسنة والهرسك . ثم ما أحاط بالأمة المصرية حتى نزل بها فى هاوية الهلاك كانت ولا تزال يد الإغراض من كل دولة تدير حركية هؤلاء الأجانب من وراء الحجاب فيتحركون وفق إرادتهم (كأشباح اللاعب) فينشئون سحباً من الأوهام والأباطيل يقذفون بها فى عقول الخاصة فضلا عن العامة حتى يتم لهم من الفتنة ما يريدون .

وصلوا بسوء أفعالهم فى الدولة العباسية إلى أن قتل الأخ أخاه ووقعت بين الناس حالة من الوحشة حتى ظنوا بأنفسهم وخافوا كيد بعضهم بعضا وإنها لموعظة تبقى بقاء الدهر تزعج الغافل وترجع بلب الذاهل وتحمل المعتبر بها من أهل السلطان على رعايتها ليستقيم إليه أمر الناس .

تخللت الخلافة العباسية شؤون وأمور ذات بال بعضها يذكر للبركة ونيل الأجر بإذاعة الفضل وبعضها يذكر حتى يتعظ به المهتدى ولابد لنا من أن نأتى عليها قبل الانتقال إلى ذكر (حماة الإسلام) فى الدول الإسلامية الأخرى لأنها لهذه الخلافة تبع : منها

---

(١) مسمولاً : سمل العين فقؤها بحديدة محماة .　　(٢) قود : قصاص .

تراجم الأربعة الائمة رضوان الله عليهم وما خصهم من الفضل وابتلاهم به من المحن كأبى حنيفة ومالك بن أنس والشافعى وابن حنبل رضى الله عنهم لموافقة أزمانهم لصدر الخلافة العباسية ولأنهم زينة تراجم (حماة الإسلام) إذ هم بهجة مفاخر الأنام ومنها ما حدث فى مصر من التحالف مع سدة الخلافة العباسية فى عهد المعتصد ونزوعها للاستقلال جريا وراء أغراض (أحمد بن طولون) والشقاء الذى نجم عنه فى الدولة العباسية والويل الذى جر هذا العمل على أهل مصر لاتباعهم هواه وسيرهم على وفق خطرات أفكاره بلا ترو ولا تفكر حتى انجلى الأمر بصرف وجوه المصريين عن باب الخلافة وأصبحوا ملعبة دولة الأخشيدية وخلافة الفاطميين التى سنت لهم سنناً تعدت ضروب المحال . ومنها دخول القائد جوهر بجيش المعز لدين الله مصر والأسباب التى تقدمت هذا الفتح وسهلته والأحوال التى استكشفها المعز لدين الله فى الأمة المصرية قبل أن يدخلها قائده بجيشه فاتحا بما فى ذلك كله من موعظة لمتعظ وعبرة لمعتبر وزجر لمزدجر ثم نأخذ بعد ذلك فى سرد تراجم ساداتنا خلفاء الخلافة الأموية فى الأندلس التى ابتدأت بالخليفة عبد الرحمن حفيد هشام الأموى فجمعت شتات الفضائل ورفعت للعلوم والفنون أعظم منار وكانت زينة الإسلام وفخره وعزه وشرفه والله الموفق .

أبو حنيفة النعمان رضى الله عنه

هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى . اختلفوا فى تاريخ ميلاده . اختلافا كثيراً بين سنة إحدى وستين وسنة ثمانين .

هو أول من حفظ الشريعة بالتلقين وكان على يده انتشار السنة وتمام حاجة العالم الإنسانى بها . وهو المفزع لكل ملهوف . والغياث لكل مهموم والمنار الذى به يهتدى المتحير . ويسلك الناس على نوره وضح الطريق .

هو أحد أركان العلماء وأحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة أدرك عصر الصحابة . ورأى أنس بن مالك وأسبق العلماء على علمه ودينه وورعه وزهده . ووفقه الله تعالى حتى اجتمع ما يقرب من شطر الإسلام على تقريره والأخذ بقوله . عصمه الله عن القول وغيرها كانت من مقتضى السير الطبيعى للزمن الذى كان فيه وكانت سبب المودة والقربى للخلفاء والأمر ولكن أبى الله أن تسطو على روحانيته نفس إنسانية .

كان حسن الوجه . ربعة [1] ذا شهامة عظيمة . من أحسن الناس منطقاً وأحلاهم نغمة وأنبههم حالة . حسن الهيئة . جميل الثياب والبزة [2] . كثير العطر يعرف بطيب الريح قبل أن يقبل . شديد الكرم . حسن المجلس كثير المواساة لإخوانه . وصفه صاحبه أبو يوسف للرشيد إذ سأله عنه فقال : قال الله تعالى : ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ [3] وهو عند لسان كل قائل . كان والله أبو حنيفة شديد الذب عن محارم الله مجانباً أهل الدنيا فى دنياه طويل الصمت دائم الفكر لم يكن مهذاراً ولا ثرثاراً . إن سئل عن مسئلة وكان عنده علم فيها أجاب على ما سمع وبما ثبت عنده . ما علمت يا أمير المؤمنين رجلا أكثر منه اشتغالا بدينه عن نفسه وعن الناس لا يذكر أحداً إلا بخير » فقال هارون : هذه أخلاق الصالحين » وقال الشافعى رضى الله عنه : « ما قامت النساء عن رجل أعقل من أبى حنيفة » وقال جعفر بن الربيع « أقمت عند أبى حنيفة خمس سنين فما رأيت أطول صمتا منه إذا ترك ولا أشد سيلانا منه إذا سئل » .

---

(١) ربعة : لا طويل ولا قصير .　　(٢) البزة : الهيئة .　　(٣) ق : ١٨ .

كان لا يفتر لسانه فى خلوته عن تلاوة القرآن وربما أتم فى بياض نهاره ختمة وفى سواد ليلته أخرى وكثيراً ما صلى الفجر والعشاء بوضوء واحد ولم يسمع حالفاً فى عرض حديثه .

يروى عنه أنه لما أراد طلب العلم جعل يتخير ويسأل عن عواقب العلوم ونتائجها فلم يجد علما يسأل فيه صاحبه ويفتى الناس بما يغنيهم به غير الفقه فلزمه وترك علم الكلام الذى كان مشتغلا به وأتى أبا إسماعيل حماد بن أبى سليمان وهو شيخ وقور حليم لم ير أفقه منه فى زمانه وله مناقب كثيرة فلازمه ووجده عنده كلما طلب وما زال حتى كان يجلس فى الحلقة بحذائه واستنابه وأمره أن يجلس مكانه أزمان تغيبه بالبصرة ولم يفارقه حتى مات فكانت صحبتهما ثمان عشرة سنة .

أخذ حماد بن سليمان رضى الله عنه العلم عن إبراهيم النخعى وهو أخذه عن علقمة والأسود وهما أخذاه عن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم فلما مات إبراهيم النخعى رضى الله عنه وكان مفتى الكوفة جلس أبو حنيفة رضى الله عنه للإفتاء بعده بإجماع من جماعة المسلمين والتابعين واختلف إليه الناس وكان أكثرهم اختلافا إليه صاحبه أبا يوسف ولم يزل كذلك حتى استحكم أمره واحتاج إليه الأمراء وذكره الخلفاء . جلس للإفتاء لينتفع به الناس ويسهل عليهم معرفة حدود الله سبحانه وتعالى ويردهم إلى أوامره ويحظر عليهم المحرمات .

وذكر فى مسنده ما يقرب من مائتى شيخ أخذ عنهم العلم وروى عنهم الحديث وفيهم التابعين حتى إن بعضهم رتب أسماءهم على حروف الهجاء فلم يخل حرف واحد منها .

حدث أبو الحسن بن على الخطيب عن على بن بدر القاضى قال حدثنا هلال بن بدر أبى العلاء عن أبى حنيفة قال لقيت سبعا من الصحابة وسمعت من كل واحد منهم خبراً .

كان غاية الفراسة والفطنة حتى كاد أن يدرك بها المغيب ونوادره فى ذلك كثيرة جداً .

وهو أو من اخترع معرفة عد اللبن والآجر بالتقصيب فعل ذلك فى عد آجر سور بغداد لما كلفه المنصور بذلك .

ومن مكارم أخلاقه أنه كان له جار يعمل نهاره أجمع فإذا جن الليل رجع إلى منزله

وقد حمل لحما فطبخه أو سمكة فشواها ثم لا يزال يشرب ويغرد بصوته .

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

حتى يأخذه النوم وأبو حنيفة يسمع كل يوم جلبته . ثم فقده ليلة وعلم أن العسس [1] أخذه فركب واستأذن على الأمير وسأله تخليته فقال له الأمير : وكل من أخذ فى تلك الليلة . فلما خرج الفتى قال له أبو حنيفة رضى الله عنه (أأضعناك ؟ ؟) وناوله ما يستعين به علي نقصان دخله فى أيام حبسه فكشف بهذا الفعل الغمة عن عقل الفتى حتى تاب واختلف إلى أبى حنيفة حتى تفقه .

كان مع اشتغاله بالفقه يبعث بالبضائع إلى بغداد للتجارة ويجريها مجرى الفضل على إخوانه فيشترى ما يحتاجه شيوخه من المحدثين والفقهاء ويعطيه لهم محتسباً ربحه من أثمانها ويقول هذا رزقكم أجراه اللّه على يدى مثل ذلك أن فقيها احتاج مرة لثوب خز فقال : ما لونه : قال كذا . فقال اصبر . ثم استدعاه بعد أيام وقال هذه حاجتك وثمنها درهم . فقال له الفقيه تهزأ بى . قال لا واللّه اشتريت ثوبين بعشرين دينارا ودرهم بعت أحدهما بعشرين ديناراً وبقى هذا بدرهم وما كنت لأربح على صديق . فأخذه وشكره .

لقد دفع أبو حنيفة رضى اللّه عنه لمقامات من الحكم تتنافس عليها الناس وتتصنع لها فامتنع عنها طلبا للسلامة فى دينه ومنح العطايا فلم يقبلها ومنعه عفاف النفس وطهارة الذيل .

أراد يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى أمير العراق أن يدخله فى (الطراز) أى صدقات بيت المال فأبى . وطلب منه أبو جعفر أن يلى قضاء الكوفة فلم يقبل فضربه بالسياط وسجنه وقيده بأثقل الحديد فلم يقبل وجاءته أمه وقالت له يا نعمان إن علما ما أفادك غير الضرب والحبس لحقيق بك أن تنفر عنه . فقال يا أماه أردت الدنيا ما ضربت ولكن أردت وجه اللّه وصيانة العلم ولم أعرضه للهلكة .

صدق القائل : « الرجال سواء حتى تقع المحن » تحتاج الوقفة التى وقفها أبو حنيفة رضى اللّه عنه أمام أبى جعفر لعقل كبير يرشده وعزم شديد يؤيده وهداية عظيمة تنبهه حلف عليه أن يلى القضاء فحلف أبو حنيفة أن لا يفعل . فكرر الخليفة اليمين فثناها أبو حنيفة فقال له الربيع أمير المؤمنين يحلف وأنت تحلف . فقال إن أمير المؤمنين أقدر منى

---

(١) العس : الحراس ليلا .

على كفارة أيمانه فأمر بحبسه وما زال فيه حتى مات سنة خمسين ومائة وعمره سبعون سنة وقيل إنه فى اليوم الذى ولد فيه الشافعى رضى الله عنه . وتولى غسله الحسن بن عمارة فلما غسله قال رحمك الله يا من لم تفطر ولم تتوسد يمينك بالليل منذ ثلاثين سنة والله لقد أتعبت من بعدك .

كثرت الأقوال فى كيفية حبسه وتعذيبه حتى قيل إنه كان يخرج فى كل يوم ويضرب فلما تتابع عليه الضرب مرض ومات وقيل إنهم ضيقوا عليه الأمر حتى فى طعامه وشرابه . ومهما يكن فى هذه الأخبار من المبالغة فإن الحبس متفق عليه لتواتر خبره وكفى به عذابا لمثل هذا الإمام العظيم « أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل » .

هذا الشعور الذى يهيئ النفوس لارتقاء درجات الكمال والوصول لأطراف المراتب والغايات فقده كثير من علماء الإسلام فأصبحوا يشترون رضاء الناس بغضب الله تعالى حتى أدى ذلك للسكوت عن النهى وأوجب هذا حدوث البدع والفوضى الدينية وانصرف كل واحد من الناس إلى هواه فانحطت رتبة العلم .

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم   ولو عظموه فى النفوس لعظموا

نعم لو حدثوا الناس عن جلاله وشرحوا للعقول ما خفى من شؤونه وبينوا مداخل السعادة الدنيوية والأخروية فيه وجاءوا للناس معبرين بما تحتمله طاقة ولا يبعد عن متناول الأفهام لقومت نفوس وكبحت شهوات . ولكن هذا ما أراده الله ولا حول ولا قوة إلا به .

هذه بعض كلمات من ترجمة هذا الإمام وما كان لنا ولا لغيرنا أن نحصيها وندونها فى مثل هذا القليل ولكن هذه القطرة تدل على مكان ذلك البحر . والغرض التشوف لمثل هذا الكمال ونهوض الهمم لقطع سلاسل التقليد وإصلاح النفوس التى غفلت ولهت عن أصول مكارمها التى كانت ينبغى أن تفاخر بها الأجيال وتسمو بها فوق كل كمال .

القاضى أبو يوسف رضى الله عنه

هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصارى أحد الصحابة رضى الله عنهم . ولد فى سنة ثلاث عشرة ومائة وكان جده ممن أبلى البلاء الحسن فى الوقائع النبوية ومشهد الخندق فرآه النبى ﷺ يقاتل قتالا شديداً على حداثة سنه فمسح بيده الشريفة على رأسه فبقيت فى الذرارى بركتها.

مات أبوه وهو صغير فقير لم يكن له ما يطعمه الخبز ويسقيه الماء فأسلمته أمه إلى قصار فكان يفر منه ويمر على حلقة درس أبى حنيفة النعمان رضى الله عنه فلما طال ذلك عليها جاءت إلى الإمام وقالت له إن ولدى هذا صبى يتيم فقير وقد أفسدته على فقال لها « دعيه فسيأكل الفالوذج فى طباق الفيروزج » وناولها مائة درهم وقال إذا فرغت فاعلمينى وكان يتعاهدها بعد ذلك كأنما يخبر بنفاذ ما عندها ولم يزل أبو يوسف حتى صار رأس الحلقة وانتهت إليه الرئاسة الدينية والدنيوية والإمامة فى الفقه والحديث وحفظ التفاسير والسير وأيام العرب .

كانت تهمز بأبى يوسف نفسه إلى رقى وكمال وسعادة حال وتسمو به إلى مقام رشد بلغه طريق الهدى الإلهى الداخل تحت قوله تعالى ﴿ **إنا هديناه السبيل** ﴾ (١) فقدر بهذا السلوك على تمزيق الحجب وأصبحت روحانيته تتلذذ بالحديث ونفسه البارة تتنقل في رياض المعرفة كأنما المعرفة ذلك من بركة تلك المسحة .

نذكره بعد أبى حنيفة رضى الله عنهما لأنه فى مقام حسن الختام لبراعة استهلال ترجمة الإمام إذ المذهب الحنفى أخذ عن أبى حنيفة بالتلقين وحفظ عن أبى يوسف بالتدوين وكما ملأ الامام به الصدور جلى به القاضى السطور فنقله من ضيق النفوس إلى سعة الطروس (٢) فهو إكليل التاج ومفتاح ذلك الرتاج (٣) الذى كمل نمو نبات العلم بتعهده وتكامل علو بنائه الشامخ على يده فَهُوَ أو لمن وضع الكتب فى أصول الفقه وأملى المسائل ودونهاوبث علم أبى حنيفة رضى الله عنه فى اقطار الارض ولم يكن فى زمنه بين أصحاب ثقة أحفظ لسنة النبى وأوعى لكتاب الله منه .

---

(١) الإنسان : ٣ . (٢) الطروس : الصحف . (٣) الرتاج : الباب .

تولى القضاء ببغداد لثلاثة من الخلفاء . المهدى . والهادى . والرشيد على كراهة منه لرقى مقام القضاء . وكان يقول ليتنى لم أدخل فى القضية على أن زين دست القضاء [1] كان محبوباً لخلفاء وقته وزمانه . وكان عند الرشيد حظياً مكيناً . وهو أول من دعى قاضى القضاة لأن الخليفة كان يستنيبه فى سائر الأقاليم التى كان يحكم عليها . وهو أول من غير لباس العلماء بهذا الزى . وما كان لأحد أن يطمع فى رئاسة بلدة فيها أبو يوسف .

جمع شروط القضاء وآدابه وأحكامه . من صدق اللهجة وعفاف الطعمة وحسن الصمت وكثرة الوقار وعظم الأناة وعزة النفس وكرامة الخلق وقلة الحرج ولطف الطبع ورقة الحجاب وسعة الصدر والصلابة فى الحق والتواضع لله والثقة فى ذاته والإيثار فى إقامة الحدود والمساواة بين الخصوم والتثبت فى سماع الحجة فلم يتعمد جوراً . ولم يحاب خصما وكل أحاكمه كانت بما يوافق الكتاب والسنة .

كان سريع الجواب (ونعم السلاح الناصر الجواب الحاضر) حج مع الرشيد معادلا له فلما دخل مكة صلى « هارون » بالناس الظهر ركعتين فلما سلم قام أبو يوسف وقال يأهل مكة (أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر) فقال رجل من فقهاء مكة نحن أفقه من أن نعلم فقال له أبو يوسف (لو كنت فقيها ما تكلمت فى صلاتك) فطرب لها « هارون » والحاضرون .

ومن أغرب ما سمع عن محفوظه وسعة اطلاعه أنه لم يجر على لسانه فى حديثه مع الرشيد أثناء مصاحبته فى سفره شيئاً معادا فلم يكرر له خبراً ذكره ولم يعد له حكاية رواها ولا وصل إلى مكان إلا وأخبر الرشيد باسمه ونعته له واستشهد عليه بشئ إن كان ثم ذلك . وناهيك بإمام تخرج على أبى حنيفة رضى الله عنه وسمع من أبى اسحاق الشيبانى . ويحيى بن سعيد الأنصارى وتلك الطبقة . وكان أفقه أهل عصره لم يتقدمه فى زمانه أحد يحفظ من المنسوخ عشرين ألفاً فما ظنك بالناسخ .

« كل ذى نعمة محسود » وما أدراك بنعمة اشتملت على الرئاسة والجلالة والقدرة والسعة فى سطوة الدين والدنيا والارتقاء على دست القضاء ومقام الفتوى الممثل كل منهما للأمانة والديانة والفضيلة والداعى للقرب من مقام الخلافة ونفوذ الكلمة وشدة السطوة .

أراد الأعداء الحط من هذا المقام العالى فما وجدوا إليه سبيلا فجاءوا لبعض أبواب وصاغوا منها مسائل مجمولة فى الفقه والفتوى خرّجوها على غير وجهها وتوسعوا فيها

(١) دست القضاء : كرسيه .

بأكثر من حدودها وافتروها عليه وتصنعوا فى روايتها عنه كأنهم يستدلون بها على سعة علمه وسمو قوته وقدرته وكأنهم من أشد المطرين له المعجبين برأيه فيها وهم فى الحقيقة من ألد أعدائه الذين يسرون له العداوة والبغضاء نشروا ذلك بيد بعض المسلمين الذين تدخل عليهم الحيل ولا تتكشف لهم أوجه المسائل ثم عدوها عليه بعد انتشارها من أشد العيوب وهو برئ منها فما أجدّره بقول العربى « زنوه وحدوه » .

كأنما كان أبو يوسف (استغفر اللّه) إله لتوجيه الإيمان بعد توكيدها فى كل شئ وكأنما كانت الخلفاء فى وقته على غير رأى .

ذكروا له أشياء كثيرة فى مسائل طلاق وزواج وعتق وغيره (تجنبناها) ورووا عنه لطائف تخيرنا منها بعض الشئ : فمن ذلك ما يحكى أن الرشيد خاصم زبيدة فى شئ فأغضبها وأغضبته فحلف عليها بالطلاق أن لا تبيت ليلتها فى ولايته ومملكته ثم ندم على ذلك لشدة حبه وفرط غرامه بها فسأل الفقهاء عن وجه الحيلة فعجزوا ثم استدعى القاضى أبا يوسف وسأله هل من حيلة قال نعم قال وما هى قال قل لها يا أمير المؤمنين تبيت فى المسجد لأنه لا ولاية لك عليه فإن اللّه تعالى يقول ﴿ **وأن المساجد للّه فلا تدعوا مع اللّه أحدا** ﴾ [(١)] فسر الرشيد بذلك كثيرا .

ومما يذكر فى معرض لطائفه أيضا أن الرشيد رأى فى ليلة من الليالى خنفساء تدب على بساطه فأمر بتعذيب الخادم فقال له أبو يوسف يا أمير المؤمنين إن الحيوان بجملته يألف الأضواء والخادم قد تعهد البساط ونحاها عنه ولكنها كلما نحيت تعود فأمر الرشيد ان تحمل وتنحى بعيدا ففعل فعادت ثم أمر أن تحمل وتبعد أكثر من الأول ففعل فعادت فعفا الرشيد عن الخادم بفضل القاضى .

ومن لطائفه أنه كان يحادث من يختلفون إليه فى حلقة درسه فجلس إليه مرة رجل وأطال الصمت فقال له ألا تتكلم ؟ فقال له : متى يفطر الصائم ؟ فقال إذا غابت الشمس قال فإن لم تغب إلى نصف الليل ؟ فضحك أبو يوسف وقال قد أصبت فى صمتك وأخطأنا فى استدعاء نطقك :

ففى الصمت ستر للغبى وإنما   صحيفة لب المرء أن يتكلما

توفى فى سنة اثنين وثمانين ومائة (فعزى الإسلام بعضه بعضا بموته) ومشى الرشيد

---

(١) الجن : ١٨ .

فى جنازته وصلى عليه ودفنه فى مقبرة أهله فى مقابر قريش بكرخ بغداد بقرب زبيدة ومحمد الأمين .

وقد أوصى قبل موته بكثير من ماله لأهل العلم بمكة . والمدينة . والكوفة . وبغداد واستمرت موارد خيراته ومآثره جارية ما شاء الله أعواما وقرونا .

ومما يحسن إيراده زيادة فى شرف الإمام أبى حنيفة النعمان رضى الله عنه أن الرشيد دعا أبا يوسف ليلة من الليالى ليسأله فى شئ دق على فهمه دركه فأجابه فيه أحسن جواب ولشدة سرور الرشيد ناوله قطعة من الفالوذج كانت فى صحن من الفيروزج من خاصة متاع الخلفاء فبكى أبو يوسف وانتحب فلما أفاق سأله الرشيد . فأخبر الخبر الذى قدمناه حكاية عن أبى حنيفة رضى الله عنه لأم أبى يوسف حين كانت تنهاه عن الحضور فى حلقته وقوله لها (سيأكل الفالوذج فى طباق الفيروزج) فبكى الرشيد .

يصح أن يقال عن أبى يوسف أنه أول من حفظ علم الفقه عن أبى حنيفة رضى الله عنهما ورواه فأدى الأمانة حقها والسعادة كل السعادة فى اختيار العلم المؤدى للخير الابدى والحياة الطيبة المرضية وهو علم الدين المرتبط به كل علم .

ينبغى أن تكون سيرته هذه مثالا يحتذيه أهل العلم يتلقونه من أساتذتهم بالكرامة ويؤدونه عنهم بالامانة ويؤثرون لذة المحمدة به والثناء عليهم بسببه عن كل لذة فهنالك تجتمع لهم الهداية مع العلم وتصح النية فتقام الفرائض وتحيا السنة وينصرف الناس من الشك إلى اليقين ومن الرياء إلى الإخلاص ومن الغش الى النصيحة ومن الرغبة إلى الزهد ومن الكبر إلى التواضع .

مثل هذه الأخلاق الشريفة لا يضيع صاحبها ولا يفتقر كاسبها ولا يخيب طالبها ولاتنحط مراتبها ويصبح المتجلي بها بمنزلة العلم المنصوب على الطريق المسلوك يهدى الناس إلى سواء السبيل .

أنى لنا بأصحاب هذه الأخلاق حتى يذهب عنا ببركتها هذا الطيش والإهمال والإغفال واللجاج فى ما لا فائدة فيه والعناد فى كل شئ .

أى حرية ومدنية تلتمس بأجل وأعظم من الحرية والمدنية الحقة التى تضمنها أدب الدين الذى دعا الناس لعرفان أنفسهم وأنهم مميزون بالعقل والفكر ومشرفون بحرية الإرادة فى ما يرشدان إليه .

حجبت العقول بغرور النظر إلى هذا الظاهر فاللهم خلصنا من كل تقليد استعبدنا واقتراب قيدنا وافتح لنا أبواب فضلك التى لم تغلق دون طالب ولا ضاقت أبوابها على راغب واكشف عن عقولنا غمة الوهم وأنعم على أفكارنا بنعمة الفهم وعرفنا مقادير النعمة التى نحن فيها حتى نتعلق بها ونقوم بالشكر عليها .

سيدنا مالك بن أنس رضى الله عنه

هو الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه إمام دار الهجرة فى زمانه وفقيها وأحد الأئمة الأربعة الأعلام . اختلفوا فى مولده بين ثلاث وأربع وخمس وتسعين من الهجرة وهو من الطبقة السادسة من أهل المدينة .

كان أشقر شديد البياض . ربعة من الرجال كبير الرأس أصلع . وكان لا يخضب شيبه لما صح عنده من أن عليا كان لا يخضب . حسن الهيئة والبزة يكره الثياب الخلقة ويعد ذلك مثله . وكان نقش خاتمه « حسبنا الله ونعم الوكيل » فسئل فى ذلك فقال سمعت الله تعالى يقول عقيب هذه الآية ﴿ **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل** ﴾ [1] . وكان مجلسه وقار وحلم يحوط فيه المستفهم عن الشئ هيبة شديدة .

كان لا يحدث إلا وهو متوضئ ولا يركب فى المدينة مع ضعفه وكبر سنه احتراما لبلد فيها رسول الله ﷺ . وكان لا ينقطع عن المسجد وتشييع الجنائز وعيادة المرضى وقضاء الحقوق فلما كبر انقطع عن ذلك كله واحتمل له الناس ذلك .

كان كامل النفس لا يزداد مع الخلفاء عن الأدب الذى يوجبه عليه الدين .

قدم المهدى المدينة فبعث إليه بألفى دينار فقبلها ثم وجه إليه الربيع يطلب منه ملازمته إلى مدينة السلام فقال له قل لأمير المؤمنين المال عندى على حاله . وكان يدخل على أبى جعفر . وكانت وجوه بنى هاشم تقبل يده ورزقه الله العافية من ذلك .

وكان شديد الحرص أمينا على العلم . قال جرير إن أبا جعفر المنصور عزم على أن يحمل الناس على « موطئه » فقال له لا تفعل يا أمير المؤمنين فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات وأخذ كل قوم بما سبق لهم وعملوا به ودانوا وقد أصبح ردهم عما اعتقد وه شديدا . فدع الناس وما هم عليه .

(لو أن فقيها من فقهاء هذ الأزمنة أقبل عليه أحد أعوان أولى الأمر وأشار عليه بحمل الناس على ما قاله لعد ذلك فخراً وعزا وسطا على عموم الناس بهذا القول . وذلك لأنه

(١) آل عمران : ١٧٤ .

يرى مصلحة نفسه لا مصلحة الدين ويقدم منفعته على جميع أنواع المنافع) .

روى عن غير واحد من التابعين وأخذ القراءة عرضاً عن نافع وهو أثبت أصحابه . وروى عنه وحدث خلق كثير من الأئمة منهم سفيان الثورى . وسفيان بن عيينة . وعبد الله ابن المبارك . والاوزاعى . وابن مهدى . وابن جرير . والليث بن سعد . والشافعى . والزهرى . ويحيى بن سعيد الأنصارى وغيرهم . وكان يقول : « العلم دين فانظروا عن من تأخذون دينكم » وكان يقول لا يؤخذ العلم عن أربعة :سفيه يتجاوز الحد وصاحب هوى يدعو إلى بدعته . وكذاب يهون عليه تبديل حديث الناس وشيخ لا يعرف ما يحمل وكان يقول : ما أفتيت حتى شهد لى سبعون ولو نهونى لانتهيت . ومن قوله : ليس العلم بكثرة الرواية ولكن نور يضعه الله تعالى فى القلب .

قال يحيئ بن معين : كان مالك من حجج الله تعالى على خلقه إماما لا يبلغ الحديث إلا صحيحاً ولا يحدث إلا عن ثقاة الناس . وعن الشافعى رضى الله عنه « إذا جاءك الحديث عن مالك فشد به يديك » ولا غرابة فى ذلك فقد قال عبد الله بن وهب « لولا أنى أدركت مالكا والليث بن سعد لضللت » وهو أحد الأئمة الأربعة فى الأمصار الأربعة : سفيان الثورى بالكوفة . ومالك بالحجاز . والأوزاعى بالشام وحماد بن زيد بالبصرة .

ومن فضائله ما رواه الترمذى من حديث سفيان بن عيينة عن جرير عن أبى الزبير عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنهم : « يوشك أن تضرب الناس أكباد الإبل فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة » .

كان شديد الكراهة للغيبة . ومن قوله فيها : « كان عندنا بالمدينة قوم لا عيوب لهم فتكلموا فى عيوب الناس فصارت لهم عيوب وكان عندنا قوم لهم عيوب فسكتوا عن عيوب الناس فنسيت عيوبهم » .

جاء مستقبل الزمان مصدقا للخبر الصحيح النبوى الذى لا ينطق عن الهوى فكان سيدنا الإمام مالك رضى الله عنه إمام زمانه .

ارتقت أمانة العلم عنده لدرجة لا تقوى عليها نفوس الكافة فنزل منزلا لم يخرج عنه حتى خرج من الدنيا . جاءه رجل ليستفتيه فى مسئلة فقال له « لا أحسنها » فقال له « قد ضربت اليك من كذا وكذا لأسألك عن هذا وتقول لى لا أحسنها . ماذا أقول لأهلى قال له قل لهم « سألت مالكا فقال لى لا أحسنها » .

امتحنه الله سبحانه وتعالى على مقدار مبلغ استطاعته ومكانته وأمانته فاستدعاه الخليفة واستفتاه فى أمر فأفتاه بما لم يوافق هواه وغرضه فأمر بضربه فضرب ومدت يده حتى خلع كتفه .

ما زال الله سبحانه وتعالى يعلى من قدر مالك رضى الله عنه بعد ذلك الضرب حتى أصبح فى رفعة لا يسمو عليها مقام وتجلى عليه مولاه بمظهر العزة حتى كأن تلك السياط حليا تحلى بها وأفضلية سما قدره بها .

توفى رضى الله عنه فى المدينة فى شهر ربيع سنة تسع وسبعين ومائة ودفن بالبقيع وكان واليها من قبل الرشيد عبد الله بن زينب .

إن الناظر فى أمر الدين الإسلامى بعين الحقيقة يجد أنه كلما اتسع صاحبه فى وسائله وتفرغ لحكمه وسبر حقائقه اتسع فى حرية الفكر وأصبح متدرعا بدرع الصدق والوفاء والأمانة وقبض على زمام الملكات الفاضلة وأصبح وليس له هم إلا احترام الحقوق على اختلاف أنواعها ولايستطيع أن يبيح منها إلا ما يحل تناوله فقط . ولو أن جميع أهل العلم حاسنوا بعضهم بهذه الخصال ونافسوا معاصريهم بهذه الكمالات وجذبوا الناس إلى مذاهبهم وعرفوهم شرف اندراجهم فى هذا النوع وكشفوا لهم عن وجوه الحقائق وطالبوهم بإصلاح سرهم كما طالبوهم برعاية اجسادهم وعرفوهم طهارة الباطن كما فرضوا عليهم نظافة الظاهر لقامت كلمة الدين خير قيام وأعتقوا عبيد الغايات والعادات وخلصوا أسراء التقليد وأصبح الناس على نور من ربهم عظيم .

لم يخالف الإمام فى فتواه مقام الخلافة إلا وهو متحقق أن هذا العمل فى رضاء الله سبحانه وتعالى.(وأن لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق فلو أن كل مسئول امتنع ولم يوافق السائل على هواه لرجع جميع المقترفين لهذا العمل عن عملهم هذا . ولكن عظمة السلطان وصولته أنست الناس أمر دينهم فأصبحوا يخالفون الشرائع ليؤلفوا قلوبهم ويدخلوا السرور عليهم بتحسين فعلهم فجر هذا الأمر الى أمور فظيعة سيئة حتى أصبح الدين ملعبة عند بعض الملوك وأهانوا الشرائع المرعية والفضائل المحمية وهذا أمر قد علم الكثير من المسلمين حاله وقدروا ضرره فكم جلبت الفتاوى من البلايا والرزايا سواء كان فى المسائل السياسة أوالمدنية مما لا حاجة لذكر تفصيله حتى إن أحد سلاطين آل عثمان أوصى بدفن الفتاوى التى أصدرتها له علماء وقته تخلصاً من عواقب ما فيها يوم القيامة يوم لا تغنى نفس عن نفس شيئاً والأمر يومئذ لله .

محمد بن إدريس الشافعى

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن هشام بن المطلب بن عبد مناف بن قصي .

ولد بالشام سنة خمسين ومائة ثم وصل إلى مكة فسكنها وأخذ يتردد بين الحجاز والعراق ثم استوطن مصر واتخذها دار إقامة حتى توفى بها عند بنى الحكم .

روى عن الإمام مالك بن أنس ومسلم بن خالد الزنجى وابن عيينة وإبراهيم بن سعد وفضيل بن عياض وعن عمه محمد بن شافع وجماعة غيرهم وروى عنه ابن حنبل والحميدى وأبو الطاهر بن البويطى والمزنى ومحمد بن عبد الحكم وجماعة وغيرهم .

كان حافظا حفظ الموطأ فى ليال وأخذ العربية من صميم العرب ولزم هذيلا وبقى فيهم مدة يرحل برحلتهم وينزل بنزولهم ثم رجع إلى مكة وجعل ينشد الأشعار ويذكر الآداب ويروى الأخبار وأيام العرب فمر به رجل من الزبيديين فقال له « يا أبا عبد اللّه عزيز على أن لا يكون مع هذه الفصاحة والذكاء فقه لتسود أهل زمانك به » . فقال ومن بقى حتى يقصد فقال له : مالك سيد المسلمين . فوقع فى قلبه ذلك وعمد إلى الموطأ فحفظه ورحل إلى مالك فأخذ عنه الفقه .

كان مالك يثنى على فهمه وحفظه ووصله بهدية لما رحل عنه وكان الشافعى يقول : « مالك معلمى وأستاذى منه تعلمنا وما أحد منٌّ علىَّ من مالك وقد جعلت مالكا حجة بينى وبين اللّه سبحانه وتعالى » .

ظهر مذهبه رضى اللّه عنه في مصر وكثر مقلدوه فيها . ثم انتشر بالعراق وخراسان والداغستان وما وراء النهر والبلاد القاصية لا يعرفون حجة بينهم وبين اللّه سبحانه وتعالى غير الشافعى . قاسموا الحنفية فى الفتوى والتدريس فى جميع الأمصار وعظمت مجالس المناظرات بهم ثم أدى ذلك لظهور كتب الخلافيات ووصل الأمر إلى رجال من أصحاب المظاهر فى المذهبين فكان ما كان من الحرب العوان التى قامت بين أهل المذهبين وعقلاء الأمة الإسلامية تتلافى للآن أمرها ولا تعان عليه ولا حول ولا قوة إلا باللّه .

نزل الإمام على بنى عبد الحكم بمصر فأخذ عنه جماعة من بنى عبد الحكم وابن القاسم وابن المواز وغيرهم ثم انقرض فقه أهل السنة من مصر بظهور دولة الرافضة (الفاطميين) وتداول بها فقه أهل البيت وتلاشى من سواهم إلى أن ذهبت دولة العبيديين من الرافضة على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب فرجع إليهم فقه الشافعى وأصحابه من أهل العراق والشام وعاد إلى أحسن ما كان ونفق سوقه واشتهر منهم محيى الدين النووى وابن الرفعة وتقى الدين بن دقيق العيد وتقى الدين بن السبكى والسراج البلقينى أكبر علماء عصره وغيرهم من أجلة العلماء وأكابر الفضلاء .

ذكر ثناء العلماء عليه بسبقه فى العلم والفضل

قال محمد بن عبد الحكم لزمت الشافعى فما رأيت أبصر منه بأصول العلم والفقه . كان صاحب سنة وأثر وفضل مع لسان فصيح وعقل رصين صحيح .

قال ابن عيينة أنه كان أفضل فتيان زمانه وكان إذا جاء ابن عيينة أمر من التفسير والفتيا قال : سلوا عنه هذا أى الشافعى . وكان يقول له مسلم بن خالد الزنجى شيخه وهو شاب فى مقتبل عمره . قد آن لك أن تفتى يا أبا عبد الله . وقال يحيى بن سعيد القطان إنى لأدعو فى صلاتى للشافعى لما أظهر من القول بما صح عن رسول الله ﷺ . وقال أحمد بن حنبل ما أحد يحمل محبرة من أصحاب الحديث إلا وللشافعى عليه منة وقال ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالسته وكان أفقه الناس فى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

كان الشافعى كالشمس للدنيا والعافية للناس وليس منه عوض .

وقال ابن معين لصالح بن أحمد بن حنبل . ما يستحى أبوك يمشى وقد أخذ بركاب الشافعى قال صالح : فقلت ذلك لأبى فقال : قل له إن أردت أن تتفقه فخذ بركابه الآخر .

كان حجة فى اللغة وآية فى الأنساب والأخبار : قال ابن هشام ذاكرته مرة وهو بمصر فى أنساب الرجال فقال له الشافعى بعد ساعة : دع هذا فإنه لا يذهب حفظه عنا ولا عنك ولكن خذ فى أنساب النساء فلما أخذ فى ذلك بقى ابن هشام ساكتا . وكان يقول ما ظننت أن الله عز وجل خلق خلقاً مثل هذا الإنسان .

وقال النسائى كان مفرداً فى ثقته وأمانته وقد ألف الخطيب أبو بكر بن ثابت البغدادى

كتاب الحجة بالشافعي وأثبته فى الصحيح وروى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : اللهم اهد قريشاً فإن عالمها يملآ طباق الأرض علما اللهم كما أذقتهم عذابا فاذقهم نوالا فكان وجوده رضى الله عنه مصداق قوله ﷺ .

واتصل به أيام محنته القول بخلق القرآن ، ومن كلامه « كلام الله ليس بمخلوق ومن قال مخلوق فهو كافر » .

ذكر بعض حكمه رحمه الله تعالى

من ولى القضاء ولم يفتقر فهو سارق . من حفظ القرآن نيل قدره ومن تفقه عظمت قيمته ومن حفظ الحديث قويت حجته ومن يحفظ العربية والشعر رق طبعه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه العلم . قيل للشافعي كيف أصبحت فقال كيف أصبح من يطلبه ثمان ! الله تعالى بالقرآن والنبى ﷺ بالسنة والحفظة بما ينطق والشيطان بالمعاصى والدهر بصروفه والنفس بشهواتها والعيال بالقوت وملك الموت بقبض روحه .

توفى الشافعى فى خلافة المأمون رضى الله عنهما بمصر عند عبد الله بن عبد الحكم وإليه أوصى . وذلك ليلة الخميس منسلخ رجب سنة أربع ومائتين ودفنه بنو عبد الحكم فى قبورهم وصلى عليه السرى أمير مصر .

كان رحمه الله خفيف العارضين أسمر اللون وقد ألف كتاب « الأم » وهو من أجل الكتب فى أصول الفقه جمع بين صحة المأخذ وبين متانة العبارة فهو الأم الولود حقيقة لكل حقيقة فى علم الفقه ومعرفة الأحكام .

قال الربيع كنا جلوساً فى حلقة الشافعى بعد موته بيسير فوقف علينا أعرابى فسلم ثم قال أين قمر هذه الحلقة وشمسها ؟ قلنا توفى . قال رحمه الله وبكى بكاء شديدا ثم قال رحمه الله وغفر له ما كان والله يفتح ببيانه منغلق الحجة . ويسد من خصمه واضح المحجة (1) ويغسل من العار وجوها مسودة . ويوسع بالرأى أبوابا منسدة . ثم انصرف .

وهو ثالث الأربعة الأئمة الذين تفتخر بهم جماعة المسلمين بممارستهم الكتاب الكريم وتمكن الاستنباط وكمال الفقه وحسن الصناعة وتمام العلم المتفردين بمعرفة أحكام الله سبحانه وتعالى فى المكلفين هداهم الله لخدمة العلم وبهم يهدي الله من يشاء الى الصراط المستقيم .

---

(1) المحجة : البرهان .

الإمام أحمد بن حنبل هلال الشيباني رضي الله عنه

هوالامام أبو عبد اللّه أحمد بن محمد بن حنبل المروزى الأصل . خرجت أمه من مرو حاملا فولدته رحمه اللّه تعالى سنة أربع وستين ومائة فى ربيع الأول ببغداد ولم يربه أبوه لأنه تركه طفلا . نشأ ببغداد فى طلب العلم وخدمته وسافر فى طلب الحديث من شيوخه ورحل إلى البلاد وروى عن كثير من كبار العلماء والمحدثين فدخل مكة والمدينة والشام واليمن والكوفة والبصرة والجزيرة وسمع من سفيان بن عيينة وإبراهيم بن سعد ويحيى القطان وغيرهم . نشأ عفا مستقيما يخاف اللّه ويخشاه فلا يتعدى محارمه أبداً روى أبو عبد اللّه قال : كان أحمد بن حنبل معنا فى الكتاب وكان الخليفة بالرقة ومعه خاصته فيكتبون الكتب إلى منازلهم فتبعث النساء إلى المعلم بأن ابعث لنا بابن حنبل ليكتب جواب كتبهم فكان اذا دخل البيوت لا يرفع طرفه أبدًا حتى كان الناس تعجب من حسن طريقته وأدبه عند ذكره .

بدأ فى طلب الحديث وهو ابن ست عشرة سنة ورحل فكتب عن علماء كل بلد وأول من كتب عنه الإمام أبو يوسف وكان يقول « أنا أطلب العمل إلى أن أدخل القبر » وأجتهد كثيراً فى نقل الأحاديث الصحيحة وبلغ ما نقله منها مقداراً عظيما جداً فاق حد التصور وأعجب به معاصروه .

كان متأدبا غاية الأدب متواضعاً غاية التواضع يرى ذلك عليه من غيره تصنع ولا محاباة فكان من فرط إجلاله لمشايخه لا يتكلم فى مجالسهم بشئ ويجيب من يسأله فى ذلك بأن الإنسان له لسان واحد وأذنان ليسمع أكثر مما يتكلم .

كان وحيداً فى عصره فى الاشتغال بالعلم والحفظ . كان يصلى العصر ثم يستند قائما إلى أصل منارة مسجده فتحتاط له الناس يسألونه الحديث وهويجيبهم ويحدثهم عن ظهر قلبه والكل قيام على أرجلهم إلى أن تجب صالة المغرب لا يفرغ ولا ينتهون .

لم يتزوج إلا بعد الأربعين حتى لا يتشاغل عن العلم بكسب ولا نكاح فبلغ من العلم ما أراد وكان يقول كتبنا الحديث من ست وجوه وسبع وجوه ولم نضبطه . كيف يضبطه من كتبه من وجه واحد .

كأن علم الدنيا كان بين عينيه جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف يقول ما شاء ويمسك ما شاء .

ومن لطائفه أنه سئل عن رجل حلف بالطلاق أنه لابد أن يطأ امرأته الليلة فذهب إليها فوجدها حائضاً فقال تطلق امرأته ولا يطؤها لأن الله تعالى قد أباح الطلاق وحرم وطء الحائض .

وكان لا يرى وضع الكتب لمسائله وكلامه . ولو رأى ذلك لكانت له تصانيف كثيرة ولدونت في أسفار ومع ذلك فله المسند صنفه سنة ١٨٠ وهو مائة وعشرون ألف حديث تكلم فيه على الناسخ والمنسوخ والتاريخ والمقدم والمؤخر وفسر جوابات القرآن والمناسك الكبير والصغير حتى قل أن تقع مسئلة إلا وله فيها نص في الفروع والأصول وربما عدمت في تلك المسئلة نصوص الفقهاء الذين صنفوا وجمعوا .

روى عنه جماعة كثيرة منهم البغوى ومسلم والبخارى وابن أبى الدنيا وأحمد بن أبى الحوارى وغيرهم . وقد ذكر المؤلفون له مناقب كثيرة جدا تدخل فى باب السعى فى طلب العلم والزهد فى المال وذكر محنته وشمائله .

كان امام المحدثين فى عصره وكان من أصحاب الإمام الشافعى ولم يزل مصاحبا له إلى أن ارتحل الشافعى إلى مصر : وقال الشافعى خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل .

دعى رحمه الله إلى القول بخلق القرآن (تلك الفتنة التى أيقظها أحمد بن أبى دؤاد فعمت خيرة الخلق وأصابتهم ببلاياها) فلم يجب عنها بشئ فضرب ضربا مبرحا ثم حبس وعذب بأنواع العذاب وهو مصر على الامتناع وكان ذلك فى شهر رمضان سنة عشرين ومائتين .

كان حسن الوجه ربعة ولم يكن فى آخر عصره مثله فى العلم والورع .

توفى ببغداد سنة إحدى وأربعين ومائتين ودفن مقبرة باب حرب وحضر جنازته من الخلق ما لا يحصى وإليه ينسب أحد المذاهب الأربعة الإسلامية وتعرف بالحنابلة .

ومقلدوه قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته فى معاضدة الرواية والأخبار بعضها لبعض وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث الشريف .

وكان كثيراً ما يتمثل بقول الصديق رضي الله عنه إذا مدحه مادح : « اللهم أنت أعلم منى بنفسى وأنا أعلم بنفسى « منهم اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون واغفر لى ما لا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون » .

نبذة تاريخية

(ماذا كانت مصر فى هذه الأيام أزمان انتقال الدولة من الأمويين للعباسيين وأزمان اضمحال الدولة العباسية) .

كانت على غير انتظام فى حالها ولا ثبات فى أمرها لأنها كانت تقوم وتقعد تبعاً لأهواء الولاة والعمال لعدم وجود التربية القومية فيها وضعف الرأى العام بين بنيها . وكونها فى الوجود فى منزلة غريبة من السذاجة التى تلقتها عن الأسلاف . منزلة تبعد عن منازع البدارة بعدها عن مقاصد الديانة . فهى لا أمة تحمى ذمارها بالسيف ولا حضرية تعيش تحت ظل الشريعة أو القانون . وإنما العامل الوحيد فيها مقاصد الحكام وهى عندها أعظم من كل إرادة لأنها كانت لا تطيق مقاومتها أبداً .

كان المصطنعون يتفانون فى تنفيذ إرادة الحكام مهما كانت حتى تذبذبت الأمة وانطمس منها مكان نور التفكر والتدبير وأصبحت مسخرة ترضى بالخضوع للمتغلبين عليها من الولاة الذين لا يزرعون فيها إلا ما تنزع إليه طبائعهم . ولا يوصلون إليها من جاه الخلافة وعزها وأدبها وارتقائها إلا بمقدار مستشفهم . ولذلك لم يصبها من الخيرات فى عهد الدولة الأموية ولا من المنافع العمومية فى أزمان الدولة العباسية بمقدار ما كان ينتظر ويظن من خلافة كخلافة الوليد بن عبد الملك المروانى الذى وضع يسراه على الغرب ويمناه على الشرق أو خلافة كخلافة المأمون العباسى الذى أحيى معالم العلوم .

كأنما هى فى جو آخر مخالفة للناس فى العوائد والأحوال مع ما طبعت عليه من السكون والدعة قانعة بما فيها من الثمرات مؤثرة الراحة على المتاعب لا تتعدى مبلغ قوتها وعوائد من قبلها .

دخلت عليها سن ٢٥٦ وفيها أحمد بن طولون عاملا للخلافة العباسية فوسوس له شيطانه حتى نادى بالاستقلال وسطا على الخلافة بسيفها وحارب الخلافة بجيوشه التى جمعها من أهالى مصر وغيرها واستماتوا فى هذه الحرب حتى عجز المعتضد عنه ووقع الصلح بينهما .

وقد تسامع الناس بالذى جرى من بعض أهل مصر ومن عاملها فكانت هذه الحادثة من أشأم الحوادث وأقبحها أثراً وموقعاً فى أمر الدين وجماعة المسلمين مزقت الخلافة العباسية كل ممزق وفتحت عليها باب التجزى والتبديد وحذا حذوه العمال فاستقلت جهات بخارى وصارت تدعى (المملكة الشرقية) وجهات أفغانستان وهم نحو من ستة ملايين أو ثمانية مـن سكـان الجبال والبوادى جلاد شداد وصارت (المملكة الغزنوية) ثم صارت (الدولة السلجوقية) وتبعهم (سيف الدولة بن حمدان) بالموصل هذا فى أسيا واستقل فى أفريقيا بنو الأغلب وهم اللذين كان ملكهم من حدود مصر إلى حدود الغرب الأقصى واتبعوا مسلك ابن طولون حذوك القذة بالقذة فأصبحت الخلافة العباسية مشذبة الأطراف مقطوعة الأوصال مفتوح عليها باب لا يسد وكان هذا من أهم انحطاطها وأكبر الدواعى التى اطمعت أخصامها فيها .

تنـزع فى بعض الأحـايين نفـوس بعض الـولاة أو العمـال الشريرة لمثـل هـذا العمـل (الاستقلال) دون أن تكون الأمة والبلاد مستعدة لما عساه أن يطرقها من الشدائد من بعده ولا قائمة بما ينبغى لها أن تقوم به من العوائد التى تحفظ كيانها بعد هذا التفرد .

الاستقلال هو عبارة عن قيام دولة فإن وقع على غير طبيعة الملك تهدم وهلك صاحبه لان المستقبل يلزمه أن يكون ظاهرا حتى على ذات الشوكة التى يريد أن يفصم عنها وينادى باستقلاله دونها لذلك تحاماه الكثير من أرباب الأمر وأصحاب الملك والسلطان مخافة أن ينقلب الأمر فتقع البلاد والعباد فى شر غير منتظر . نذكر منهم الأمير عبد الرحمن الداخل والسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب دخل الأول بلاد الأندلس وتناول الملك بقوة شكيمة ومضاء عزم وبعد أن انقاد له الأمـر سمى نفسه بالأمير ولم يـدع (بأمير المؤمنين) لا هو ولا أحد من بنيه لحد الثامن تأدبا مع الخلافة بمقر الإسلام ومنتدى العرب .

وملك الثانى مصر فاتحا وخلع العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ثم جدد الدعوة والخطب للعباسيين مع انقطاعها من مصر قرونا وأعواما .

كان ذلك الاستقلال لحكومة مصر على غير طبيعة الملك فلم يكسبها الرقى والفلاح والنجاح الذي أصاب غيرها منه . كأن الأمة لم تستعد له بعد ولم تختمر فيها مادة المعاونة مع صاحب الملك بالرأى والمفاوضة فيه ومعرفة مهمات القطر العامة والخاصة فتركت البلاد لمباشرة السلطان بغير مشاركة له فى أى صنف من أحوال ملكه شأن الكثير من الممالك الإسلامية.فلما انصرفت ولاية أحمد بن طولون عنهم تكشفت نفوسهم غير متهيئة

لعمل فاستسلموا لمن بعد وهكذا كان أمرهم مع كل طارق ورضخوا لكل حاكم ولو لم يكن بينه وبين الحكومة معنى مطلقاً كالدولة الأخشيدية وكدولة المماليك وأشباه ذلك ثم صاروا ملعبة فى يد الفاطميين الذين سنوا لهم سننا تعددت ضروب المحال كما هو معلوم .

(يضحك الرجل المجرب إذا كان بعد هذا يرى في بعض الأندية أفواها تتلمظ وأنوفا تشمخ بما يقرب من هذا المثال يغترون بالمرائى والظواهر التى بهرجت بها الأعداء ليقطعوا الوصلة بألاعيب السياسة وأساليب المكر والدهاء ﴿ **ومن نكث فإنما ينكث على نفسه** ﴾[1] . على أن فى التاريخ شواهد محفوظة وأمثال مضروبة تكفى الناظر لو نظر وعلم ما هو فيه من نعمة الارتباط لو قام بتنميته وسعادة الوحدة والائتلاف لو أنه يرعاها وأنها لو تمت لكانت من أجل النعم وأسبغها) .

سرى سوء الرأى فى تلك الأيام فى الأمة المصرية حتى عجزت في ذلك الوقت عن إقامة نظامها فى خاصة نفسها ونظام عائلاتها فى ضرورة معاشها ومهنها فما الظن بها في سياسة النوع الإنسانى وأنى لها بإمضاء الأحكام وإصلاح السابلة [2] وحمل الناس على مصالحهم وما تعمهم به الفائدة فى المعاش والمعاملات . نزلت مصر فى الأخلاق منزلة يظن الباحث فيها أنها محجوبة عن الحق لأنها وهنت وسهل ابتلاعها لضعفها عن النظر والتخلق بأدب الدين وأصبحت مركزاً للقلاقل وتعكير الفكر وتمكنت أغلال الاستعباد فى أعناق أهلها حتى قبلوا المذاهب العديدة التى قامت بها أصحابها فيما بينهم وكانت من أكبر أسباب التفريق .

انظر لما حكم به عليها ذلك الفاطمى (المعز لدين الله) على الغيب وهو فى أقصى المغرب من الضعف بسبب الفجور الذى كانت فيه باستطلاع لطيف وهو مفارقه أدب الدين الذى تتفجر منه ينابيع النخوة وتنشأ عنه القوة العاملة .

قال المقريزى رحمه الله فى خططه (عند ذكر الخلفاء الفاطميين) أن أم الأمراء والمراد بها أم الخلفاء الفاطميين يعنى والدة المعز) وجهت من المغرب صبية لتباع بمصر مع وكيلها ، وكأن ذلك كان علي سبيل التحسس لمعرفة أخلاق البلاد والعباد ، فعرضها بألف دينار فحضرت إليه فى بعض الأيام شابة على حمار وساومته الصبية بستمائة دينار (فإذا هى ابنة الأخشيد سلطان مصر) بلغها خبر هذه الصبية فلما رأتها شغفتها حباً فاشترتها لتستمتع بها فعاد الوكيل إلى المعز وأخبره بما وقع فأحضر الشيوخ وأمر الوكيل فقص

(١) سورة : الفتح : ١٠ . (٢) السابلة : أبناء السبيل .

عليهم خبر ابنة الأخشيد مع الصبية إلى آخره فقال المعز انهضوا إلى مصر فلن يحول بينكم وبينها شئ فإن القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك تخرج بنفسها وتشترى جارية تتمتع بها وما هذا إلا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم . فقالوا السمع والطاعة ونهضوا وكان الفتح . ثم توالت عليها الخلفاء الفاطميون حتى كانت مدة الحاكم فوقع منه ما لم يكن لأحد فى حساب .

انظر لهذه الحادثة وسلط عليها قوة الفكر وتناولها بسطوة العقل واستعمل فيها حذق أصحاب الاستنباط والاختبار تعلم وتتحقق أنه لا سبب لهذا الاختلال الذى نفث علينا سموم الدسائس وأثار فينا الفتن والوهن ومكن الأراجيف من العقول وفتح مجال الشر وأقام معترك المطامع وجعل البلاد مهبط البلاء إلا مفارقة أدب الدين والذهاب فى أثر التمدن الوضعى المبنى على القواعد الجديدة التي لا رابطة لها ولا وصلة بينها وبين عفة الأديان . وفى هذا ذهاب الغيرة وضعف النهضة الشريفة الإنسانية فإذا قيس حاضر على ماض فليعلم أن تمكن الأعداء من البلاد وضعف النفوس عن مقاومتهم لم يكن له سبب إلاهذا لأن الإنسان لا يذود غيره عن حوضه بسلاحه إلا وهو عالم يشرف ما فى ذلك الحوض من مال ونفس وعرض والخالى من الفضيلة والفضل معذور بالهجوم على ما لا يعلم والفرار من قرار الكمال حتى يحتجب عن الحق لأنه لا يدرى كيف يكون فى رقى وصلاح حال ولا إلى أى طريق يذهب فاللهم اهدنا سواء السبيل .

ألمعنا في النبذة السياسة التى مضت إلى ما كان من حال مصر وما جرى من دخول جوهر القائد بعسكر المعز لدين الله فيها بسبب الاختلال والفجور الذى ألم بأهلها وما كان من تأسيس الخلافة الفاطمية فى هذا القطر .

ومهما يكن أمر هذه الخلافة فى نظر كثيرمن المؤرخين وما تكلموا به من إثبات نسبهم أو نفيه عن أهل البيت كما سيأتى فقد كان لخلفائها من الدولة والسلطان ما قاسموا به بنى العباس في ممالك الإسلام بل كادوا يلحون عليهم مواطنهم ويزايلون من أمرهم واستمرت دولتهم نحواً من مائتين وسبعين سنة فتحوا فيها البلاد واستخدموا العباد واختطوا مثل مدينة القاهرة المدينة الفخيمة التى هى من وضع أول خلفائهم الخليفة (المعز لدين الله) ولذلك فنحن ذاكروه من بين خلفاء هذه الخلافة الفاطمية لهذه العلقة ولما اتصف به أيضا من الخلال والخصال الغريبة والحزم والعزم .

المعز لدين الله

هو المعز لدين الله أبو تميم معد بن المنصور بالله إسماعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن المهدي أبي محمد عبيد الله العلوى الحسينى ولد بالمهدية من افريقيا حادى عشر شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلاثمائة .

تولى المعز لدين الله الخلافة بالمغرب وكان ممن يهتف باسم مصر والاستيلاء عليها وله رسل تستطلع له خبرها كما قلنا وقد وافق ذلك موت كافور الأخشيدى (صاحب مصر) فاختلف فيها القلوب ووقع الغلاء وتتابعت الشدائد وحصل الأدبار وعجز رجال الدولة عن إدارة الأمور واختل حال الأقاليم المصرية وبلغ له تفصيل هذه الأحوال السيئة وهو بأفريقيا من تلك العيون التى كان أذكاها فى طلب خفياتها فسير المعز القائد « جوهر » غلام والده المنصور فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة فى جيش كثيف للاستيلاء عليها فلما بلغ من فيها من عسكر الأخشيد أمره واتصل خبر مسيره بهم هربوا عنها جميعهم قبل وصوله فدخلها واستوطن رحابها آمنا مطمئناً واختط القاهرة بقصرها واستقدم العزيز بالله من الغرب فقدمها فى شعبان وأقيمت له الدعوة فى الجامع العتيق فى جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وأذن فيه (بحى على خير العمل) وجهر فى الصلاة (ببسم الله الرحمن الرحيم) وهو أول ما أذن كذلك بمصر .

ابتدأت هذه الدولة (العلوية) بأفريقيا بدعوة أبى محمد عبيد الله أول من ولى منهم نحواً من سنة سبع وتسعين ومائتين ودخلت جيوشها (مصر) سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة . وانقرضت فيها سنة سبع وستين وخمسمائة على يد (صلاح الدين يوسف بن أيوب) فمدة ملكهم مصر مائتا سنة وتسع سنين وقد اتسعت أكناف مملكة هذه الخلافة وأقيمت الدعوة لصاحبها بالمغرب . ومصر والشام . وبعض أعمال العراق وطالت وتطاولت حتى اتصلت بالمواطن المطهرة فملكوا مقام إبراهيم عليه السلام ومصلاه وموطن الرسول ﷺ ومدفنه وموقف الحجيج ومهبط الملائكة .

كان المعز عالما فاضلا جوادا حسن السيرة منصفا للرعية منصتا لطلباتها فلما قدم مصر ساس الأمور ودبر الأحوال ولم يأل جهداً فى الإصلاح فصلح حال مصر عما كانت عليه

وزهت بالقاهرة وازينت بقصره فيها وتجملت بما ترتب فيها من الدواوين والمصالح ومواضع السكنى اللائقة بالخلافة وعظمتها .

اتسع نطاق العمارة فى أيامه فالقاهرة مقره برجاله وعسكره وعليها سياج من جلال . والفسطاط بعظمته محل تصدير وشحن الأرزاق والبضائع الصادرة والواردة ومحل سكنى الأعيان وأرباب الثروة ورجال العلوم والصنائع وكل ما يلزم بحال هذه الحضارة والعمران .

دخل بلاد مصر سائح عظيم من الفرس يعرف بالناصرى خسرو وألف فى سفره رحلة سماها (سفر نامه) يقول فيها إنه لوصف ما فى مصر من آثار السعادة والثروة لكذبه الفرس وكيف يصف مدينة قل أن يوجد لها فى عهدها شبيه لها خمسة أبواب كل باب آية فى ضخامته وفخامته وهندامه يعجز الحاسب فى تقويم نظامه . وأغلب البيوت والمنازل شاهقة متقنة الصنعة تشبه القلاع يتوهم الناظر إليها من حسن نظامها أنها مبنية بأحجار ثمينة والمساجد والوكائل والحمامات والدكاكين مما يعد بالألوف المؤلفة اهـ .

والذى يرى بعينه الآثار الباقية يصدق تلك الأخبار الماضية والواقف على تنظيم قصر المعز وما كان فيه من الخزائن للجواهر والسلاح والكتب يعلم مقدار ثروة الدولة وقوة هذه الخلافة ونفوذ بصر المعز وشدة إدراكه .

كان هذا القصر كعبة فضل يحج اليها القصاد والمعز فيه يأمر وينهى بين مظاهرقوة السيف برجاله وأمرائه ومعالم الفضل بشيوخه وعلمائه .

يطول بنا الكلام لو أردنا استقصاء رسوم الملك وأبهة الخلافة ولوازم القصر وملحقاته من الحلى والزينة والأمتعة والفرش والثياب والذخائر واحتياجات العسكر البرية والبحرية من سلاح وبنود وخيام وما يتجمل به الخليفة وخواصه وسائر رجاله وأتباعه وما ينعم به من النفائس الجليلة والمهمات العظيمة البالغة فى العظم والكثرة حداً لا تبلغه العبارة وخزانة الكتب التى اشتملت بحكايات كثير من المؤرخين (تحاكى قوة الإجماع) على ألف ألف وستمائة ألف كتاب وفيها من غرائب الدهر وعجائب الزمان ما لا يحصى . قال المقريزى : دخل هذه المكتبة أحد السواح فرأى فيها مقطعاً من الحرير الأزرق ومساكنها (أشبه بجغرافيا) وجميع المواطن المقدسة مبنية للناظر مكتوبة أسماء طرائقها ومدنها وجبالها وبلادها وأنهارها وبحارها بالذهب وغيرها بالفضة والحرير فقال يكفينى من

عجائب هذا ومن جنس هذه الأعجوبة الخيمة التى فاقت جميع المضارب والخيام المسماة (بالمدورة) كانت تضرب فى المحافل والرسميات تقام على فرد عمود ودائرتها خمسمائة ذراع وخرقها وحبالها وعدتها تحمل على مائة جمل وقد صور فى رفرفها صورة كل حيوان فى الأرض . فالقارئ يجرى الغائب من هذه النفائس على ما عرف ويقيسها على ما شهد فيتقرف ما كان عليه القوم من الرفاه .

كان هؤلاء الخلفاء ولعين بعمارة المساجد وحسبك الأزهر الأزهر والمقام والأنوار والمصلى الأطهر الذى جعله اللّه مجتلى العلم والتعلم . وخصه بلطفه وكرمه أن يكون موضع الإرشاد لسنة نبيه الكريم ودينه القويم هذا المسجد أول مسجد أسس بالقاهرة (لو كان ما اشتمل عليه من المنافع والمرافق حصل لنا بالسماع وهوغير واقع وتحت نظر كل واحد منا بالفعل لعددناه أعجوبة الزمان) مأوى العلم والعلماء وموطن الفقه والفقهاء وكل واحد من المشتغلين فيه له ما يكفيه من الرزق الناض على قدره ومقداره والتعليم فيه مباح بأنواعه والأروقة تأوى إليها طلبة العلم الغرباء فلا يلحظه النظر إلا هو معمور بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم كالفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ فالداخل فيه يجد من الأنس باللّه والارتياح وترويح النفس ما لا يجده فى غيره ثم لا يزال عماريته تزداد وشهرته تتعاظم حتى قصدته الناس من الآفاق فترى فيه خلقاً من جميع بلاد الإسلام تقصده لتعلم العلوم الشرعية والعقلية والنقلية من دروسه الدائمة المتصدر لقراءتها جهابذة العلماء والمحدثين ما بين مؤلف ومدرس وفيه الالوف المؤلفة من المجاورين من الطوائف المختلفة كأهل الحجاز واليمن والهند والسند والسودان والجاوه وبغداد والمغرب والشام والأتراك والأكراد وغيرهم من أهل مصر من جنوبها وشمالها فهو أشهر بقعة بعد المساجد الثلاثة وياله من مدرسة كبرى وبقعة نافعة يزول بها الجهل ويخلد فيا العلم وتتأدب بواسطتها النفوس وتتسع القرائح وتتنبه الفطن وتروق الأفكار وتتعين الآداب وتظهر الأسرار ويكتسب الشرق ويعظم القدر لو كانت تلك الشموس والأقمار التى تشرق فى أفقه غير محجوبة بسحب التقليد القديم خارجة عن مداراتها الأولى متأملة إلى درجة إحياء المعارف والعلوم ورونقها فى غير هذه البلاد غير ناظرة إليها نظر المستنكف آخذة من هذا الجديد بما حسن ولطف مما لا يمس عقيدة ولا يخالف ديناً . إذاً لأصبحت رحابه قبله لكل طالب وكعبة لكل قاصد بل يكاد الإنسان يحلف غير حانث أن الأزهر وحده كاف لحاجة البلاد بجميع أوجهها فهو مرضعة العلوم وأقرب مورد يمكن أن يستقى بمعارفه القطر ويظهر لكل إنسان براعة أهل البلاد ولكن .

مـا يشـاء ربك بفـعل قـادر	جل عن كل مقال واعتراض
قد تجمعنـا على غير هدى .	وتفـرقنا عـلى غيـر تـراض -
وتقارضـنا شـهادات التقى	ثم صرنا لـزوال وانقـراض .
واستعارت صحة أجسامنا	واسـتعانت بمـودات مــراض

(عود) كان للمساجد فى أيامهم رسوم وأحباس ولها ديوان مفرد وقضاة وعلماء تتفقد حالتها وهم أول من أقام الدرس بمعلوم . ثم فى مدة العزيز عمل الوزير بن كلس مجلساً فى داره يحضره الفقهاء والمتكلمون وأهل الجدل وكان يقرأ فيه فقه على مذهب الفاطمية .

كان لهم التفات غريب لملاحظة أمر المواسم والأعياد على طوال السنة ولهم فيها من البر والخيرّ والصدقات والإحسان فى الأيام التى يعينونها والليالى التى يبينونها ثم تطرق الخلل إلى سياستهم وكأنما كان ذلك لتعمقهم فى الرافضية أو لإلحاد بعضهم (كالحاكم) فدفع ذلك فى دعوتهم وجاء الطعن فى منتسبهم متمما لذلك فتغيرت تلك الأحوال بالحوادث التى توالت فى أيامهم الأخيرة تارة بالصلاح وتارة بالفساد إلى أن ألحت الحوادث وتوالت المحن فتغيرت تلك الوجوه الحسان وأزالت معالم الحسن والإحسان وبدلت رونقها من الجمال واعتاضت عنها بالأطلال والتلال . ومن يتأمل مدة كل خليفة منهم وأعماله يرى أن همة أغلبهم كانت متجهة إلى اتساع دائرة العمارة واليسار بسبب ذلك يصح للمؤرخ أن يعتبر القاهرة فى مدتهم مترقية جداً فى التجارة والصنائع والمعارف والعلوم التى لم تكن لها من قبل ولا حصلت لها من بعد والمبانى الضخمة المشاهدة التى لا تقوم إلا بالأموال الجمة والتقدم فى صناعتى البناء والتصوير كما تراه فيما بقى من ذلك من الأبواب كزويله . والفتوح والنصر ومن المساجد كالحاكم . والأنور يدل على علو قدرهم ورفعة هممهم وسعتهم فى دائرة السخاء والكرم وكذلك كانوا فى مراكبهم ومواكبهم واحتفالاتهم فى مواسمهم مما لو أراد الإنسان معرفته يجده فى مظانه من كتب التاريخ .

ثم زالت دولتهم على يد آخر خلفائها العاضد بالحوادث التى وقعت وأدت لقدوم السلطان صلاح الدين بن أيوب إلى هذه البلاد لإطفاء الفتن التى دهمتها فأطفأها وما عاد إلى البلاد الشامية هاجمتها العساكر الصليبية فاضطر لقدومه لمحاربتها وكان ذلك ثم وجد فى حال البلاد اختلالا لا يسكن إلا إذا سهر عليه الإنسان بالتدبير المقرون بالإصابة وحسن

الرأى المعروف بالإجابة وكأن البلاد سئمت ما هى فيه من المصائب المتوالية فلم يلق فى نزع يد العاضد من الخلافة وإعادة الدعوة للعباسيين أقل معارض وممانعة ففعل وتولى حكم البلاد بنفسه .

وقد انقضت تلك السنون وأهلها فكأنهـا وكأنهـم أحلام

تغيرت بتغير الدولة كل الأحوال حتى فى المأكل والمشرب وسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

هذه الخلافة طعن فيها أغلب المؤرخين وتكلم الكثير فى نسب القائمين بها وابتعادهم عن آل البيت رضى الله عنهم وادعوا أنهم معروفين باليهودية (نعوذ بالله من هذه المقالة) حتى عمل فى أيام الإمام القادر العباسى مخضراً يتضمن القدح فى هذا النسب وشهد فيه من شهد من اعيان العلوين خوفاً وتقية وغيرهم مجاراة وتزلفاً وزعم الأمير عبد العزيز صاحب تاريخ إفريقية أن أصحاب هذه الدعوى من بقايا اليهود الذين أسلموا فى صدر الإسلام نفاقا وما زالوا يتربصون الشر لجماعة المسلمين قصاصاً لما وقع لأسلافهم من تسفيه أحلامهم فقامت جماعة منهم في آخر خلافة الإمام على رضى الله عنه وأخذوا فى وضع الأحاديث الكاذبة وتشكيك ضعفة العقول فى الدين وآخرون أرادو استئصال الأمر بالقوة ومنهم هؤلاء .

والذى عليه أهل التحقيق أن نفى نسبهم عن آل البيت مجعول بأحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بنى العباس تزلفاً إليهم (كما هى العادة من القدح فيمن ناصبهم تفننا فى الشمات بعدوهم) بواسطة علماء السوء لما توفرت شيعتهم وانتشروا فى القاصية بدعوتهم وما زالوا كذلك والخلفاء قانعون بهذا السبب حتى قاسموهم الملك وشاطروهم السلطان وهذا مرض غريب وداء عجيب يصيب الكثير من الناس ويقع فى الأفراد كما يقع فى الدول فتراهم يقنعون بتصغير عدوهم وامتهانه وهم فى عماء عما يدبره لهم من المكايد ثم يزيد الحال ويتسع فتراهم يحسنون على الشاتم ويغدقون على الطاعن ويكادون يسجلون هذا البهرج الزائف الذى تريد أرباب الأغراض وسماسرة البغى والباطل ترويجه لهم وكله فرية وزعم وتبلغ بهم السذاجة إلى أنهم يشتشفون بهذا الباطل ويسكتون عما يقع فى ملكهم من النقص وفى سطوتهم من الابتزاز .

باد الكثير من دول الإسلام وانتقصت أطراف ممالك كثيرة بهذا السبب وهو تصغير

الأعداء فى نظر أولياء الأمور والاستهانة بهم والتهويل الشديد باستعظام شوكة صاحب الدولة والتعظيم له حتى يظن بعض السذج منهم أن وجود عدوه فى دار الحياة إنما هو استبقاء منه عليه وكرامة وتحنن وإلا فحياته فى قبضة يده ثم لا تمر عليهما الليالى وتتداول الأيام حتى يصبح والأمر ذو بال وعدوه قد أفسد عليه حاله ويتحقق أنه كان غارقا فى بحار الخديعة وأنه أصبح بين أمرين إما خوض المنايا لهذا العدو العنيد أو التجاوز له عن الأرض التى ظهر بعصيانه عليها وليته يقنع .

بهذا ذهب ما ذهب من فتوحات الأموين وأملاك العباسيين وبلاد وأراضى الدولة العلية العثمانية من الروملى والأناضول وغيرهما وبهذا السبب أيضا ذهب السودان المصرى وتجمعت فى هذا القطر فتنته الأخيرة .

سمعت ممن أثق به أن كل تلغراف كان يرد لأولياء الأمر من حكام السودان حال الفتنة مبدوءا فى أوله بقوله (بنفوس ولى النعم لا يكن هناك ما يكدر الخاطر وإنما ... إلخ) وما زال الحال كذلك حتى جاء تلغراف حصار الخرطوم مبدوءا بهذه المقالة أيضا فليت الناس يصرفون بعض الهمم على أمثال هذه الغوغاء فى أوائل ظهورها ويتركون الغش فتكفيهم مؤنة القتال والجدال فى أخرياتها خصوصاً فى هذا الوقت الذى ينبغى أن يكون للإنسان فيه أربع عيون لكثرة الدسائس وازدياد الأعداء الطاعنين فى ملة الإسلام الناقمين عليها وعلى القائمين بأمورها وليس ببعيد ذلك النقد على من يكون ذا بصيرة ثاقبة لأن أحوال أولئك المنافقين تتبدى ظاهرة للعيون الصادقة .

ومهما تكن عند امرئ من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم ا هـ

(تنبيه) إلى هنا انتهى بالكلام على الخلافة فى المشرق ما بين الشام وبغداد ومصر وسنبدأ بالكلام على الخلافة فى المغرب مبتدئين بخلافة عبد الرحمن الداخل .

عرف القراء مما كتبناه أنه لما نزل ببنى أمية ما نزل بالمشرق وغلبهم الدهر على أمرهم مثل غيرهم من ساسة الدول وسلاطين الزمان وقتل آخر خلفائهم مروان بن محمد بن الحكم طلب بنو أمية بطن الأرض بعد ظهرها والدهر حسود لمن يسود ولكل هبوب ركود وكان ممن أفلت عبد الرحمن بن معاوية . خرج من الشام سنة ثنتين وثلاثين ومائة وظل سائراً فى إفريقيا ينتقل من مكان إلى مكان حتى وصل الأندلس بعد ست سنوات ودخلها سنة تسع وثلاثين ومائة وشيد فيها دولة أموية بجده واجتهاد الملازم لهما التوفيق والسعود

وأصبح رأس الدولة بعد ما فيه من قنوط الهارب ويأس المطلوب من عدوه القادر وارتقى في المغرب لمقام جدد فيه ما طمسه الزمان لبني مروان. في المشرق من الملك العظيم والسلطان العزيز وأحيا ما اندرس من معالم الخلافة وجدد ما نسي من اسمها .

لذلك جعلنا اسمه الكريم مفتتح الخلافة الأموية بالأندلس بعد أن فرغنا من ذكر من يسر الله ذكر أسمائهم من خلفاء الدولة الإسلامية ببغداد .

عبد الرحمن بن معاوية

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (المعروف بالداخل لقب بذلك لأنه أول داخل من ملوك مـروان إلى الأندلس) وهـو رأس الدولة الأموية الأندلسية كان شجـاعا همـاما كريما جليما ذا حزم وعزم أصهب خفيف العارض بوجهه خال طويل القامة نحيف الجسم .

كانت عزمات هذا الخليفة تجعل قومه يتحينون فيه ملكا ويرون فيه علاماته : آية من آيات اللّه تعالى أن يقطع هذا الخليفة البر والبحر ويقيم ملكا أدبر ويركب من الأخطار ما يركب ويقصد الأندلس من أنأى ديار المشرق من غير عصابة ولا أنصار فيغلب أهلها على أمرهم ويتناول الملك من أيديهم بقوة شكيمة ومضاء عزم ويقاد له الأمر ويجرى على اختياره ثم يورثه عقبه . آية من آيات الله مع هذا الملك الضخم الذى أتيح له والدولة المتسعة التى كان فيها لا يسمى نفسه بأمير المؤمنين تأدبا مع الخلافة بمقرالإسلام ومنتدى العرب وتبقى هذه التسمية إلى الخليفة الثامن من بنى أمية بالأندلس حتى حدث من ضعف خلفاء بنى العباس ما حدث ووقعت غلبة الأعاجم . انظر لهذا الجد والاجتهاد ونأمل لهذا الميل بارتباط كلمة الدين والرغبة فى عدم قطع دعوة آل العباس مما أصبحت فيه جماعة المسلمين من الانقطاع .

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة　　　فيهـا أمير المؤمـنين ومنـبر

أفلت هذا الخليفة وخلص إلى المغرب واجتمع بموالى المروانيين وأشياعهم وبثوا له دعوة ونشروا له ذكرا ووافق قدومه انكشاف يوسف بن عبد الرحمن الفهرى من عسكره (بسبب ما كان من الإحن بين اليمنية والمضرية) ولم يبق معه من الجيوش ما يلقى به الأمير عبد الرحمن فانهزم فى ظاهر قرطبة ثم لجأ إلى غرناطة فتبعه الأمير وناجزه الحرب ورغب فى الصلح فعقد له على أن يسكن قرطبة وكان ذلك . ثم أدرك الأمير عبد الرحمن بالأندلس (عبد الملك بن عمر المروانى) وكان بمصر فلما دخلت المسودة أرضها خرج يؤم الأندلس فى عشرة رجال من قومه مشهورين بالبأس والنجدة فلما وصلها عقد له الأمير عبد الرحمن على إشبيلية .

ثم نقض يوسف بن عبد الرحمن عهده الذى عاهد به ونكث وخرج فسير الأمير بقائة (عبد الملك بن عمر المروانى) المذكور فلما تناجزا كانت الدائرة على يوسف ثم اغتاله أحد أصحابه وتقدم بقتله إلى الأمير واستقام الامر واستقر بقرطبة وثبت قدم الأمير عبد الرحمن فى الملك .

أسس هذا الأمير بمفرده الدولة التى بقيت زاهية إلى ما بعد المائة الرابعة . شاد فيها من معالم الدين والدنيا ما لا يدرك لغير شاد فيها جامع قرطبة الذى أنفق فيه ثمانين ألف دينار ومات قبل تمامه وبنى مساجد أخرى وصير لبنى أمية ملكا ضخما له من العز السامى العماد ما بلغ غاية الآباد بالجد والاجتهاد وأقام لهم دولة متسعة كانت أنبل دول الإسلام وأنكاها فى العدو وبلغت من العز والنصر ما لا مزيد عليه .

حارب (الأزفونش) والبورتغال وخاطب فارلو ملك الإفرنج وكان صعب المراس فما زال به حتى أوجبه إلى المداراة والموادعة بالسلم وجعل فى هذا الثغر القاصى (ثغر الأندلس) من حلية الملك ما أرهف به سيف عزه بسلطانه وحنك أهله بالسيرة الملوكية وأخذهم بالآداب السلطانية فأكسبهم المروءة وأقامهم على الطريقة المثلى ثم دون الدواوين وجند الأجناد وفرض الأعطية وعقد الألوية وأقام للملك آلة وللسلطان عدة اعترف بعظمتها أكابر الملوك حى حذروا جانبه وتحاموا حوزته وما زال يمازج فى معاملة الملوك التى تجاوره بالعنف وباللطف أخرى حتى دانت له البلاد واستقل له الأمر فيها وظهر له ظاهرها وخافيها وأدركت أعداؤه ما هو عليه من عظيم القوة مآلا وحالا وعلمت أن لله رجالا .

رفعت الأمير عبد الرحمن (قوة الفضيلة . وصدق الحس . وبعد الغور . وسعة الإحاطة) حتى إن مناظره الإمام أبا جعفر المنصور كان يسميه (صقر قريش) وقد عرف له حقه وعدله بل استرجحه عن نفسه وليس لواصف أن يصفه فينصفه بعد قول هذا الإمام فيه . قال لجلسائه : « لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه فالشأن فى أمر فتى قريش الأحوذى [1] الفذ فى جميع شؤونه وعدمه لأهله ونشبه وتسليه عن جميع لذلك ببعد مرقى همته ومضاء عزيمته حتى قذف نفسه فى لجج المهالك لابتناء مجده فاقتحم جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع عصبية الجند ضرب بين جندها بخصوصية وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته انقاد له عصيهم وذل له أبيهم

(١) الأحوذى : الحاذق .

فاستولى فيها على أريكته ملكا على قطيعته قاهراً لأعدائه حامياً لذماره مانعاً لحوزته خالطاً الرغبة اليه بالرهبة منه « ان ذلك لهو الفتى كل [illegible] لا نكذب مادحه » .

هذا هو السر فى قوة الفضائل التى تحلي الإنسان بالرجولية والصرامة والاجتراء فتجعله ممدوحاً على كل لسان حتى على لسان أعدائه (والفضل ما شهدت به الأعداء) .

أصبحت الخلافة الإسلامية بسببه خلافتين خلافة أموية فى الأندلس وعباسية ببغداد وكانت سيرة خلفاء الأندلس أحسن من سيرة غيرهم فى الجملة . سار سيرة حسنة لم يلامسها روح الشقاق ولم تنزع فيها النفوس للخروج على السلطان . كان رحمه الله قسطاساً للعدل يقعد للعامة يسمع منهم وينظر بنفسه فيما بينهم فيصل بالضعيف إلى رفع ظلامته دون مشقة ويردع الظالم عن بغيه وعتوه وكانت مدة ملكه ثلاثا وثلاثين سنة وأربعة أشهر قصرت عن بلوغ أمانيه التى كان يتمناها . نعم أنه غزا فيها بلاد الإفرنج (والبشكنس) ومن وراءهم ورجع بالظفر ولكن أين هذا مما كان يريده من إعادة دولة بالمشرق كما كانت فى أبهتها وسطوتها قبل الخلافة العباسية .

استقر بقرطبة وهو الذى أدار عليها السور وأقام بها المبانى الضخمة فأصبحت موضع العجب بآياتها الباهرة فى الصناعة والأعمال العجيبة تحج إليها السواح من كل جانب لا يرفعون نظرهم لشئ من عجائبها إلا ويرد إليهم طرفهم مبتئسا يعيهم أثرها عن حذو تمثالها بتمثال ويعجزهم عن أن يتحدوه بمثال .

ألا فلتعجب جماعة المسلمين بمثل هذا الأمير وتفتخر به فخرها بعمل من لا يساويه من أهل تلك الملل الأخرى فإن فى أفعاله جميع الضروب والأشكال التى نقصد فى المنافع كسعادة الأمم وتربيتها وإقامة الدول وحفظها من الانحلال . ولو أن رجلا اتصل بدار وهو من غير أهلها وقدر على أن يملكها منهم وأن يستخدمهم لذاته ثم ينظر فى وجوه سعادتهم فيدنيهم منها ويسهل لهم أبواب الخير حتى يعيش معهم ويعيشون معه فى أرغد عيش لعد ذلك عملا عظيما ودهاء كبيرا فكيف بمن يفعل ذلك بإقليم حشوه قوم جلاد شداد وقد أحاطت به دول فى غاية ما يكون من القوة والقدرة . اللهم إن هذا من أعجب العجب .

يدهش الإنسان سمو هذه الغايات الشريفة التى مهما طوتها الأيام وأخذت من زينتها لا تزال محلا للمناظرة وموضعا للمباهاة تبدى زينتها وتباهى بنفسها حتى يذعن لها العدو والمعاند والمنكر الجاحد ثم يندهش الإنسان من تلك الحوادث التى طرأت على هذه المدنية العظيمة حتى أحالتها إلى همجية بل أبادتها من يد أهلها .

كل هذا إنما نشأ من عدم رعاية خلفاء الإسلام لحفظ آثار بعضهم وأنهم لا ينظرون لها باعتبار أنها من عملهم يفرحون بزوالها وحلول الخراب فيها لتنسى الناس بذلك أسماء المشيدين لها كأنما أولئك كانوا من أشد أعدائهم أما بغير هذا فمحال أن تذهب آثار الإسلام من على وجه الأرض وعلى الخصوص ما كان منها فى هذه الأقطار مما اتحدت الألسنة على أبهته وضخامته وجلالته .

الحاكم أبو الأمة والكل عياله والعلم سلم الترقى الذى يعرف به الولد حق أبيه ويدفع الوالد لأداء حق ولده وهوظاهر اليد من نعمته التى أنعم اللّه بها عليه فتتقوى أركان المملكة ويعظم جسمها وتتناهى فى العمران بعظم ثروتها وتوفر أعدادها واتساع بلادها فتسعد بالصلاح والإصلاح ويغمد بسر العدل والإنصاف ذلك السيف الفتاح . فاللهم هئ لنا الخير وافتح لنا أبوابه وأسبل علينا من فضلك وعنايتك ما ييسر لنا صعاب أمورنا واهدنا وأرشدنا إلى خير العمل حتى ندرك المعنى الذى به تتم الصالحات آمين .

الحكم بن هشام

هو الحكم بن هشام بن عبد الرحمن ثالث من ملك الأندلس من الأمويين تولى بعهد من أبيه هشام بن عبد الرحمن الداخل .

كان هشام والده يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فكما أنه كان يبعث بقوم من ثقاته إلى الكور فيسألون عن سير عماله وأعمالهم ويخبرونه بحقائقها فإذا انتهى إليه حيف أحدهم أوقع به وأسقطه وقاصه كان متفقداً أيضا لحال أبنائه ومن يظن انتهاء أمر المسلمين إليهم من بعده . وهذه خلة من خلال عبد الرحمن الداخل ورثها أبناءه وعلمهم ترشيحهم وتثقيفهم على الأمر وبين لهم مزية السؤال عنهم وعدم إهمال تربيتهم وتثقيفهم وتدريبهم .

لذلك نشأ « الحكم » منشأ حسناً فكان فى معاليه صاعداً وفى مراقيه سامياً واستولى على شرف التأدب . فكم من مطالب لذواهب المجد والفخر أدركها ومغانم من عوائد الحمد والشكر تخولها .

تولى بعد موت أبيه هشام سنة ثمانين ومائة فاستكثر من المماليك ومن رباط الخيل وأعد ما استطاع من القوة فاستفحل ملكه وسد مكانه واجتمع من بحضرته من أهل بيته وقواده ومواليه وغلمانه وجنده على متابعته ومشايعته فباشر معهم الأمور ثم حدثت فتنة بينه وبين عميه اغتنمها العدو واعتدها فرصة وقصد برشلونة فامتلكها وتأخرت عساكر المسلمين إلى ما دونها بسبب فتنة الأقارب (وكذلك يفعلون) .

ثم بعث الجند إلى بلاد الجلالقة وأثخن فخالفهم عدوهم إلى المضايق فرجع على التعبية وظفر بهم وخرج إلى بلاد الإسلام ظافرا .

يقال عن هذا الامير أنه كان فى صدر ولايته منهمكا فى لذاته فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثى صاحب مالك وأحد رواة الموطأ وطالوت الفقيه وغيرهما وما زالوا به حتى اقتتلوا معه فى طاعة الله : العلماء فى ناحية والأمير فى ناحية . ثم انتهى الأمر بعد قتل وقتال وتغريب وتشريد .

هذه الحادثة شذت عن القياس فى محاربة الأمير لعين أعيان دولته وخيرة أنصار دعوته . ولكن انظر لحال العلماء ومعاملتهم لأمرائهم وتقويم اعوجاجهم بالسيوف تجد أن تلك موعظة يجب النظر إليها بعين الاعتبار وأمثولة تستحق أن تحفظ . اعتدل بعدها حال الأمير وازداد تخلقه بالأخلاق الحميدة واستمر على الطرائق الرشيدة وأوضح له الله السداد وأنار منهاجه وعرفه يمنه وبركته .

دخلت عليه سنة اثنتين وتسعين ومائة فجمع (لذريق بن فارلو) ملك الفرنجة جموعه وأغار بها على بلاد المسلمين وسار إلى حصار طرسونه فبعث الحكم بن عبد الرحمن بعسكره فهزمه بإذن الله وفتح الله على المسلمين وعاد ظافرا . ثم كثر عيث الإفرنج وعبثهم فى ثغور وحصون الأندلس و « الحكم من طرف ورجاله من طرف آخر يثخنون في القتل والقتال حتى عاد إلى قرطبة ظافراً » .

ثم فى سنة ٢٠٠ بعث العساكر مع ابن مغيث إلى بلاد الإفرنج فأخذ عدة حصون وأقبل عليه (اليط) ملك الجلالقة فى جموع عظيمة وتنازلوا على نهر واقتتلوا أياما ونال المسلمون منهم أعظم النيل فقفل المسلمون ظافرين ظاهرين .

هو أول من جند الأجناد واتخذ العدة وكان فحل بنى أمية بالأندلس وأشدهم إقداما ونجدة . قال بعض المؤرخين أنه كان يشبه أبا جعفر المنصور من خلفاء بنى العباس فى شدة الملك وتوطيده وتمكين الدولة وتشييدها وقمع الأعداء وكان يحب الخير ويعين عليه ويراعى صنعه وينمى غرسه ويسبغ نعمته إذا أولاها ويتمم عارفته إذا أسداها من ذلك فعله فى المجاعة الشديدة التى وقعت سنة سبع وتسعين ومائة التى أكثر فيها من مواسات أهل الحاجات والفقراء حتى سارت بخبر خيراته الناس ودونتها الرواة .

استمرت مدة ملكه ستا وعشرين سنة . قال غير واحد أنه أول من جعل للملك بأرض الأندلس أبهة وشأنا وهو أول من جمع الأسلحة والعدد واستكثر من الخدم والحواشى والحشم وأعد رباط الخيل على بابه وكانت الجياد التى على شاطئ النهر قبلى قصره ألفى فرس وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس وكان يباشر الأمور بنفسه ويقرب الفقهاء والعلماء والصالحين وهو الذى وطأ الملك لعقبه بالأندلس .

ومن أعجب ما يروى عنه أن العباس الشاعر توجه إلى الأندلس فلما نزل وادى الحجارة سمع امرأة تقول : « واغوثاه بك يا حكم لقد أهملتنا حتى كلب العدو علينا فأيمنا

وأيتمنا » فسألها عن شأنها فقالت : « كنت مقبلة من البادية فى رفقة فخرجت علينا خيل عدو فقتلت وأسرت . فصنع قصيدته التى أراد أن يلقاه بها أبياتا منها :

تململت فى وادى الحجارة مسئداً ... أراعـــى نجوماً ما يـرون تغيرا

إلـيك أبا العـاصى نضـيت مطـيى ... أسير إليكم سـاريا ومهجــرا

تـدارك نـساء العـالمين بنصـــــرة ... فإنك أحرى أن تغيث وتنصرا

فلما دخل عليه أنشده القصيدة ووصف له خوف الثغر واستصراخ المرأة باسمه فأنف ونادى فى الحين بالجهــاد والاستعداد فخرج بعد ثلاثة إلى وادى الحجـارة ومعـه الشـاعر وسأل عن الخيل التى أغارت من أى أرض للعدو كانت ؟ فأعلم بذلك فغزا تلك الناحية وفتح حصونها وخربها وأحضر المرأة وجميع من أسر له أخذ فى تلك البلاد وقال للعباس سلها هل أغاثها (الحكم) ؟ فقالت : والله وشفى الصدور وأنكى العدو وأغاث الملهوف فأغاثه الله وأعز نفره . فارتاح لقولها هذا .

مثل هذه النجدة الآن تعجز أوروبا بأجمعها عنها ولقد أعجزتها فعلا فى مسئلة البوير فلم تنبس ببنت شفة وأبح صوت الشيخ الرئيس كروجر فرط النداء والاستصراخ ﴿ **وما أنت بمسمع من فى القبور** ﴾ [1] قبور الشهوات والملاذ التى أنست الناس الفضيلة ومكارم الأخلاق وصبحتهم لا يعرفون شيئا غير صيانة هياكلهم فى حصون الجبن حتى أصبح الصدق تقريعا والنصح والإخلاص تضييعاً وكأنك لو نظرت لتاريخ أوروبا والمشرق لا تجد غير ذلك : اندفاع إلى المنفعة والمغانم بغير نظر إلى شرف أوفضيلة .

إنا لو شئنا سرد الشواهد على أن مدنية أوروبا (بالقول لا بالفعل) لاحتجنا إلى تأليف جديد ولكن الظن بالقراء أنهم يكتفون ببعض هذه الظاهرة والأغراض السياسية الكاذبة مما لايوجد فى بلاد المسلمين أبداً لأنهم يجهلون التلفيق والتمويه فى الحقائق وإبرازها فى أثواب الزور المدبجة بألوان التمدن العصرى .

---

(١) سورة : فاطر : ٢٢ .

عبد الرحمن بن الحكم

هو عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام الأموى . هو أبو المطرف عبد الرحمن الثانى ملك الأندلس يقال له عبد الرحمن الأوسط لتوسطه بين عبد الرحمن الأول والثالث .

ولد بطليطلة سنة ١٧٦ وتولى الخلافة سنة (٢٠٩) على إثر وفاة والده وعمره ثلاث وثلاثون سنة وولى الحكم ثلاثين سنة وتوفى سنة تسع وثلاثين ومائتين .

كان عبد الرحمن أسمر طويلا أقنى الأنف عظيم اللحية حازماً قوياً شجاعاً جمع الله فيه مابين لطف الأدباء والشعراء وفضل العلماء وشجاعة القواد ومهابة الحكماء فكان نادرة زمانه .

هذبه أبوه الحكم وعوده على الجلوس على مراتب الملك والسلطان لأنه استعان به فى مهمات أموره من الوظائف السلطانية التى تندرج تحت الخلافة ويشتمل عليه منصبها من أحوال الدنيا والدين فأنفذه فى عظام المهام وولاه قيادة الجند فى محاربة الإفرنج وتذليل البلاد الثائره فأصبح له من النظر بأمور الجند والسلاح والحروب والبصر بسائر أمور الحماية والمطالبة بالحقوق مايكفى لمثل هذا المقام وحسبك أنه هو الذى أخمد فتنة طليطلة باليوم المعروف بيوم الحفرة المبسوط خبرة فى مواضعه من كتب التاريخ .

تولى الملك بعزيمة الصلاح ومساعى النجاح وأولاه الله العز والنصر وخص أعداءه بالذل والقهر . فقد خرج عليه عم أبيه (عبد الله البلنسى) ينازعه الملك فلم يلبث أن مات وخلصت الحكومة له فصرف همه لإخماد الفتن داخل بلاده ورد غزوات الإفرنج عنها ورفع معالم العلم فيها وكان له الفوز فى أكثر حروبه واستولى على برشلونه وغيرها من البلدان وطرد الفرنساويين من قطالونيا .

وقف حائلا بين النوائب وبين مملكته دافعاً عنها أحداث الزمان آسياً لكلومها [١] جابراً لثلومها [٢] ففى عام توليته أخمد فتنة البيره وأوقع بأهلها الوقعة المعروفة بوقعة بالس . وفى السنة التالية سير جيشاً إلى بلاد (البة) مع عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث فحاصرها

(١) آسيا لكلومها : معالجا جراحها .
(٢) ثلومها : عيوبها .

وأحرق عدة حصون بها وغنم الغنائم وعاد بعد أن صالح أهلها على مال كثير .

وقعت هيبته فى قلوب ملوك الإفرنج ففاز فوزاً عظيما وغزا بلادهم مرات . ووفق لإخماد الفتنة اليمانية والمضرية ببلاد مرسية ودانت له وافتتح برشلونه مرة ثانية بعد ما انتقضت عليه وهدم سورها . ثم فتح مدينة باجه واستولى على مدينة طليطلة ثم كانت له وقائع كثيرة مع الأسبان فى أطراف بلاده والفرنسويين وكان الفوز له في معظمها مع الغنائم الكثيرة .

كانت فى أيامه غزوات النور منديين المعروفة في تواريخ العرب (بغزوات المجوس أو ظهور المجوس) واختلف القوم فى تواريخ حدوثها وفى تعداد غزواتها ومنهم من جعلها غزوتين والأظهر أنها غزوات متتابعة لم تكن ذات شأن فى أول الأمر . ثم أقبل النور منديون فى أوائل عام ٨٤٥ مسيحية بجيش جرار فى سفنهم وعاثوا فى سواحل الأندلس ونهبوا (قادس) وظفروا بالمسلمين ثم ساروا إلى إشبيلية فى السنة التالية فخرج إليهم أهلها وقاتلوهم فقتل الكثير من المسلمين وانهزموا وأكثر النورمنديون من النهب والسلب وعاثوا فى البلاد وعادوا إلى مراكبهم ثم خرجوا منها وحشد عبد الرحمن جيوشه من كل البلاد وكانت بين الفريقين حرب شديدة فاضطر النورمنديون إلى الرحيل عن إشبيلية ولكنهم ظلوا ينتقلون فى السواحل ويعيثون سلباً ونهباً إلى أن تمكن عبد الرحمن بعد الجهد الجهيد والعناء الشديد من طردهم عن بلاده .

وصلت جيوشه إلى مدينة ليون ورموها بالمجانيق فهرب أهلها عنها وتركوها فغنم منها المسلمون غنائم كثيرة .

كانت الخلافة بالأندلس لا تشبه غيرها من خلافات المشرق لما يلزمها من شدة الحذر وطول السهر وقلة الراحة ودوام اليقظة لأن غارة جيرانها من الأمم المباينة لها لا تنقطع ولأن المسلمين فيما بينهم (جسم غريب) وكل فرد من هذه الشعوب ليس له هوى غير الانتقام منهم والتمكن من إعادة أرضهم وملكهم إليهم والحوطة عليه وشغلهم أن يبقوا متكالبين على الطلب ومنتهى آمالهم أن يعيدوها كما كانت لا يغفلون عن ذلك أبداً وليسوا بصامتين فيحتاجون إلى من ينطقهم ولا لاهين فيضطرون إلى من ينبههم بل متعرضين لذلك تعرض المستميت بعزم الواحد لا المتكلف ولا يزال حكماؤهم ينصحون به الناس على طول الأيام والناس فاعلون .

حال العدو المحارب وأشد منه حال الصديق المخادع . والرصيف [1] المنافق . وهم الذين يرصدون مراصد الكيد للدولة من العمال فقد انتقض عليه بعض عماله يدعون للخلفاء العباسيين ببغداد (ولو كانوا ببغداد لدعوا فيها للأمويين بالأندلس) فكان هؤلاء من طرف وحروب الأسبان من جهة أخرى حتى استقلت ولايتا (ارغوان) و (نواره) عنه . ومع هذا فقد ترك ملكا قويا خلفه عليه ابنه (محمد) .

بلغ مرتبة تقطعت دونها أنفاس المنافسين وتضرمت أحشاء الحاسدين من الثأى الذى رأبه والشعث الذى لمه والعدو الذى أرغمه فبعث إليه (نوفلس) ملك القسطنطينية بهدية وطلب مواصلته ورغبه فى ملك سلفه بالمشرق (تأمل لهذا الحذق فى بذر بذور الشقاق وانظر سهام المكابدة النافذة) وذكر له المأمون والمعتصم فى كتابه وعبر عنهما (بأسماء أمهاتهما) امتهاناً فلاقت هذه الحالة من الأمير عبد الرحمن رجلا خبيراً حكيما فدفعها بدهائه وكافأه على هديته وبعث إليه (يحيى الغزال) من كبار أهل الدولة وكان مشهورا فى الشعر والحكمة فاحكم بينهما وصلة الحب وارتفع لعبد الرحمن عنده ذكر وأى ذكر .

كان واسع الرزق فى كل شىء حتى فى ذراريه فقد مات عن ٤٥ ولداً ذكوراً وكان أديباً شاعراً عالماً بالشريعة وغيرها من علوم الكلام بعيد الهمة . وهو أول من شاد القصور الجميلة والمتنزهات ومهد الطرق وأتى بالماء العذب إلى قرطبة من الجبال وبنى المدارس وأسس ديار العلم وشاد الجوامع الكثيرة وبنيت فى أيامه الجوامع بكور الأندلس وزاد فى جامع قرطبة ومات قبل أن يتمه فأتمه ابنه (محمد) .

هو رابع ملوك الأمويين بالأندلس ولكنه أول من أقام أبهة الملك وكان محباً للعلماء . والأدباء جمع إليه ذوى الشهرة من شعراء العرب وذوى الفضل منهم ويعترف الأروباويون أنه لم يكن فى زمانه دار ملك كدار ملكه أبهة ومجداً .

لعل عبد الرحمن هذا هو الذى نقل هيئة الحكومة إلى مارمز إليه العلامة ابن خلدون فى مقدمته من غير أن ينسبه لأحد قال فى كلامه على العمران البدوى : وأما دولة بنى أمية بالأندلس فألفوا اسم الوزير فى مدلوله أول الدولة ثم قسموا خطته أصنافا وأفردوا لكل صنف وزيرا فجعلوا لحسبان المال وزيراً . وللترسيل وزيراً . وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيرا. وللنظر فى أحوال أهل الثغور وزيراً وجعل لهم بيت يحلون فيه على فرش منضدة

(١) الرصيف : الملاحق للإنسان .

لهم وينفذون أمر السلطان كل فيما جعل له إلخ) وهذا شيء أشبه بنظار الحكومات الآن (ولعله مبتدعه) .

دخلت في مدته صناعة الغناء من المشرق إلى الأندلس بوفود زرياب المغني مولى المهدي من العراق إليها وهو تلميذ إبراهيم الموصلي فركب بنفسه إليه وتلقاه وأكرمه وأقام عنده بخير حال وأورث صناعته أهل المغرب وخلف أولاداً وخلفه في صناعته وخطوته كبيرهم عبد الرحمن ثم انقطع هذا إلى أزمان الطوائف .

وغير خاف ان هذه الصناعة هي آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لأنها كمالية في غير وظيفة من الوظائف إلا وظيفة الفراغ والفرح وهي أيضا أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه أو تبدله (كما هو واقع بمصر الآن) ولا مشاحة في أن هذا الفن من أجل الفنون لأنه ينفع المرضى كما ينفع الأصحاء وقد كشفت العلوم الجديدة والتمدن الحديث لزومه لكيان الوجود والحياة لزوم الماء والشعب وأن عليه مدار صحة الأمم لأن الفراغ واللذة بعد الكد والعمل لا بد منهما وإلا فالمنبت [1] هالك لا محالة .

وهو أول من أحدث النقش في الخاتم بمزيد من الاسم فكان نقش خاتمه (عبد الرحمن لقضاء الله راض) وكانت أيامه أيام رغد وهناء على مافيها من الحروب بل الفتن الداخلية وذلك لأنه كان يتلقاها بفكر ورأى وثبات جاش وحزم فلا تلبث الفتنة أن تزول ولذلك بلغ في ملكه اتساعاً عظيما وجنى مالا كثيراً وكان طروباً فخوراً بجده وأعماله اللائقة فمن شعره في ذلك .

تـدارك بي اللّه ديـن الهـــدى	فـأحييتــه وأمــت الصليبا
ألاقي بــوجهي سمــوم الهجير	إذا كاد منه الحصى أن يذوبا
فكـم قـد تخطيـت من سبسـب	ولاقيت بعـد دروب دروبـا

وكان مولعاً بالسماع محباً له وهو أول لذاته شغله عن كثير من المنكرات التي تعظم عليه بتبعتها والحمد للّه .

لا شك أن القارئ ينسب كل ما لهذا الخليفة من الأعمال الخيرية لقوة الدين وشدة العزيمة والبحث عن عواقب الأمور وفرط الروية والتبصر وأساس ذلك كله العلم والعمل

---

(١) المنبت : وصف للفرس السريع .

اللذان فتح له بأبهما أبوه .

باشر فى عهد أبيه الملك فدربه فيه تدريب الحكيم فمذ وليه لم يتعثر فى ذيله الطويل ولم يتحمل أبوه مسؤولية الخلافة حياً وميتاً بل أبرزه للورى إبرازاً لا يفرى أحد فريه [1] .

صرف بصره إلى وطنه وعرف مايجب له عليه . فحدق النظر . واستطلع الخفايا . واستجلى الدقائق . فتجلت له دعامة وجوده وروح حياته فرأى أنه بالفضائل يحيا وبالرذائل يموت ويفنى وباختيار الأمناء الأكفاء من الرجال يعز ويغنى وبالدخلاء يذل ويشقى .

تجلى له هذا المظهر فشعر بأن له شأنا عظيما فى الوجود وأحس بقواه المقدسة التى أودعها فيه مدبر الكون فاندفع إلى طلب الفضيلة الحقيقية والكمال الصحيح الذى هو له أهل فأصبح من أحسن الناس سيرة .

وإنما المرء حديث بعده   فكن حديثا حسنا لمن وعى

---

(١) لا يفرى أحد فريه : لا يضع أحد صغر .

عبد الرحمن الناصر

هو عبد الرحمن الناصر لدين الله ثامن ملوك الأندلس من الأمويين ويعرف بعبد الرحمن الثالث . ولد فى سنة ٢٧٧ وتولى الحكومة سنة ٣٠٠ وتوفى سنة ٣٥٠ .

وجد الأندلس مضطربة بالمخالفين مضطرمة بنيران المتغلبين بسبب أن من تولى الأندلس بعد عبد الرحمن الأوسط (كمحمد) و (المنذر) و (عبد الله) لم تصافيهم جيرانهم ولم تهملهم أيامهم فلم تطل مدتهم فى الملك ولم تطل أيديهم على أعدائهم بالدمار والهلاك فاشتغل فى إطفاء تلك النيران واستنزال أهل العصيان مدة استوعبت نيفاً وعشرين سنة من أيامه حتى استقامت له الأندلس فى سائر جهاتها بعد استيطان البلاء وفقد الرخاء واشتعال نار النفاق وضيق الآفاق فإذا به بسط العدل المشهور بالسيف المنصور وحقن الدماء المسفوكة وأمن السبل المخوفة وأحرز الأموال المنتهبة وحصن البلاد الخربة وجمع بإمامته الكلمة بعد افتراقها فهو الذى رفض الدعة وهى محبوبة وترك الرأفة وهى مطلوبة لتلين له الأحوال بعد الشدة وتكسر من شوكتها بعد الحدة والحمد لله على آلائه

ومن الغريب أنه كان فى عهد توليته شابا وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون فتصدى إليها واجتازها دونهم كأن الله هيأه وأعده لما أراده من الخير على يديه لهذه البلاد .

هو أول من تلقب بألقاب الخلافة وتسمى (بأمير المؤمنين) وكانوا من قبله يخاطبون ويخطب لهم بالأمير كما تقدم الكلام وذلك عندما تحقق أن أمر الخلافة بالمشرق قد ضعف واستبدت على الخلفاء مواليهم والتاث أمرهم على جماعة المسلمين وتطاولت أيدى الديلم لقتل الخلفاء (كما وقع للمقتدر من خادمه مؤنس) فظهر بمظهره فى مجالس الحشد والحفلة ومواطن الأنس والعظمة مستكملا شعارها من الإكبار والإعظام والإجلال والإكرام .

مدت إليه أمم النصرانية المجاورة لمملكته من وراء الدروب المستحكمة يد الطاعة والإذعان خوفا على أنفسهم وممالكهم من مطوى أفكاره ومخبوء تدابيره السديدة وآرائه المفيدة فصفا لهم إذا صافوه وأمنهم إذا سالموه تحرزاً من الوقوع فى إشراكه وأوفدوا عليه من رسلهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية فى سبيل المهادنة والتزلف والسلم والاعتمال فيما يعين فى مرضاته ووصل إلى سدته الملوك المتاخمون لبلاد المسلمين بجهات (فشتاله)

و (بنبلون) وما ينسب إليها من الثغور الحوفية (١) فكانوا يقبلون يده ويلتمسون رضاه ويحتقبون جوائزه ويمتطون مراكبه وكل وفد من الوفود يحتفل فى لقياه بالعسكر والقواد وأصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة كالموالى والحشم بما يناسب هول المقام وأبهة الخلافة ثم تقام لذلك الاحتفالات الشائقة وتتلى فيها الخطب الرائقة بما يدل على فخامة جاه الدولة وبيان ما يخطبه الغير من مودتها ثم يغدق على أولئك الوفود بالعطايا فيخرجون من الحضرة ويرحلون عن البلاد وقد اشتد عجبهم وطال تحدثهم بما رأوه من قدرة السلطان وعظمة الملك مما هو مبين فى مواضعه .

سما إلى ملك العدو فتناول « سبتة » ونقل « الفرضة » من أيدى أهلها وأطاعه بنو إدريس أمراء العدوة وملوك زناتة والبربر وفتح طليطلة وقرمونة . وإشبيلية . وكثيراً من البلاد العاصية والنواحى المستقلة .

كانت أيامه أيام جهد وعناء بما لقى من عنت الخوارج وتمرد العصاة وطمع ملوك الأطراف من المسلمين وقتال أمراء النصارى فى أستوريا ونواره . وملكى لاون اوردينو الثانى . ورامير الثانى . ومحاربة الفاطميين فى إفريقيا بعد ظفرهم بالملوك الأدارسة وإيغال جنوده فى السودان المصرى ومع ذلك فقد خرج ظافرا من معظم تلك الحروب ودوخ البلاد وأخمد الفتن وظفر بالمنتقضين عليه .

انظر لما شيده من الآثار وأقامه من علائم المجد مع هذه البلايا والمصائب الداخلية والمحن والفتن الخارجية الملتفة حول كرسى خلافته لا يكاد يلتفت إلى واحدة منها إلا وتستصرخه أخرى .

يده بيضاء على العلم والصناعة والتجارة فازدادت بذلك شهرته ومكانته فهو الذى أنشأ المبانى العظيمة وشيد المساجد والجوامع والمدارس الفخيمة ومن أشهر هذه الأعمال الخطيرة (مدرسة الطب) وهى أول مدرسة نشئت فى أوربا بإجماع المؤرخين (والمكتبة الشهيرة) بغرناطة وهى أجل مكتبة كانت فى عهدها على ظهر الأرض أودعها ستمائة ألف مجلد و (الأسطول) البحرى الذى غزا به إفريقيا .

شيد مدينة (الزهراء) وكأنما أحاطها بشعار التعظيم وألبسها رداء التكريم وناهيك ببلدة استدعى لإقامتها وبناء قصره (دار الروضة) فيها عرفاء البنائين والمهندسين من كل

(١) الحوفية : جوانب الوادى .

جهة فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينة وأقيمت على ٤٣٥٠ عامود من المرمر الخالص وصرف فى بنائها ٧٥٠٠٠٠٠ دينار واستغرق العمل فيها خمس سنين .

جلبوا إليها الماء من مستقره فى الجبال لسقاية المدينة ولوازم قصره وقصور سلفائه وأفخموا له تلك المبانى وأعظموها فى نظر كل إنسان ففاتت لعلو درجتها ماتقدمها من الآثار . جمعت عجائب البناء وغرائب الأشياء فحدائق القصور التى شيدها كلها ميدان اعتبار واختبار كانت منتزها للإنسان ومرتعا للحيوان ومسارح للطيور فهى للممالحة والحاجة والفطانة والنزاهة ثم أقام دار الصناعة وجمع فيها من آلات السلاح للحرب ما لا يوصف وأحيا بواسطتها ميت الأعمال الصناعية ثم جلب إليها ماقدر عليه من الخارج أيضا كصناعة العاج والآبنوس والصفر ومواد التلبيس والترصيع والتطعيم بالفضة والذهب التى لا تزال آثارها باقية للآن فى تعارج أبواب القصر والمدينة مجلبة للحسرات على مواضى هذه الأيام .

همـم الملـوك إذا أرادوا ذكـرها　　　من بعـدهـم فبألسـن البنيـان

إن البنـاء إذا تعـاظـم قـدره　　　أضحى يدل على عظيم الشـان

ذكرت جماعة المؤرخين سبباً لطيفاً لبناء هذه المدينة (الزهراء) قالوا إن الناصر ماتت له سرية وتركت مالا كثيراً فأمر أن يفك بذلك المال أسرى المسلمين وطلب فى بلاد الإفرنج أسيراً فلم يجد فشكر اللّه على ذلك وبنى هذه المدينة (فلله من هذا الفكر السامى الذى صبر ماله بين أن يجلب به على الأمة الشرف العظيم أو يقيم لها به الأثر الفخيم) .

ما كان أحوج هذا الملك العظيم إلى السلامة التامة من جميع وجوهها ليكون متساوى الفخار بين سره وجهره وعالنه وباطنه ولكن أين تذهب خيانة الخونة الذين ليس لهم شغل إلا طمس المعالم ودروس المآثر للأغراض الذاتية فيهتكون ما يحق أن يصان من حرمة الملك ويخرقون ما يجب أن يحفظ من هيبة السلطان . فهم الساهزون إذا رقد الناس المستيقظون إذا ناموا ليشنوا أنكر الغارات على الحاكم ويقيموا أقبح العثرات فى وجه الخليفة ليقعدوه عما هو فيه من نصرة الدين والمسلمين .

كان الخليفة عبد الرحمن كثير الجهاد والغزو بنفسه فيسير إلى دار الحرب ليثخن فى العدو حتى يدعوه للطاعة . لا شغل له إلا فتح الحصون وامتلاك البلاد والنواحى وإقامة

ميزان عدله فيها .

كبر على الخونة والمردة أن يوطيء عساكر المسلمين من بلاد الإفرنج ما لم تطأ قبل من أيام أسلافه . وحدث أنه كان للخليفة عبد الرحمن وزيراً اسمه (أحمد) نقم عليه أمرا واتهمه بخيانة فقتله . وكان لهذا الوزير أخ يدعى أمين بن إسحق من بنى إسحاق أمراء الأندلس المروانيين (عمال الأندلس فى عهد بنى أمية وبنى مروان) فحقد ابن إسحق على الخليفة وعصى فى مدينة (شنترين) سنة٣٢٥ وأحدث بها ثورة عظيمة . ثم التجأ إلى (راد مير) ملك الجلالقة ودله على عورات المسلمين وكانت بينهم الواقعة المشهورة بواقعة (الخندق) ذهب فيها من عسكر المسلمين خمسون ألفاً أو يزيدون بخيانة هذا المارق والأعجب من ذلك أنه استأمن إلى الخليفة عبد الرحمن بعد أن تخلص من (رادمير) ووسعه حلمه وكرمه وقبله أحسن قبول .

بعد هذا الحادث قعد الخليفة عبد الرحمن عن الغزو بنفسه وصار يردد الصوائف فى كل سنة ثم جهز عسكراً مع عدة من قواده إلى الجلالقة وكان له عدة حروب هلك فيها من الجلالقة خلق كثير .

انظر (لولا هذه العثرة) كيف يكون ملك الأندلس مع خليفة مثل هذا جمع أشتات الفضائل حيث أعطى القوتين العلمية والحربية ورفع منار العلوم والفنون وأدخل فى الأندلس مفاخر كل جهة وزينة كل بلد وانقاد له المغرب الأقصى وحث الناس على الأدب الدينى فانغمسوا فيه فترقت نفوسهم وسمت إلى مراق الفلاح ونشرت التربية القومية بتعميم العلم والتهذيب بغير تقصير من العلماء الذين هم روح الأمم وحياتها فبعث الأمة فى خلق جديد .

لطيفة له — (أقصها عليك تعلم منها قدر احترامه للعلماء وقدر إعظام العلماء أنفسهم فى أيامه لما ذاقوه من لذة العلم وأحسوا به من شرفه) — اشتاق مرة للفقية الإمام أبى إبراهيم فطلبه وكان بالمسجد المنسوب لأبى عثمان يسمع طلبته الحديث الشريف فبعث إليه الخليفة خادما يدعوه إليه فلما جاءه وبلغه رسالة مولاه قال له السمع والطاعة ولا عجلة ارجع إلى أمير المؤمنين واذكر له عنى إنك وجدتنى فى بيت من بيوت اللّه مع طلاب العلم أسمعهم حديث ابن عمه رسول اللّه ﷺ يقيدونه عنى وليس يمكننى ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم فى رضاء الله وطاعته فإذا انقضى مشيت إليه إن شاء الله . فمضى الخادم ولم يلث إلا ريثما أدى جوابه وعاد يقول أنهيت إلى أمير المؤمنين

رسالتك فقال جزاك الله خيراً عن الدين وعن أمير المؤمنين وجماعة المسلمين وإذا أنت أوعيت فامض إليه وكان ذلك .

فحبذا الحاكم والعالم هؤلاء الرؤساء الصادقون المفلحون الذين زينوا وجه الدين وانصرفوا عن الفخفخة الباطلة إلى الصراط المستقيم وعلى فعلهم هذا بنى القائل قوله :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظما

فمتى علماؤنا لهذا السر يفقهون وبهذا القليل يتعظون.

تهذبت فى أيامه الأمة فجمع ما يؤثر عن أهل الأندلس من نوادرهم وحكايتهم فى العدل . والوفاء . وحسن الاعتذار . والقيام بحق الإخاء وعلو الهمة فى العلم والدنيا . والذكاء . واستنباط العلوم واستخراجها . وحب العلم واللطف ، ورقة الأخلاق . والقوة والشجاعة . والملح وأجوبة الملوك . والظرف . والبلاغة وعدم احتمال الضيم والذل والأنفة . والجود والفضل وسرعة البديهة . والعفو وغير ذلك من الخصال الحميدة التى تدخلت تحت عنوان مكارم الأخلاق جميعها . نما ذلك فى مدته فهو إما باذرة أو غارسة أو منمية أو مستثمرة رحمه الله .

مضت أيام هذا الخليفة على الأندلس وكأنما هى خيال حالم أوحديث نائم تولاها ولم يكن فى بيت المال ما يسد شيئاً من نفقات الجند وغيرها ثم توفى فترك من الأموال المدخرة شيئاً عظيما فضلا عن السلطان الكبير والمجد الباذخ حتى لقبه الإفرنج بالكبير والعظيم .

عمر مملكته بالعدل والإحسان فنمت البركة فيها وانفسحت نفوس الرعايا للسعى والاكتساب وابتعد عن الظلامات المفسدة للعمران من تكليفهم بالأعمال وتسخيرهم بغير حق أو أخذ ما بأيديهم بأبخس الأثمان فقامت الدولة وعظم عمرانها لأمان الناس على أموالهم ، وحرمهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم .

كانت الأندلس فى زمانه زاهية بالمعارف والعلوم زاهرة بالثروة والغنى يعجب الذى يقابلها بحالها اليوم ، فأين كثرة الصناعة والتجارة والمعامل الحريرية والمصانع الغريبة وورش التطريز والوشى والنسج . ومع هذا الكمال الذى لا يفضله إلا الكمال الإلهى فقد وجدت بعد وفاته ورقة مكتوبة بخط يده يعدد بها أيام السرور التى صفت له مدة حياته فإذا بها أربعة عشر يوما .

نقب الكثير من طلاب الأخبار على هذا الأثر فما عثروا عليه وجال فى فهم الكثيرمنهم تأويل ذلك أو استنتاجه فذهبوا أيضا مذاهب شتى والذى يدل على الخبر إن صح أن تلك الأيام التى عدها هى أوقات فراغه من أشغال الملك لأن الملك بنى على المشاغل وهى لا تنتهى فإذا تم للملك ما يريد وأمكنه أن يرصد لنفسه وقتا يرى نفسه فيه خاليا عن حاجات المنصب الذى أقامه الله فيه فتلك سعادة مافوقها سعادة وقد قال قوم غير ذلك وكثر القول حتى ألف بعض الأجانب رسالة فى تلك الأيام ذهب فيها مذهب القصص و « الرومان » فأضعف هذا التخمين ذلك اليقين والله أعلم .

وخير ما فى المسئلة أن ينظر العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها . هذا الخليفة الناصر حلف السعود المضروب به المثل فى الارقاء فى الدنيا والصعود ملكها خمسين سنة وسبعة أشهر وثلاثه أيام ولم تصف له إلا أربعة عشر يوما فسبحان ذى العزة القائمة والمملكة الدائمة لا إله إلا هو . ثم يستكثر فى أعماله من كل خير وبر فما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .

لا تغبط الأقوام يوماً على ... ما أكلوا خضما [١] وما سربلوا [٢]

يذبل غصن العيش حقا ولو ... أضحى ومن أوراقه يذبل

(١) الخضما : الأكل بجميع الفم .
(٢) سربل : لبس القميص .

الحكم المستنصر بالله

هو الحكم المستنصر بالله بن الخليفة عبد الرحمن الناصر وولى عهده من بعده . اعتلى سرير الملك يوم وفاة أبيه يوم الخميس وقام بأعبائه أتم قيام وأنفذ الكتب إلى الآفاق بتمام الأمر له ودعا الناس إلى بيعته واستقبل من يومه النظر فى تمهيد سلطانه وتثقيف مملكته . وضبط قصوره وترتيب أجناده وأول ما أخذ البيعة على أهل القصر ثم على إخوته وكانوا يومئذ ثمانية فوافى جميعهم وجلس وجلست الناس للبيعة طبقة كما هو مفصل فى مواضعه فلما تمت أذن للناس بالانفضاض ثم أخذ هو وأخوته فى تشييع جنازة الناصر لقصر قرطبة للدفن هناك فى تربة الخلفاء .

وفدت عليه الوفود للبيعة والتماس المطالب وقدمت من أقاسى البلاد فجرى على رسم أبيه الخليفة عبد الرحمن الناصر رضى الله عنه فى سلوك سبيل القصد واتباع طريق الرشد واحتذاء حسن الأثر حتى قالوا إن الأندلس لم تفقد إلا شخصه وصح عليه قول أبى الحسين فى ممدوحه أبى العشائر :

يابن من كلما بدوت بدا لى　　غائب الشخص حاضر الأخلاق

لو تنكرت فى المكر عليهم　　حلفوا أنك ابنه بالطلاق

استخلف على عمله أهل الفهم والمعرفة وذوى الدين والورع والدعة والفقهاء المشهورين بالغناء والكفاية والعلماء الجامعين للرواية والدراية حتى ظهر فى عيون الأعداء والأصدقاء بمظهر الكرامة والاحترام .

أهدى للحكم فى أوائل ولايته هدية جمعت أفخر الآثار العظيمة والنعم الزائدة فمن مماليك كانها الأغصان ناشية على ظهور خيول صافنة [١] كاملو الشكة والأسلحة يشجى بهم حلق العدو المناوى والخصم المنازل والسيوف والرماح والتراس والقلانس الهندية والدروع والخوذ المختلفة الأجناس فكان لذلك مفتخر جليل ومحتفل جميل تضاعف به

---

(١) صافنة : قائمة .

اغتباط قوة حرمة الملك واستبطال به عماده على جميع المملكة .

غزا بنفسه لأول وفاة الخليفة الناصر جيوش الجلالقة الذين طمعوا فى الثغور واقتحم بلد (فردلند) وفتح (اشتبتين) عنوة فبادروا إلى عقد السلم معه واتقبضوا عما كانوا فيه ثم أغزى عاليا مولاه بلاد (جليقيه) وسار إلى مدينة سالم لدخول دار الحرب فجمع له الجلالقة ولقيهم فهزمهم وأوطأ العساكر بلد (فردلند) وغزا (شانجه بن رادمير) ملك البشنكس وقد ساعده ملك (الجلالقة) فهزمهما وقصد بلاد برشلونه . وبلاد القومس وعظمت فتوحاته وظهرت همة قواده ومرابطى ثغوره فى كل ناحية وكان من أعظمها فتح (قلمرية) و (قطوبية) .

ثم دخلت سنة ٣٥٤ فابتنى حصن (عرماج) وظهرت فى هذه السنة مراكب المجوس (فى الأطلانطيق) وأفسدوا (أشبونه) فناشبهم أهلها القتال فرجعوا إلى مراكبهم وأمر الحاكم القواد فخرجوا لحفظ السواحل وأمر قائد البحر بتعجيل حركة الأسطول ونال من كل جهة من السواحل .

تم له ما أراد مع ملوك البشكنس وغيرهم وعاهد (لذريق) ووفدت عليه أمه بهدايا ملوكيه عظيمة ووصلته ووصلها وحملها أحسن محمل وأجزل عطاءها .

أوطأ عساكره أرض العدوة من المغرب الأقصى والأوسط وتلقى دعوته ملوك زناته من مغراوة ومكناسة فبثوها فى أعمالهم وخطبوا بها على منابرهم وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما بينهم ووفد عليه من بنى الحرز وبنى العافية فأجزل صلتهم وأكرم وفادتهم وأحسن منصرفهم واستنزل بنى إدريس من ملكهم بالعدوة فى ناحية الريف وجلاهم إلى الإسكندرية .

أما خلاله الشخصية فقد كان آية فى الفضيلة . سمع من أجلاء وقته وأجاز له ثابت بن قاسم وكتب عن خلق كثير وكان محبا للعلوم مكرما لأهلها جماعا للآثار الشريفة والأسفار الكريمة والكتب القيمة على اختلاف أنواعها فسبق من تقدمه وجمع ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله فأقام للعلم سوقاً وجدد للعلماء شوقاً وظهر بهذا المظهر فجلبت إليه بضائع الفضل من كل قطر وحسبك بخزانة جمعت من الأسفار ما اقتضى لاستيفاء فهرستها (أربعة وأربعين جزءا) . جمع مقداراً ضاقت خزائنه عنه وكان ذا غرام بها وقد آثر ذلك على كل لذائذ الملك وأغراض الملوك فاستوسع علمه ودق نظره وجمعت

استفادته وكان فى المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب ثقة فيما ينقله . ومن أشد مايتعجب منه وقد اتفقت على روايته الرواة أنه قلما يوجد كتاب فى خزانته الآولة فيه قراءة فى أى فن كان وعليه تخاريج بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده .

أتحفه أبوه (الخليفة الناصر) بأحسن مايتحف به والد ولده فقربه من العلماء وقرب العلماء منه منه ومكن بينه وبين كل وافد على الأندلس من المشرق من العلماء فكانت نفسه روحانية صرفاً . وفد أبو على القالى صاحب كتاب الأمالى على الأندلس من بغداد فأكرم الناصر مثواه وأحسن منزلته وأعلى قدره واختصه بالحكم فأورث أبو على لأندلس علمه وأفاد الحكم بأحسن ما عنده .

قويت عند الحكم رحمه الله مادة حب العلم حتى كان يبعث بالتجار إلى الأقطار ومعهم الأموال لشراء الكتب واستجلاب المصنفات من الأقاليم والنواحى باذلا فيهما ما أمكن من الأموال مما لا ينفقه غيره حتى جلب للأندلس ما لم يعهده علماؤها . هذا كتاب الأغانى بعث فيه لأبى الفرج الأصفهانى مصنفة بألف دينار من الذهب العين فبعث إليه بنسخته قبل أن يخرجه إلى العراق وكذلك فعل مع القاضى أبى بكر الإبهرى فى شرحه لمختصر بن عبد الحكيم .

جمع بداره الحذاق فى صناعة النسخ والمهرة فى الضبط والإجادة فى التجليد فأوعى من ذلك كله واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده ولم تزل بقصر قرطبة حتى أصابتها مصيبة البربر عند دخولهم إليها عنوة ولا حول ولا قوة إلا بالله .

يطيش الإنسان عندما يجد خليفة مثل هذا استشعر الناس فى زمن خلافته بالمسرة والمعزة والقوة فى الدين وجماعة المسلمين وعلا به كعب أمرائهم وسمت نفوسهم بواسطة آدابه إلى كل عمل شريف وأفاضوا بالتحدث فيه وكانت للخطباء والشعراء ميادين ومقامات يطول القول فى اختيارها . وسيرته مجهولة عند كثير من الناس وعند ناشئة الشرق بأجمعهم فإن سئلوا عن ملك عالم مثلا فأقرب مايحدثونك به سيرة (كارلوس الأعظم) أو (لويس الرابع عشر) نعم إنهما كانا فى تعضيد العلم وتشييد أركانه آيتين ولكنهما ليسا بمفخر المسلم إن أراد الافتخار وأولى به أن يلم بخبر نفسه ودينه وملته وتاريخ مجده وحياة خلفاء الإسلام ففى ذلك من الخير الكثير مايربوا على ما علم ويزيد على ما حفظ فلا يكون مصداقا لقول الشاعر :

(كتاركة بيضها بالعراء   وملحفة بيض أخرى جناحا)

يصح أن تكون هذه الخلافة خاتمة خلفاء الأندلس ذات الدولة العظيمة والثروة الوافرة والمجد الباذخ لأنه لما توفى الحكم رحمه الله فأول ما حدث أن قتل المغيرة أخوه وهو المرشح للحكم وولى بعده ابن الحكم هشام وكان صغيراً سنه تسع سنين ليتم لابن أبى عامر فى الدولة ما يريد كما سيجىء تفصيله إن شاء الله . ثم ولى المهدى محمد بن هشام ابن عبد الجبار بن الناصر وهو أول خلفاء الفتنة ثم انتهى الأمر بسقوط الدعوة للخلافة الأموية واستبدت ملوك الطوائف كما سيأتى .

كانت الدولة الأموية من أعظم الدول مكانا وأشرفها موقعا ظهرت فيها منافع كثيرة للحضارة والمدنية عامة وللأمة العربية خاصة يكاد السامع بها لا يصدق بزوالها كأنما عليها مسحة من بقاء ودوام زراعة متقنة وصناعة رائجة والمدارس تخرج حكماء وعلماء وقواداً . وأبطالا شداداً وفلاسفة مرشدين وكتبة وحسبة من أحسن الكتاب المقربين وشعراء مصنفين وصناعا مهرة مبرزين فى فنون البناء والتصوير والنقش والتزيين لا تزال آثارهم تدل عليهم وتشهد بفضلهم وشهادة العدو المناوى أعدل شاهد :

حجت إليه ملوك الأرض قاطبة   يستشرفون معاليه بأجلال

يصد مطمع من ناوأه مبتئسا   يعييه عن حذو تمثال بتمثال

ولكن ما الحيلة فى احتدام حروب النفوس الشريرة ونزول بلاء سوء الأخلاق وانقراض الدول وانحطاطها بيد أهلها يحق للسائل أن يسأل أين ذهبت هذه العظمة وكيف وهى هذا الركن العظيم وما هو ذلك الشئ الجسيم الذى أدى لهذا الاختلال السريع فى الخلافة الإسلامية فى المغرب والظاهر أن السبب فى ظهور روح الشقاق والخروج على السلطان من الأمة والطمع فى الخلافة من كل من له وشيجة رحم بالخلفاء خروج الخلفاء أنفسهم عن المنهج الشرعى والانتهاج لغيره ولذلك نسب كثير من المحققين اختلال هذه الخلافة لعدول عبد الرحمن الأول (الداخل) من البيعة وميله (لولاية العهد) فقد عهد بالخلافة لمن بعده من ولده وخص بها (هشاما) الأول فكبر ذلك على أخويه الكبيرين سليمان وعبد الله وخرجا عليه وحاولا سلب الخلافة منه فتغلب عليهما وعفى عنهما ثم خرجا بعده على ولده الحاكم وطلبا قسمة البلاد معه . ويقولون إن نار هذه الفتنة كانت مضطرمة ولكن قوة الحاكم القائم بالملك أوقفت الناس عند حدها زمنا وردتهم على

أعقابهم عهداً . ثم لما انصرم هذا العصر حدث ما حدث وإنه لو جرى المسلمون كعادتهم فى الاختيار والانتخاب لسلموا من هذا البلاء فإن هذا الحادث أوجب فى نفوس العمال طمعاً كبيراً وحدث كل نفسه فى خلوته بما حدث فكانوا يخفون أمرهم فى إبان القوة خوفا على مناصبهم ويظهرون بكمال الطاعة والانقياد فى ظاهر الأمر ويستعدون لنوال مقاصدهم سراً ويتربصون بالخلفاء الدوائر حتى أضرم القتال فى شمال البلاد ولاة سراقسطه وطليطلة . وجوسقة . ثم توالت الثورات حتى زلزلت المملكة بزلازلها وأورثتها خبالا بوبالها وقويت الأمراض حتى أضعفت خراج الدولة (وكذلك الظلم كمين في النفس القوة تظهره والضعف يخفيه) وفى الحقيقة أن منهاج الخلافة الشرعى – وهو جعل الحل والعقد والنكث والقتل وسائر الشؤون العامة مقيدة بالشورى المتبعة يحبب للأمة معالى الأمور وهذه أيام الخلفاء الأربعة وعصرهم من أعدل الشواهد على ذلك والعدول عن سير هؤلاء الخلفاء يدفع بالأمة إلى السفاسف ويحط من مهابة صاحب السلطان ويخفض من شوكته ويستفحل فى عصره أمر الثوار والخارجين عليه لأنهم يلحظون من ذلك أنه انغمس فى النعيم المضعف للنفوس عن الحرب والجهاد وأهمل أمر الصانع والزارع وأن الأمة أصبحت فى مدته أتباعاً لكل ناعق وأن التربية القومية مفقودة بالمرة ويتبع هذا عدم تعميم التعليم والتهذيب اللذين هما من أهم ما جاء به الدين الحنيف الإسلامى فإذا وقع ذلك فليرتقب كل عناء وبلاء .

ملوك الطوائف

هذا العنوان يصح أن يطلق على الملوك من أصحاب الأطراف الذين يملكون كل فى بلاده على أثر انقراض دولة قوية وهو حال يعرض لكل دولة متى أحطت حكامها وأمراؤها من شأنها وأضعفت من صولتها حتى علم العدو بمكانها من الضعف وأصبح أمر انحطاطها ظاهرا والقائم عليها لا يقدر على جمع النفوس المفترقة وتأليف الأهواء المختلفة وكف الأكف العادية ورد جماح العزائم الفاسدة يعرض لها بعد أن يفارقها حسن الرأى وجيد القريحة وسديد النظر وصحة اختبار الأحوال وحسن اختيار الرجال وغير ذلك من المعانى التى تتشعب من هذه الأصول الشريفة وتتعلق بهذه الفصول الرفيعة فإذا أصبح القائم غير ناهض بما حمل ولا مستقل بما قلد ولا نافذ الأمر فيما هو له أهل من الأمر والنهى ولا مؤد ما استودعه الله من أمانة الحكم على عباده فهناك الانقسام وهناك ملوك الطوائف .

ظهرت ملوك الطوائف على أثر انقراض (الدولة الرومانية) وقامت كذلك على أنقاض (الدولة الكيانية) فى بلاد الفرس بعد أن قتل « دارا » آخر ملوكها واستولى « الاسكندر » على مملكته . ونهض بها فى المغرب أيضا أهل السوء الذين لايميزون طالب الحق من منكره وجاحد الصدق من منتظره (حال اختلال الدولة الأموية) كانت ملوك الطوائف بالأندلس عقب انتشار عقد الخلافة الأموية وما انتاب هذه الخلافة من الضعف لآخر عهدها وما كان من خلع الجند لهشام آخر خلفائها واستبداد الأمراء والرؤساء والوزراء وكبار العرب والبربر بالأطراف واقتسامهم خططها وتغلب بعضهم على بعض واستقلال قوم على قوم واشتداد الفرقة بينهم وبلوغهم في الجهل درجة أدت بهم إلى التزلف لأعدائهم ملوك أسبانيا فيدفعون الجزية لهم (عن بدوهم صاغرون) صونا لملكهم (ساء مايتوهمون) ويأنفون من ارتباطهم مع بعضهم وهم من عنصر واحد ودين واحد وملة واحد .

هدمت الدولة الأموية (بعد أن كانت أرفع الدول عماداً وأعظمها شأنا وأضخمها سلطاناً وأكثرها جنوداً وأمدها سلطنة وأعلاها ذكراً وأبعدها اسما) بسبب سوء الخلال

وفساد الطباع وخصال السوء ودناءة الأخلاق وخبث السرائر والطباع التى خالطت القلوب بتغرير الدخلاء وفساد المفسدين من أعدائهم مازالوا بهم حتى أنسوهم خاصة وعامة مكارم الأخلاق فلا وفاء بعهد ولا أمانة فانقلبوا على بعضهم وجعلوا بأسهم بينهم وفشت كراهة الأموى للقرشى وتحول الأمر من المضرى إلى اليمانى .

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

تفرق ملوك الطوائف واقتسموا الأندلس فتجزأت بعد أن كانت مجتمعة وأصبح بإشبيلية وأعمالها (محمد بن عباد) وبيطليوس وأعمالها (محمد بن عبد الله المعروف بالأفطس وبطليطلة وأعمالها (ابن بعيش) وبسراقسطه وأعمالها (سليمان بن هود الجذامى) وبطرطوسه وأعمالها (لبيب العامرى) وبيلنسيه وأعمالها (المنصور المغافرى) وبالسهلة وأعمالها (عبود بن رزين البربرى) وبوانيه وأعمالها (الموفق العامرى) وبمرسيه وأعمالها (بنو طاهر) وبالمرية وأعمالها (خيران العامرى) وبمالقه وأعمالها (بنو حمود) وبغرناطة وأعمالها حبوس الصنهاجى .

بهذه الصفة تفرقت دولة بنى أمية وتباهت ملوك الطوائف فى أحوال الملك (كأنها أحسنت صنعا) فأصبحوا طرفا فى الترف ونهاية فى الحضارة حتى قلدوا الخلفاء فى الألقاب والنعوت وجعلوا لهم حجابا يتكلمون عنهم وهم وراء الستر وصح عليهم قول (شارل مارتيل) حينما فزع إليه سكان فرنسا ليستشيروه فى ما يفعلونه مع العرب فى عهد هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥ وأمهلوا العرب حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا من المساكن ويتنافسوا فى الرئاسة ويستعين بعضهم على بعض وتفارقهم هذه الصفات التى تغنى عن كثرة العدد والقلوب التى دونها حصانة الدروع ثم خذوهم ببعضهم) .

أخذ ملك الإسلام فى الأندلس فى التضعضع وملوكه فى التفرق وحدث منهم ما أوجب علماء الأمة وأمناء الملة أن تفتى بجواز الحرب معهم لا نحرافهم عن الاستقامة ومساعدة بعضهم للأسبانيول وظهر فى أثناء ذلك أمر يوسف بن تاشفين فكتب إليه المعتمد ابن عباد أمير أشبيلية يعلمه بحال الأندلس ويسأله النصر والإعانة ثم طال به العهد لاشتغال يوسف بن تاشفين بالفتح فذهب إليه والتقى به وكان ما كان من دخوله الأندلس وحربه مع الفونس السادس ملك قشتالة فى واقعة من أكبر وأشهر وقائع المسلمين بالأندلس ووفقه لامتلاك بعض البلاد ونفوذ الكلمة فى المغرب ضابطا لمصالح مملكته مؤثراً لأهل العلم

والدين كثيرة المشورة لهم حتى أن الإمام الغزالى رضى الله عنه لما سمع بسيرته عزم على لقائه ولكن الموت حال بينهما .

انتقل الملك بعد وفاته لأولاده ولم يكن فيهم من أهل الحوطة والصون مايكفى لتنكيل أعداء الله والدولة طائحة فى هوة الهلاك فانقرضوا فى سنة ٥٤٢ وقامت دولة بنى الأحمر وهى آخر الدول الإسلامية فى بلاد الأندلس ومنها استرجع الأسبانيول ما كان بأيدى المسلمين وبهم انقرضت الدولة الإسلامية من أسبانيا لا بأس بأن نلم بعض الإلمام بشئ من الأسباب الظاهرة التى كانت سببها لهذا التفرق والانقسام آل الحكم إلى هشام بن الحكم وهو صبى صغير لا يتجاوز عمره تسع سنين مضعف عاجز عن القيام بالملك فقام به كافله من وزراء أبيه (أبو عامر) فحجب الصبى عن الناس واستبد بالملك واستحكمت له صبغة الرئاسة وتحول الملك إليه وآثر به عشيرته وأبناءه وسما به أمل التغلب فمكر بأهل الدولة وضرب بين رجالها وقطع بعضهم ببعض وصار كأعظم ما يكون ملكا وسلطانا .

هلك والخلفاء من بعده ملعبة لاعب لأنه جدد فى الأذهان طريقة الوثوب على مقاماتهم العالية وحمل الخلفاء على القناعة بالأبهة واللذات وأنساهم عهد الرجولية فقامت الناس من بعده فخلعوا هشاماً وقتلوا ابنه ثم ولوا الحكومة عبد الرحمن المرتضى ثم قتلوه وهكذا المستظهر والمستكفى ثم خلعوا هشاما وأمية بن عبد الرحمن الذى انتهت به الخلفاء فى الأندلس وعدتهم ستة عشر خليفة فى مائتين وأربع وثمانين سنة .

تدمع عين القارئ من شؤم ما جرى فى هذه البلاد وسوء ما وقع بها أكثر مما ضحكت سنه وانشرح صدره سروراً بدخول طارق بن زياد أولا وموسى بن نصير ثانيا وما شيدا فيها من دعائم المجد وأعلام الهدى .

إن حزنـــا فى ساعة الــفرقـــة　　　أضعـاف سرور فى ساعـة الميلاد

قاتل الله الجهل والشقاق ! أباد هذه المملكة بعد أن كانت مجتمع أعلام الأنام مقر سرير الخلافة ومركز الكرماء ومعدن العلماء فليقس من كان شأنه القياس من الناس حالا بحال وفتحا بفتح لينكشف له ما حدث وليتحقق ماجرى .

قامت دولة بنى الأحمر المنسوبين إلى سيدنا سعد بن عبادة سيد الخزرج ونيران الدسائس مشتعلة بيد الأعداء وقد كثر أمر الثوار ومازال الفشل مستمراً بين العدو مرة وبين المسلمين وبعضهم أخرى والقائمون بالأمر بعضهم يقتل وبعضهم يخلع والمدن والقرى فى

فتن وخطوات يطول شرحها والبلاد تنقض من أطرافها بسبب الخذلان الذى أدى إليه الشقاق حتى لم يبق لبنى الأحمر إلا غرناطة وأعمالها فأقبل العدو بجيشه المركب من جيوش قشتاله واراغون تمده (أوربا) فلم يكن منهم إلا أنهم أفسدوا الزرع وقطعوا الأشجار وهدموا القرى وشددوا الحصار على المسلمين إلى أن تمكن فصل الشتاء ونزل الثلج وانسد باب المرافق وانقطع الجالب وقل المطعوم والطاعم واشتد الغلاء وعظم البلاء فلم يكن من أهل العلم والوجاهة إلا ملاقاة السلطان أبى عبد الله فاجتمع الناس إليه ورأو أن ارتكاب أخف الضررين بالصلح أولى واتفقوا على شروط عقدت ثم قرئت ووافقوا عليها وكتبت بها البيعة ونزل السلطان من غرناطة عن كرسيه ولا حول ولا قوة إلا بالله .

اشتملت هذه الشروط على سبعة وستين شرطا منها تأمين الصغير والكبير فى النفس والأهل والمال . وإقامة الشريعة على ماكانت عليه . فلا يحكم على أحد إلا بشريعته ولا يولى على المسلمين نصرانى ولا يهودى وأن لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ولا يجبر أحد على ترك دينه ولا يمنع مؤذن ولا صائم ولا مصل عما هو قائم به إلى آخر ماهو مدون بها من بقية الشروط التى وضعت باتفاق الطرفين) .

وافق كلهم على هذه الشروط حتى صاحب رومه ووضع خط يده عليها ولكن الأسبانيول لم يراعوها إلا ريثما تقدموا فى الأمر وتمكنت قدمهم وعلموا أن لا ناصر للمسلمين من ظلمهم فعدلوا عن مراعاة تلك الشروط معهم وأذاقوهم أنواع العذاب والاضطهادات خصوصاً لما تشكلت المحكمة المعروفة محكمة (التحرى القسيسى) (أنكيز سيون) فكان لها من القسوة ما يخجل كل من كان فى قلبه ذرة من المروءة والإنسانية .

أنشئت هذه المحاكم بأمر الباباوات (مصدر الرحمة والإحسان) خدمة للدين فى ظاهر الأمر ولكنها سياسية باطناً فأتى الأسبانيول أعمالا بربرية وحشية فأحرقوا الزرع وهدموا الدور وغيروا وبدلوا بالمعالم الثابتة والآثار الجميلة ظلما وعدوانا فإذا آثار المسلمين بتلك الأطراف بائدة لم يبق منها إلا ماصح عليه قول القائل :

كـاد الليالى وكادتـه مجالـدة   وانكف عاديهـمـا من بعـد تقتال

ثم أنثنت وبها من صبره حـرق   وإن كسته لكـيد ثـوب أثمـال (١)

(١) أثمال : ثياب بالية .

كلت يد الأعداء عن إبادته كما ضعفت يد الدهر عن فنائه ففيه للآن بقية يندهش منها الإنسان تدل على المعارف والفنون التى كانت فى تلك البلاد تنشد بلسان الآثار والعمائر والمبانى والمدن والدساكر وعجائب الرسوم ودقة النقوش وأحكام البناء ان أهلها بلغوا النهاية من الارتقاء والغاية من مدارج العلاء وتنذر الناس بأن الجهل معول يقتلع الرواسى الشامخة ويحط إلى حضيض الثرى إذا كان العلم يرفعها للثريا .

لا يستطيع إنسان أن يجحد حسن حال أسبانيا ، عصر الدول الإسلامية لأن مؤرخى الغرب اتفقوا مع مؤرخى العرب على أن الأندلس كانت فى مدة الدول الإسلامية فى رواج عظيم وأنها اشتهرت فى خلافة عبد الرحمن الثالث اشتهارا لم يكن لها من قبل ولا أتى لها من بعد لاعتنائه بالمعارف وإنشائه المدارس وتنشيطه الصنائع وتوسيعه دائرة الصناعة حتى ذاع صيتها وتقاطرت إليها الطلاب من كل البلاد وسادت على العالم . وقد اعتمدنا فى نقل هذه العبارة الصغيرة التى يؤخذ منها ما كانت عليه وما صارت إليه من دائرة المعارف فى الكلام على نقطة أسبانيا صحيفة ٣٣١ جزء ٣ لأننا متحققون بأنها تستقى وتستمد فى نقولها على الغالب من مؤلفات أجنبية قال المؤلف : (إن الصناعة فى أسبانيا كانت ذات رواج عظيم فى القرون الماضية واشتهرت بها فى القرون المتوسطة منسوجات الصوف والحرير المصنوعة فى إشبيلية وغرناطة وبياسه والأجواخ المصنوعة فى مرسيلية والأسلحة المصنوعة في طليطلة (غير أن جلاء اليهود والعرب من أسبانيا وحصر حقوق البيع والشراء بمصنوعات معامل الحكومة والرسومات العظيمة التى جعلتها الحكومة على مصنوعات المعامل الخصوصية التى كانت تتضاعف بطمع مأمورى الرسومات سببت سقوط الصناعة فى أسبانيا) .

كان فى إشبيلية فى القديم ١٦ ألف محل لصناعة الحرير فعلتها ١٣٠ ألف شخص ولحد سنة ١٦٧٣ لم يبق منها سوى ٤٠٥ محلات . وكان فى شقوبيه معامل يخرج منها سنويا ٢٥ ألف شقة من الحرير وفى سنة ١٧٨٨ لم يخرج منها إلا ٤٠٥ شقة فقط ا هـ

وعلى هذا القدر يقاس . والواقف على تواريخ أسبانيا يعلم ما كان لليهود فيها سمو المقام والتقدم فى الآداب أزمان العرب والإسلام وأن الكثيرين منهم كانوا يتقنون العلوم العبرانية أى إتقان . ولم يقل أحد بأن العرب أذاقوهم مرارة الجلاء عن بلادهم كما وقع ذلك لهم فى عهد الحكومة الأسبانيولية بل وقع الأمر على العكس فإن المؤرخين على إجماع بأن أعظم الأسباب التى سهلت لليهود والنصارى سبل الانضمام والارتباط فى

هده البلاد ضد العرب هى أن الدولة الإسلامية حفظت لم استقلالهم فلم يعسر عليهم أن يكونوا مملكة بعد . ومن هذا أيضا مافعلته الدولة العلية العثمانية مع تبعتها من غير المسلمين فى الروملى وغيره . حفظت لهم كيانهم فضلا عن استقلالهم فلما وثبوا للخروج عليها بإغراء الدول لم يجدوا مايعوقهم عن العمل لغرضهم لأنهم مجتمعون متحدون .

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

تم بحمد الله وتوفيقه

رقم الإيداع ٢٢٩٢ / ١٩٩٢